

التسامح والعدوانية

بين الإسلام والغرب

ح المكتب التعاوني للدعوة والإرشاد وتوعية الجاليات بالمدينة المنورة، ١٤٣٥هـ.

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الحصين، صالح بن عبدالرحمن

التسامح والعدوانية بين الإسلام والغرب./ صالح بن عبدالرحمن الحصين.

المدينة المنورة، ١٤٣٥هـ

٢٧٦ ص – ١٧× ٢٤ سم

ردمك: ٣-٢-٩٤١٥-٩٩٦٠-٩٧٨

١– الإسلام – مبادئ عامة ٢– التسامح الديني ٣– الإسلام والغرب أ.العنوان

ديوي ٢١١ ١٤٣٥/٥٠٢

رقم الإيداع: ١٤٣٥/٥٠٢

ردمك: ٣ -٢- ٩٤١٥- ٩٩٦٠- ٩٧٨-

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ -٢٠١٣م

الناشر





التسامح والعدوانية

بين الإسلام والغرب

تأليف

صالح بن عبد الرحمن الحصين



إصدار

المكتب التعاوني للدعوة والإرشاد وتوعية الجاليات بالمدينة المنورة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين ولي الصالحين ورافع المتقين، والصلاة والسلام على نبي الأولين والأخرين وقائد الغر المحجلين محمد بن عبدالله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

أما بعد:

يموج عالم اليوم بالصراعات العسكرية والسياسية والإقتصادية والثقافة والفكرية، ولعل صراع الثقافة والفكر هو من أخطرها وأشدها تأثيرا على الشعوب والمجتمعات.

وفي جانب علاقة الإسلام بالغرب تأتي دراسة: (**التسامح والعدوانية بين الإسلام والغرب**) لتكشف لنا جانبين مهمين في هذه العلاقة أحدهما: عدوانية الغرب خاصة مع العالم الإسلامي وعنصريته وتجاوزاته عبر التاريخ وذلك بالوقائع التاريخية والأدلة العلمية.

والجانب الثاني تقدم تأصيلا علميا ورؤية واقعية وبرهانا واضحا لوسطية الإسلام وتسامحه في التعامل مع الآخر، كما تؤكد هذه الدراسة على أن الدين الإسلامي هي دين التسامح والرحمة، وأن التسامح جزءٌ من طبيعة الإسلام ولم يكن ليغيب عن ثقافة الإسلام حتى في أحلك الظروف، تلك الظروف التي تُناقض مصالح الدول أو قيام الحرب فيما بينها.

هذه الدراسة قام بها أحد الرجالِ الأفذاذ والعلماء الكبار، المطلعين على ثقافة الغرب ودراساته خاصة ماله علاقة بالإسلام كما أنه يجيد لغتين هما الإنجليزية والفرنسية، هو الشيخ صالح بن عبدالرحمن الحصين رحمه الله الرئيس السابق لشؤون المسجد الحرام

والمسجد النبوي الشريف وعضو هيئة كبار العلماء في المملكة العربية السعودية.

وقد صدرت هذه الدراسة عام ١٤٢٩هـ عن كلا من مؤسسة الوقف الإسلامي وكرسي الأمير سلطان للدراسات المعاصرة بجامعة الملك سعود بالرياض، ويشرف المكتب التعاوني للدعوة والإرشاد وتوعية الجاليات بالمدينة المنورة بإعادة طباعتها لأهميتها في مجالها ووفاءا لحق صاحبها فهو من رواد العمل الخيري في العالم الإسلامي ومن الداعمين له ولأنشطته ومشاريعه ومنها **مشروعات المكتب التعاوني للدعوة والإرشاد وتوعية الجاليات بالمدينة المنورة**، فقد كان رحمه الله تعالى خير داعم ومساند له طيب الله ثراه وجعل الجنة مثواه.

نسأل الله أن ينفع بهذه الدراسة، كما نسأله أن يغفر لفقيد الأمة الإسلامية الشيخ صالح الحصيّن وأن يُسعده بإجتماعه مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا وصلى الله وسلم على نبينا محمد ماتعاقب الليل والنهار وعلى آله وصحبه أجمعين.

مشروع توعية الزوار

المكتب التعاوني للدعوة والإرشاد وتوعية الجاليات بالمدينة المنورة.

١٧ رمضان ١٤٣٤ هـ

نبذة موجزة عن الشيخ صالح بن عبدالرحمن الحصين [(١)]

- نشأته:

هو صالح بن عبد الرحمن بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن أحمد بن محمد - الملقب بالحصين - بن ماجد الناصري من بني الحارث - الحبط - بن عمرو بن تميم، يصل نسبه بنسب الرسول ﷺ في إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

وآل الحصين أسرة يقال لهم (آل ماجد)، لقب جدهم (محمد) (الحصين) فسرى على ذريته حتى اليوم، وكانوا يقيمون في بلدة القرائن بالقرب من شقراء عاصمة بلدان الوشم، حيث عين عمهم الشيخ العلامة عبد العزيز بن عبد الله الحصين قاضياً في شقراء من قبل شيخه المصلح وإمام الدعوة في زمانه الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ومن قبل الإمام عبد العزيز ابن محمد آل سعود، فانتقلت الأسرة بانتقاله من القرائن إلى شقراء، واتخذوها مقراً وموطناً لهم[(٢)].

---

(١) ينظر جهود الشيخ صالح بن عبدالرحمن الحصين في الدعوة إلى الله، د.سلطان بن عمر الحصين -بحث محكم -المجلة العلمية لكلية أصول الدين والدعوة - جامعة الأزهر - العدد ٢١ سنة ٢٠٠٨/ ٢٠٠٩ (ص ٢٢٩٣ - ٢٢٩٨)

(٢) البواصر في التعريف بأسر النواصر، عبد الله بن مساعد الفايز، ص (٢٣٧)، وانظر كذلك علماء نجد خلال ثمانية قرون، عبد الله البسام (٣/٤٥٤ - ٤٦٤).

ولد الشيخ صالح الحصين في مدينة شقراء بالمملكة العربية السعودية عام ١٣٥١هـ/١٩٣٢م[١]. ونشأ نشأة صلاح وديانة فوالده هو الشيخ عبد الرحمن بن عبد العزيز الحصين من أعيان مدينة شقراء ومن القائمين بأمور الدعوة إلى الله فيها، حيث كان رئيساً لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في منطقة الوشم وكان مهتماً بعمل الخير و الإحسان إلى الناس حتى سمي بأبي الفقراء يقول عنه الشيخ البسام: "كان يبحث عن المحتاجين والأرامل والأيتام ويمدهم بما يعينهم ويساعدهم على معيشتهم ، وكان يتولى تجهيز الأموات الذين لم يخلفوا ما يجهزون به، وكان يسمى أبو الفقراء، فلا ينقطع عن مواساتهم، وكان صاحب طاعة وعبادة، وبعدٍ عما لا يعنيه من الأمور، وكان لطيفاً بشوشاً، كريماً النفس، سمحاً سهلاً "[٢].

وقد تأثر الابن بأبيه في كثيرٍ من تلك الصفات فكان الشيخ صالح في تعامله رفيقاً ليناً بشوشاً، وكان في عبادته صاحب عبادة وديانة وأما العمل الخيري فهو مجال تخصصه حاز الريادة وقصب السبق فيه.

- **طلبه للعلم:**

في طلبه للعلم مر الشيخ بثلاث مراحل كونت شخصيته العلمية:

المرحلة الأولى:

---

[١] مجلة الفيصل – عدد (٢٤٣) رمضان ١٤١٧ هـ، يناير / فبراير ١٩٩٧ م (ص ١٢١).

[٢] علماء نجد خلال ثمانية قرون، عبد الله البسام (٤٥٥/٣)

هي مرحلة طلبه للعلم في موطنه المملكة العربية السعودية عبر المراحل الدراسية المختلفة والتي انتهت في أم القرى ومهبط الوحي، حيث تخرج في كلية الشريعة بمكة المكرمة عام ١٣٧٤هـ/١٩٥٤م.

المرحلة الثانية:

هي رحلته في طلب العلم خارج نطاق الجزيرة العربية حيث قصد مصر وكانت قبلة العلم في تلك الفترة، وتوجهت رغبة الشيخ نحو التخصص في مجال القانون، وقد حصل الشيخ على درجة الماجستير في القانون والشريعة من معهد البحوث والدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية في مدينة القاهرة في جمهورية مصر العربية سنة ١٣٨٠ هـ/١٩٦٠م وكان عنوان أطروحته: « التصرف عن الغير بدون و لاية و لا وكالة في الفقه الإسلامي »[١]

المرحلة الثالثة:

و في هذه المرحلة خرج الشيخ في طلب العلم والاستزادة منه خارج حدود الوطن العربي فقد قصد منارة العلم آنذاك جامعة السوربون في مدينة باريس بدولة فرنسا، ليكمل دراساته القانونية في المقارنة بين الشريعة الإسلامية والقانون الفرنسي وهو القانون الوضعي المعمول به في أغلب الدول الإسلامية، وقد درس الشيخ اللغة الفرنسية[٢]، إلا أنه لم يكمل مشواره الأكاديمي نظرا لاستدعاء الدولة له للإفادة من خدماته.

---

[١] مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، الرسائل الجامعية، وثيقة رقم (٥٥٣٩٩٦)

[٢] مجلة الفيصل – عدد (٣٥٨) ربيع الآخر ١٤٢٧ هـ، مايو ٢٠٠٦ م.

- **أهم آثاره العلمية:**

للشيخ صالح عدد من المؤلفات و المقالات و الأبحاث الرصينة في عدد من المجالات شملت الفقه والعقيدة، والدعوة إلى الله والمعاملات المالية، وقضايا المرأة، والعلاقة بين الإسلام والغرب من أهمها [١] ما يلي:

أولاً - المؤلفات:

١. مهذب العقيدة الطحاوية للقاضي علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي[٢].
٢. مهذب اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم لشيخ الإسلام ابن تيمية[٣].
٣. التسامح والعدوانية بين الإسلام والغرب[٤].
٤. القانون الإداري[٥].
٥. العلاقات الدولية بين منهج الإسلام ومنهج الحضارة المعاصرة[١].

---

(١) ينظر موقع الشيخ صالح الحصين الإلكتروني /http://rowaq.org للإطلاع على جميع الإنتاج العلمي للشيخ :.

(٢) الجامعة الإسلامية – المدينة المنورة – ١٤١٣ هـ. مراجعة: د. علي بن ناصر فقيهي و د. أحمد بن عطية الغامدي. وقد طبع الكتاب أربعة طبعات ووزع منه عشرات الألوف من النسخ كما ترجم وطبع باللغة التركية.

(٣) طبعة خاصة بجمعية تحفيظ القرآن بالوشم – مكان النشر: بدون – سنة النشر: بدون. مراجعة الشيخ: عبد الله الغنيمان.

(٤) كرسي الأمير سلطان للدراسات الإسلامية المعاصرة -جامعة الملك سعود – الرياض – ١٤٢٩ هـ .

(٥) مقرر دراسي لبرنامج الإدارة المتوسطة – معهد الإدارة العامة – الرياض.

٦. الحرية الدينية في المملكة العربية السعودية.

٧. فوبيا الإسلام.

<u>ثانياً - الأبحاث:</u>

١. تعليق حول إمكانيات القضاء الإداري في الدولة الإسلامية[٢].

٢. الوقف الخيري بين الأمس واليوم[٣].

٣. الطريق الروحي إلى مكة.

٤. تعدد الزوجات وحقوق الإنسان.

٥. قضية أن تكون المرأة أجيرة.

٦. هل للتأليف الشرعي حق مالي؟[٤]

٧. المملكة العربية السعودية والدعوة إلى الله – رؤية مستقبلية -[٥].

٨. علاقة المسلم بغير المسلم في تصور الإسلام.

٩. مقدمة لترجمة كتاب: الطريق إلى مكة لمحمد أسد[٦].

---

(١) مؤسسة الوقف الإسلامي – الرياض – ١٤٢٩هـ .

(٢) مجلة الإدارة العامة – الرياض – عدد (٢) شوال ١٣٨٣ هـ

(٣) الملتقى السنوي الأول للجمعيات الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم – الطائف – سنة النشر: بدون.

(٤) الأبحاث: " الطريق الروحي إلى مكة، قضية أن تكون المرأة أجيرة، تعدد الزوجات وحقوق الإنسان، نشرت في كتاب: قضايا بلا حدود - كتاب الإسلام اليوم (٧) – مكتبة العبيكان – الرياض – ١٤٢٥هـ

(٥) بحوث مؤتمر المملكة العربية السعودية في مائة عام – الرياض ٧ – ١١ شوال ١٤١٩هـ/٢٤ – ٢٨ يناير ١٩٩٩ م المحور السابع عشر: إنجازات المملكة في خدمة الإسلام والمسلمين.

(٦) مكتبة الملك عبد العزيز العامة – الرياض – ١٤٢٥ هـ

في المعاملات المالية:

١٠. المصارف الإسلامية ما لها وما عليها.

١١. رد على بحث: "موقف الشريعة الإسلامية من المصارف"[١].

١٢. الهيئات الشرعية وطريق التحول لمستقبل أفضل[٢].

١٣. مشاكل البنوك الإسلامية: عقد السلم ودوره في المصرف الإسلامي[٣].

١٤. المحاولات التوفيقية لتأنيس الفائدة[٤].

١٥. تعليق عن التفريق بين الفائدة البنكية والربا[٥].

١٦. عقد السلم و الإستصناع ودورهما في المصرف الإسلامي[٦].

١٧. مقدمة لكتاب الورق النقد للدكتور عبدالله المنيع[٧].

١٨. نجاح البنوك الإسلامية أن تتعامل بالنقود لا أن تتعامل في النقود[٨].

---

(١) مجلة البحوث الإسلامية – الرياض – العدد (٢٣).

(٢) قضايا بلا حدود -كتاب الإسلام اليوم (٧) – مكتبة العبيكان – الرياض – ١٤٢٥هـ.

(٣) مجلة مجمع الفقه الإسلامي – جدة – العدد (٨) الجزء (٣) ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م.

(٤) مجلة البحوث الإسلامية – الرياض – العدد (٣٥).

(٥) مجلة البحوث الإسلامية – الرياض – العدد (٣١).

(٦) ندوة المعهد الإسلامي للبحوث والتدريب، البنك الإسلامي للتنمية – جدة – ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م.

(٧) مطابع الفرزدق – الرياض – ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م

(٨) مجلة الفيصل، عدد (٢٤٦) ذو الحجة ١٤١٧ هـ

- **حياته العلمية**

يمكن تقسيم حياة الشيخ العملية إلى ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى:

بدأ حياته العملية في التدريس، ثم أصبح مستشاراً قانونياً في وزارة المالية السعودية وفي عام ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م أصبح رئيساً لهيئة التأديب[١].

ثم عين عام ١٣٩١هـ/١٩٧١م وزيراً للدولة عضوا في مجلس الوزراء زمن الملك فيصل رحمه الله[٢]، ثم أسندت إليه رئاسة شعبة الخبراء بمجلس الوزراء إضافة إلى عمله السابق وذلك عام ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م[٣].

كان عضوا في مجلس الخدمة المدنية وعضوا في عدد من مجالس الجامعات السعودية منها الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وعضوا في المجلس الأعلى للدعوة و الإرشاد وكذلك مجلس الأوقاف الأعلى وعضو في الهيئة الاستشارية العليا لمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة.

المرحلة الثانية:

وهي مرحلة ما بعد العمل الحكومي، ففي عهد الملك خالد رحمه الله طلب الشيخ الإعفاء من الوزارة، وعضويته في مجلس الوزراء، وتفرغ بعد ذلك للجوار في الحرمين الشريفين وممارسة هوايته المفضلة و عمله المحبب ألا وهو العمل الخيري والدعوة إلى الإسلام.

---

(١) صحيفة أم القرى -عدد (٢٣٦٥) ٦ صفر ١٣٩١ هـ

(٢) صحيفة أم القرى -عدد (٢٣٨٠) الجمعة ٢٣ جمادى الأولى ١٣٩١ هـ، ١٦ يوليه ١٩٧١ م.

(٣) مكتبة معهد الإدارة العامة بالرياض – قسم الوثائق – وثيقة رقم (٨١٨٤).

وهذه المرحلة الهامة من حياة الشيخ كانت مرحلة مثمرة وحافلة بالعمل للإسلام في شتى الميادين، وفي أماكن كثيرة في الأرض، فقد بدأ الشيخ يجوب العالم يتفقد الدعوة الإسلامية ويزور المراكز الإسلامية ويقدم المشورة والنصح والدعم.

المرحلة الثالثة:

وبعد عقدين من الزمان تقريباً وفي آخر عهد الملك فهد رحمه الله تم تعيينه رئيسا عاماً لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي وذلك عام ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م[(١)].

وعندما بدأت مسيرة الحوار الفكري في المملكة تم اختياره رئيساً للجنة العليا لمركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني وذلك عام ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م[(٢)].

وفي مطلع عام ١٤٣٠هـ عين في هيئة كبار العلماء في المملكة العربية السعودية[(٣)].

وقد استمر الشيخ رئيسا عاماً لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي إلى أن تمكن من المرض منه وطلب الإعفاء من منصبه وذلك في ١٧ / ٦ / ١٤٣٣ هـ .

وقد توفي رحمه الله في يوم السبت الموافق ٢٤/ ٦ / ١٤٣٤هـ وصلي عليه بعد صلاة عصر اليوم الأحد الموافق ٢٥ /٦ /١٤٣٤هـ في مسجد

---

(١) الشيخ الحصيّن: نسيج وحده، عبد الرحمن الشبيلي، صحيفة الشرق الأوسط، العدد (٩٩٨٨) الاثنين ٤ ربيع الأول ١٤٢٧ هـ الموافق ٣ أبريل ٢٠٠٦ م.

(٢) مجلة الفيصل – عدد (٣٥٨) ربيع الآخر ١٤٢٧ هـ، مايو ٢٠٠٦ م.

(٣) صحيفة أم القرى، عدد (٤٢٤١) في ٢٥ / ٢ / ١٤٣٠ هـ، جريدة عكاظ، العدد (٢٨٠٠) الأحد ٢٠ صفر ١٤٣٠هـ الموافق ٢٠٠٩/٢/١٥م .

الراجحي بمدينة الرياض بالمملكة العربية السعودية ، وقد صلى عليه صلاة الميت فضيلة الشيخ صالح اللحيدان عضو هيئة كبار العلماء ورئيس مجلس القضاء الأعلى سابقا.

كما أدى الصلاة عليه جمع غفير من الناس إمتلأ بهم مسجد الراجحي وأروقته في مقدمتهم الأمير مقرن بن عبدالعزيز آل سعود النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء المستشار والمبعوث الخاص لخادم الحرمين الشريفين وعدد من العلماء والدعاة وطلبة العلم والأمراء والوزراء والأعيان وقد كانت جنازة الشيخ مهيبة .



إهداء

إلى ذكرى "محمد أسد " الذي كتب عام ١٩٣٤م في مقدمة كتاب "الإسلام على مفترق الطرق ":

هذا السؤال يُلقى عليَّ مرة بعد مرة:

لماذا اعتنقت الإسلام، وما الذي جذبك منه خاصة ؟

وهنا يجب أن أعترف بأنني لا أعرف جواباً شافياً. لم يكن الذي جذبني تعليم خاص من التعاليم، بل ذلك البناء المجموع العجيب المتراص ــ بما لا نستطيع له تفسيراً ــ من تلك التعاليم الأخلاقية بالإضافة إلى منهاج الحياة العملية، ولا أستطيع اليوم أن أقول أي النواحي قد استهوتني أكثر من غيرها، فإن الإسلام على ما يبدو لي بناء تام الصنعة وكل أجزائه قد صيغت ليتمم بعضها بعضاً ويشد بعضها بعضاً فليس هنالك شيء لا حاجة إليه، وليس هنالك نقص في شيء، فنتج من ذلك كله ائتلاف متزن مرصوص. ولعل الشعور بأن جميع ما في الإسلام من تعاليم وفرائض «قد وضعت مواضعها» هو الذي كان له أقوى الأثر في نفسي.

سعيت إلى أن أتعلم من الإسلام كل ما أقدر عليه: لقد درست القرآن الكريم وحديث الرسول عليه السلام، لقد درست لغة الإسلام وكثيراً مما كتب عنه أو كتب في الرد عليه. وقد قضيت أكثر من خمس سنوات في الحجاز ونجد ـ وأكثر ذلك في المدينة ـ ليطمئن قلبي بشيء من البيئة الأصلية للدين الذي قام النبي العربي بالدعوة إليه فيها. وبما أن الحجاز ملتقى المسلمين من جميع الأقطار فقد تمكنت

من المقارنة بين أكثر وجهات النظر الدينية والاجتماعية التي تسود العالم الإسلامي في أيامنا. هذه الدراسات والمقارنات خلقت فيّ العقيدة الراسخة بأن الإسلام من وجهتيه الروحية والاجتماعية، لا يزال بالرغم من جميع العقبات التي خلقها تأخر المسلمين، أعظم قوة نّهاضة بالهمم عرفها البشر.



مقدّمة المقدّمة

﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٥].

﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الشورى: ٣٦-٤٣].

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ ﴾ [المائدة: ٣].

❁❁❁

مُقَدِّمَة

(١)

لقد اختفت ــ أو كادت تختفي ــ خرافة أن الإسلام انتشر بالسيف، من الكتابات الجادة للمؤرخين الغربيين وذلك بعد مواجهة الحقائق الآتية :

أ. صعوبة العثور على حالات موثقة للإكراه على اعتناق الإسلام في التاريخ الإسلامي .

ب. إن نسبة كبيرة من سكان العالم الإسلامي الحالي ــ مثل الإندونيسيين والصينيين ـ لم يكونوا في نطاق الأراضي المفتوحة من قِبَل المسلمين .

ت. إن شعوباً غزت العالم الإسلامي وتغلبت على أجزاء كبيرة منه سياسياً وعسكرياً، ثم ما لبثت في حال سلطتها أن اعتنقت الإسلام خلال مدة قصيرة نسبياً، مثل الترك والتتار .

ث. إن الإسلام حتى في عصور تخلف المسلمين، وجهلهم بالإسلام، وتشوه حقيقته لديهم بمؤثرات أجنبية مختلفة، واتساع الفجوة بين حياة كثير منهم ــ تصوراً وسلوكاً ــ وبين الإسلام في صورته النقية، ظل يجتذب أتباعاً يختارونه ديناً عن رغبة حرة واقتناع عقلي، وبأعداد جعلته يُعرف في العصر الحاضر بأنه أسرع الأديان انتشاراً.

ج. قبل منتصف القرن المنصرم كان العالم الإسلامي ـ باستثناء أجزاء يسيرة منه ـ خاضعاً للسلطة السياسية والعسكرية لدول غير مسلمة، وفي خلال ذلك لم تتأثر قدرة الإسلام على الانتشار ومقاومة القوى المعاكسة مما حمل المستشرقة الإيطالية Laura Veccia Vagliere على أن تتدافع على لسانها ـ في دهشة وانبهار هذه الأسئلة :

- ما هي القوة المعجزة الخفية في هذا الدين ؟
- ما هي القوة الداخلية للإقناع الممتزجة بهذا الدين ؟
- من أي أعماق الروح الإنسانية تثير جاذبيته كل هذه الاستجابة لندائه ؟ (١)

وعلى الرغم من الاتجاه الحديث في مؤلفات المؤرخين الغربيين إزاء تلك الخرافة فما زالت صورة المسلم في الثقافة الغربية العامة مرتبطة بالعنف والعدوانية والتعصب، ولم تتغير هذه الصورة كثيراً عما كانت عليه في القرون الوسطى الأوروبية (٢).

---

(١) Laura Veccia Vaglieri. An Interpretation of Islam, p.29

(٢) على سبيل المثال وصف المعلق التلفزيوني لمحطة فوكس الأمريكية بل أورايلي القرآن بأنه «مثل كتاب كفاحي لهتلر» أما جيري فينسز الزعيم السابق للمذهب المعمداني (أكثر المذاهب البروتستانتية إتباعا في الولايات المتحدة الأمريكية) فقد وصف النبي ﷺ بأنه «شخصية مسكونة بالشيطان» ووصفه جاري فالويل الزعيم الديني الأمريكي الشهير «بأنه إرهابي»، وقال فرانكلن جراهام ـ في مناسبة تنصيب الرئيس الأمريكي ـ عن الإسلام: «إنه دين شرير طبيعته الأذى». انظر: S.A. Akbar, Islam under Siege,

بالطبع لا أحد يقول أن ارتباط العدوانية بصورة المسلم راجع إلى أن التكوين البيولوجي لجسم المسلم يجعله أكثر إفرازاً للأدرنالين وإنما يدّعي الغربيون أن الإسلام بطبيعته هو المسؤول عن مزاج المسلم وسلوكه وظهوره في تلك الصورة النمطية.

وهذا التصور في الثقافة الغربية للمسلم والإسلام يدور في حلقة مفرغة، فهو يغذي وسائل التثقيف والإعلام: السينما والتلفزيون

---

pp.36, 37 وقالت كارينا رولنز كبيرة المحررين = في مجلة American Interpris ديسمبر ٢٠٠١م «الثقافة الإسلامية من حيث جوهرها معادية للغرب وهي بالطبيعة مشبعة بالكراهية والحقد»، «الإسلام دين استعماري واليوم هذا العدو الجديد على أبواب حضارتنا»، وقال فريد زكريا محرر الشؤون الدولية في مجلة نيوزويك، ١٥ أكتوبر ٢٠٠١م: «المسلمون ينبعثون من ثقافة تعزز عداوة الغرب وكراهيته وعدم الثقة به، هذه الثقافة التي لا تعارض الإرهاب بل تولد التشدد والتعصب الذي يتركز في قلب هذه الثقافة»، وقال دون فدر رئيس تحرير Boston Herald في ٥ نوفمبر ٢٠٠١م: «الإرهاب ليس هو شيء عرضي في الإسلام بل هو في الحقيقة الأمر الطبيعي والمعتاد "Normal" في هذه الثقافة ... من القرن السابع حين وجد الإسلام حتى القرن السابع عشر كان الإسلام يتقدم على حد السيف منتشراً من جبالالبرانت إلى الفلبين ، الآن الإسلام ينبعث من جديد بدلاً من أن يكون محمولاً بأيدي الفرسان المتوحشين فإن أعلامه تحمل بأيدي العصابات، والإرهابيين والحكام الديكتاتوريين». انظر:

Z. Sardar and M. W. Davies. Why do people hate America, 2002, p.22

والصحافة ومؤلفات الكتّاب، وفي الوقت نفسه تعمل هذه الوسائل على تثبيت هذه الصورة النمطية وتنميتها .

(٢)

ومع أنه لا أحد ينكر أن العدوانية موجودة بدرجات مختلفة في طبيعة الإنسان، فإن الغربيين حينما يصورون الإسلام على أنه يحمل في جوهره بذور التعصب والعدوانية والعنف، يعنون ضمناً ـ وبمفهوم المخالفة ـ أن الثقافة الغربية أبعد ـ على الأقل ـ من الإسلام عن العدوانية والعنف والتطرف.

ولكن هل يشهد الواقع على ذلك؟

خلال القرون الأخيرة لم يحدث أن غزت دولة مسلمة دولة غربية[1]، وبالعكس يشهد تاريخ الاستعمار أن العالم القديم والعالم الجديد كانا دائماً هدف الغزو من قِبَلِ الغرب.

لمدة طويلة سابقة وحتى نهاية النصف الأول من القرن المنصرم كان العالم الإسلامي ـ باستثناء أجزاء يسيرة ـ تحت سلطان الغرب نتيجة الغزو والحرب، وبعد انتهاء هذا السلطان الاستعماري المباشر، ظلت القيادات السياسية والعسكرية والثقافية والتربوية في العالم الإسلامي ـ عدا ما ندر منها ـ قيادات علمانية.

---

[1] مثلاً لم تكن المغرب هي التي غزت إسبانيا، ولم تكن المغرب والجزائر وتونس والسنغال ومالي والنيجر وتشاد وسوريا ولبنان هي التي غزت فرنسا، ولم تكن الصومال وليبيا هما اللتان غزتا إيطاليا ولم تكن مصر والسودان وفلسطين والعراق والإمارات الإسلامية في الهند هي التي غزت إنجلترا.

أي أن الإسلام خلال تلك المدة لم يكن في الغالب مسؤولاً عن الأعمال العسكرية داخل العالم الإسلامي أو بين العالم الإسلامي وخارجه.

وفي القرن المنصرم أشعل الغرب حربين عالميتين في خلال خمسة وعشرين عاماً، أما في هذا القرن فقد أشعل الغرب حربين عالميتين خلال عام ونصف.

ولا تشهد أحداث هذه الحروب على أن الثقافة الغربية كانت تنجح دائماً في ترويض الطبيعة العدوانية في الإنسان الغربي وتحمله على التسامح والتخلي عن العدوان.

بل إنه حتى عندما تعتبر الحرب سلوكاً بشرياً معتاداً، ومن ثم لا تعتبر بالضرورة نتيجة للنزعة العدوانية في ثقافة معينة، فإن قيام المحارب بالقتل والتدمير حيث لا تقتضي ذلك ضرورة الحرب يبرر القول بوجود صلة بين النزعة العدوانية للمحارب وثقافته.

وفي حالة الحروب الغربية: ففي الحرب العالمية الثانية في القرن المنصرم مثلاً لم تكن ضرورات الحرب بعد أن تقرر مصيرها تقتضي القصف الاستراتيجي على درسدن الألمانية، أو قتل مائتي ألف من غير المقاتلين في هيروشيما اليابانية، أو قصف ناجازاكي التي لم تكن هدفاً عسكرياً بالقنبلة النووية.

وفي حرب التحالف الدولي ضد أفغانستان مثلاً لم تكن ضرورات الحرب تقتضى قصف الأسرى بالمروحيات في قلعة قانجي .

(٣)

في العقد الأخير من القرن المنصرم كانت بداية الميلاد لما سُميَ فيما بعد بـ «الحرب على الإرهاب» وتلحق كلمة الإرهاب صفة الإسلامي صراحة في بعض الأحيان،وفي أحيان أخرى تكون هذه الصفة معروفة ضمناً.

ويبرر الغرب هذه الحرب بحوادث إرهابية نسب ارتكابها إلى أفراد مسلمين، ويظهر الأمر وكأن الإرهاب أمر طارئ على الحياة الغربية ومفاجئ لها، وأن الغرب لم يعرف النشاطات الإرهابية من قبل إلا بمستوى حوادث عَرَضِيَّة لم تكن تقتضي إعلان الحرب عليه.

إن اصطلاح (Terrorism) في اللغات الغربية اصطلاح حديث نسبياً، وإذا عرَّفناه بأنه: (السعي للقتل والتدمير بقصد إثارة الرعب العام بحيث لا يكون الضحايا فيه هدفاً لذاتهم - وإن تعمد قتلهم - وإنما يكون هدفه تحقيق مقاصد سياسية أو أيدلوجية) إذا عرَّفناه بذلك فإن محتواه أيضاً يعتبر حديثاً.

ويبدو أن هذا الاصطلاح بدأ دخوله في اللغات الأوربية وصفاً لأعمال العنف التي كانت تتم في عهد روبسبير في أعقاب الثورة الفرنسية[1].

---

[1] (The New Encyclopedia Britannic "terrorism") وربما كان أقدم نشاط إرهابي بمعنى "terrorism"سجله التاريخ هو نشاط المذهب اليهودي Secarii بين عام ٦٦ وعام ٧٣ بعد الميلاد وكان هذا النشاط يوجه للرومان وللمتعاونين معهم من اليهود. انظر المرجع السابق، وانظر S.Halper & J. Clarke. America Alone, p.276

وقد ظل الغرب بعد ذلك ساحة للإرهاب بالمعنى المشار إليه، وفي النصف الثاني من القرن المنصرم عانت أوروبا من إرهاب طويل النفس أحياناً، مثل عمليات الجيش الأيرلندي في بريطانيا والباسك في أسبانيا، وشهدت إيطاليا عمليات الألوية الحمراء وألمانيا عمليات الجيش الأحمر.

أما في الولايات المتحدة فإن النشاطات الإرهابية التي كانت تتم أثناء النزاعات حول الرق والتمييز العنصري أسفرت عن ظهور العصابات الإرهابية المشهورة مثل LARD & K.K.K، ويوجد الآن على أرض الولايات المتحدة الأمريكية ـ كما يقال ـ أكثر من أربعمائة مليشيا مسلحة.[١]

وكانت تفجيرات أوكلاهوما ـ في ١٩ أبريل من عام ١٩٩٥م التي اشتهرت إعلامياً بسبب أنها نسبت في البداية إلى الإرهاب الإسلامي ـ من تنفيذ شخص ينتسب إلى إحدى تلك المليشيات.

وخلال الحرب الباردة بين المعسكر الشيوعي والرأسمالي ظلت روسيا والولايات المتحدة تتبادلان التنديد بما يوجده كل منهما، أو ما يدعمه من حركات إرهابية ضد الحكومات المؤيدة للطرف الآخر، وبخاصة في الشرق الأوسط وأفريقيا وأمريكا اللاتينية.[٢]

---

(١) J. Arasli, The West and Terrorism, Article in (Saudi and Terror, Riyadh, 2002).

(٢) The New Eneyclopedia Britannica "terrorism".

لم يكن في اللغة العربية اصطلاح يدل على الإرهاب بمعنى (Terrorism) وقد شاعت كلمة إرهاب في اللغة العربية ترجمة لكلمة (Terrorism) وصفاً للعمليات التي كانت تقوم بها في فلسطين العصابات الصهيونية التي كانت عناصرها قدمت إلى فلسطين من الغرب، وقد نشطت هذه العصابات بخاصة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وكان تفجيرها لفندق داود في القدس في ٢٢يونيو ١٩٤٦ أول عملية من نوعها تتم في الشرق الأوسط، وكانت هذه العصابات تعمد إلى ارتكاب المجازر (وتتعمد أحياناً قتل الأطفال والنساء وكبار السن مثل مجزرة دير ياسين التي ارتكبت في ١٠ أبريل ١٩٤٨) وذلك بقصد إثارة الرعب العام لدى الفلسطينيين لحملهم على الفرار وترك أراضيهم ليحتلها الغزاة اليهود القادمون من شتى أقطار الأرض، وقبل ذلك لم تكن ساحة العالم الإسلامي تعرف هذا النوع من العنف، وإن ظلت كغيرها من أقطار العالم ـ وطوال العصور ـ تشهد أنواعاً أخرى من العنف كالحروب واغتيال الزعماء، واغتصاب الأراضي والتعذيب.

فالإرهاب بمعنى (Terrorism) إنما استورده حديثاً العالم الإسلامي من الغرب اصطلاحاً لغوياً وممارسة عملية.

وقد شهدت ساحة العالم الإسلامي منذ النصف الثاني من القرن المنصرم الإرهاب بمختلف صوره وأهدافه الأيدلوجية والسياسية ومصادره سواء كانت حكومات أم منظمات.

وفي العقود الأخيرة وقعت عمليات إرهابية داخل العالم الإسلامي وخارجه نسبت إلى منظمات إسلامية أو أفراد مسلمين، وسواء كان

منفذوها مسلمين متشددين أو علمانيين أو غير مسلمين، فقد ظل الغرب يربط دائماً بينها وبين الإسلام.

ولما وقع في مستهل هذا القرن الحادث الإرهابي في ١١ سبتمبر ٢٠٠١م بالهجوم على برجي التجارة الدولية في نيويورك، ومبنى البنتاجون في واشنطن، اعتبر هذا الحدث الإجرامي الغامض[١] نقطة تحول في قضية الإرهاب بين الإسلام والغرب.

فيما يتعلق بالتقييم الأخلاقي للإرهاب فإن الغرب في الغالب من حيث المبدأ يميّز في هذا المجال بين أنواع الإرهاب من حيث هدفه فإذا كان هدفه مشروعاً فلا يعده إرهاباً، أو على الأقل لا يدينه أخلاقياً، ويمثل لهذا النوع عادة في الأدبيات الغربية بالعمليات التي كانت تقوم بها المقاومة الفرنسية - أثناء احتلال ألمانيا لفرنسا في الحرب العالمية الثانية - ضد الجيش الألماني أو ضد الحكومة الفرنسية التي أقامها جيش الاحتلال، فلم يكن أحد في الغرب في ذلك الوقت - سوى الحكومة النازية - يعتبر تلك العمليات غير مبررة أخلاقياً بل كانت تحظى بالتمجيد والاحترام، وبعد سقوط الحكومة النازية لم يعد حتى الألمان يعدون المقاومة الفرنسية حركة إرهاب إجرامي[٢].

و في العالم الإسلامي لا أحد من الفقهاء فيما نعلم يعتبر القصد إلى قتل الأبرياء أو تدمير ممتلكاتهم - بأية حال ومهما كانت الغاية -

---

[١] ظر الملحق صفحة (٢٠٦).

[٢] New Encyclopedia Britanica (Terrorism)& S. Halper J. Clarke, America Alone, pp. 276-277.

عملاً شرعياً. وإنما يثور الخلاف بينهم في الحكم على ما عدا ذلك من صور الإرهاب التي تهدف إلى تحقيق غاية مشروعة مثل مقاومة المحتل.

(٤)

ما فتىء السياسيون والكتّاب والقائمون على وسائل الإعلام في الغرب يصرّون على تثبيت صورة الإسلام على أنه ثقافة عدوانية تجعل من المسلمين مصدراً للعنف والإرهاب، فما هي الحقيقة ؟

وهل صحيح أن العدوانية صفة مميزة للثقافة الإسلامية، وأن التسامح صفة مميزة للثقافة الغربية؟

لقد كتبت هذا الكتيب محاولة للإجابة عن هذا السؤال.

ومن أجل أن تكون الكتابة موضوعية ولأن الكاتب مسلم يمكن - بحكم الطبيعة البشرية - أن تتأثر أحكامه وآراؤه بعاطفته، وتجره - من حيث يشعر أو لا يشعر- إلى التحيز، فإن الكاتب سيتفادى بقدر الإمكان إصدار الأحكام أو إبداء رأيه الشخصي، وحيث لا يمكن تفادي ذلك فإنه سوف يجري في أضيق الحدود، وسيقتصر ذلك في الغالب على الآراء والأحكام التي لا يتوقع أن تكون مجال خلاف جدي.

وللالتزام بالموضوعية أيضاً كان الاقتصار في بيان تصور الإسلام على إيراد النصوص من القرآن والسنة الصحيحة حسب قواعد التقييم في علم الحديث.

واقتصر على الاستشهاد بنصوص من الكتّاب والمؤرخين غير المسلمين عندما تكون الشهادة في جانب الإسلام.

واستثناء من ذلك جرى الاستشهاد بنصوص من كتابات محمد أسد (المستشرق النمسوي الأصل)، والسبب أن هذا الكاتب أحد أبناء الثقافة الغربية وقد عايش الحياة الغربية في أدق الظروف التي مرت بها وفي مرحلة زمنية دقيقة ربما كانت من أهم مراحل تطورها، وفي وقت يظهر أبرز خصائص الثقافة وتصور الإنسان عن الكون والحياة فيها.

وإلى جانب ذلك أتيح له أن يعرف الإسلام ويتصل مباشرة بحياة المسلمين على اختلاف شعوبهم وأقطارهم ومستوياتهم الثقافية بما لم يتح مثله إلا للقليل من المثقفين الغربيين، وبذلك صار لديه من القدرة على التمييز بين تصورات الإسلام وتصورات الثقافة الغربية ما يندر وجود مثله عند غيره.

وقد ساعده على ذلك معرفته بلغات المسلمين (العربية والفارسية والتركية والأوردية) واطلاعه الواسع المحيط على تراث المسلمين، واتصاله المباشر بزعمائهم ومفكريهم ومعايشته لعامتهم، ومعاصرته لفترات التحول في حياتهم، وفي عمر مديد جاوز التسعين عاماً.

وربما يلاحظ القارئ المبالغة في الاقتباس من هذا الكاتب لاسيما من كتابه «الإسلام على مفترق الطرق»، وفي الواقع أنه لم يكن بد في نظري من الاقتباسات من هذا الكاتب عند مقارنة الثقافة الإسلامية بالثقافة الغربية، إذ كان محمد أسد ينظر إلى الثقافة الإسلامية بعين المثقف الغربي، وفي الوقت نفسه ينظر إلى

الثقافة الغربية بعين العالم المسلم وذلك بصورة يندر أن يوجد لها شبيه لدى غيره.

(٥)

لإيضاح تصور الإسلام في قضية التسامح والعدوانية لا مناص من المقارنة بالثقافة المعاصرة وبالذات الثقافة الغربية، وحيث تجري هذه المقارنة فلا بد من الفصل بين الإسلام ـ كما هو في حقيقته ـ وبين المسلمين على اختلاف عصورهم وأقطارهم، ليس ذلك فقط لأن الإسلام واحد، وتصورات وسلوكيات المسلمين مختلفة متعددة، بل لأنه لا أحد يدّعي أن حياة المسلمين في الوقت الحاضر تجري مطابقة تماماً للإسلام تصوراً ومنهجاً للحياة. في الوقت الحاضر يرى المسلمون الملتزمون أنه يوجد ـ في واقع المسلمين ـ فجوة كبيرة بين حياتهم تصوراً وسلوكاً وبين الإسلام منهجاً شاملاً للحياة.

ويرى العلمانيون أنه لا مجال ولا فائدة للمسلمين من رجوعهم إلى تطبيق الإسلام كما هو واتخاذه منهجاً شاملاً للحياة.

وبالعكس ـ وبغض النظر عن أنه ليس من الضروري أن يعكس سلوك أو تصور كل الغربيين الثقافة الغربية ـ فإن حياة الغربيين في الجملة تمثل ثقافتهم، والثقافة الغربية تنعكس تماماً على طريقة الحياة التي يسميها الغربيون طريقة الحياة الغربية.

والغربيون عادة يدينون الأقليات التي تساكنهم من المهاجرين بخاصة المسلمين منهم بعدم سعى هذه الأقليات للاندماج في طريقة الحياة الغربية.

يعني ما سبق أن موضوع هذا الكتيب هو الإسلام عقيدة ومبادئ وأحكاماً، وليس الإسلام أصنافاً من البشر يسمون مسلمين أو تاريخاً للمسلمين، إلا بقدر ما يكون الإسلام مطبقاً عملاً في حياتهم.

وأخيراً فإن المقصود بكلمة "التسامح " حيث وردت في هذا الكتيب ما تعنيه كلمة (Tolerance) في اللغة الانكليزية .

والحمد لله أولاً وأخرا.

المؤلف/ رمضان ١٤٢٦ هـ

الفصل الأول

التسامح جذور وثمار

(١)

إذا كان لا ينازع في أن جذور التسامح وفي الوقت نفسه ثمراته هي صفات معينة مثل الرحمة والعفو والصبر، فيلاحظ أن القرآن الكريم كرر ذكر الرحمة والرأفة والعفو والصفح والمغفرة والصبر أكثر من تسعمائة مرة.

وقد ذكرت صفات لله أو للقرآن أو للنبي ﷺ وفي ضمن ذلك دعوة الإنسان إلى الاتصاف بها، أو ذكرت في مجال مدحها والأمر بها.

ذلك مثل قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]، ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام: ١٥٧]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣]، ﴿وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤]، ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠]، ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ

وَقُلْ سَلَٰمٌۚ ﴾ [الزخرف:٨٩]، ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٤]، ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ ﴾ [الجاثية:١٤]، ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾[الشورى:٤٣]، ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًاۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [آل عمران:١٨٦]، ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ﴾ [إبراهيم:١٢]، ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ [المزمل:١٠]، ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴾[البلد: ١٧].

يمكن للقارئ بعد تأمل ما ذكر أن يسأل هذا السؤال: هل يوجد كتاب دين أو كتاب تربية في أي ثقافة (غير الإسلام) يعطي مساحة للمعاني المذكورة في سعة المساحة التي أعطاها القرآن؟ أو هذا السؤال: هل يوجد دين أو ثقافة غير الإسلام أعطى عناية مثل هذه العناية في التربية على التسامح؟ .

كنا نشير فيما سبق إلى القرآن، ولكن لم نُشرْ إلى الأحاديث الواردة عن النبي ﷺ في التربية على المعاني المذكورة والتي يمكن أن تضمها مجلدات.

كما لم نُشرْ إلى مكتبات كاملة من مؤلفات علماء الإسلام التي تعتمد على القرآن والأحاديث النبوية في هذا الموضوع.

(٢)

على أن التسامح في الإسلام ليس تسامح الذل والهوان، أو الخنوع للظلم، أو الاستكانة تجاه الظالمين.

تعبر عن هذا التوازن الآيات الكريمة من سورة الشورى في وصف المتقين ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الشورى:٣٩ -٤٣].

ولا يعني التسامح التسوية في المعاملة بين المسيء والمحسن قال تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ ﴾ [غافر:٥٨]، ﴿ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ [الكهف: ٨٦ -٨٨].

ووصف الله نفسه قائلا: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [غافر:٢ -٣]، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

كما وصف الصالحين من عباده بقوله ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ٥٤].

وفي القرآن إلى جانب آيات الوعد والترغيب تأتي آيات الوعيد والترهيب.

التسامح - في الإسلام - لا يعني الإخلال بالعدل، لقد فطنت إلى هذا المستشرقة الإيطالية LAURA VECCIA VAGLIERI حين قالت: في وصف النبي ﷺ (لقد امتزج فيه التسامح والعدل، الخصلتان الأكثر نبلاً في الإنسان. من السهل أن نورد على هذا أمثلة كثيرة من سيرته)[١].

ومع ذلك فإذا لم يترتب على التسامح وعدم مقابلة الاعتداء بمثله إقرار للظلم أو إعانة على ظلم الآخرين أو التقصير في الدفاع عن الدين أو خذلان المسلمين فالتسامح مرغوب ومطلوب لقوله تعالى: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [المائدة: ٢٨].

- **الخلاصة**

إن التسامح بمعنى عدم العدوان قيمةً مطلقةً فريضة على كل مسلم إذ يعني ذلك العدل، والعدل مطلوب من كل واحد لكل أحد في كل حال،لقوله تعالى: ﴿ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ﴾ [المائدة: ٨]، والتسامح بمعنى البر ومقابلة السيئة بالحسنة أمر مطلوب ومرغوب ما لم يترتب عليه

---

(١) Laura Veccia Vaglieri. An Interpretation of Islam, p.28

إعانة على الظلم أو خذلان للمظلوم أو انتهاك لمبدأ العزة لله ولرسوله وللمؤمنين.

إن تحديد اليونسكو للتسامح قريب من التصور الإسلامي للتسامح حيث تقرر اليونسكو « أنه يتفق تماماً مع احترام حقوق الإنسان القول بأن الأخذ بالتسامح لا يعني التسامح تجاه الظلم الاجتماعي، أو تنازل الإنسان عن معتقداته، أو التغاضي عن بعضها، إنه يعني أن تكون للإنسان الحرية في التزام ما يعتقده وقبول حرية الآخر في الالتزام بما يعتقده، إنه يعني قبول حقيقة أن البشر بحكم الطبيعة يختلفون في صورهم وأوضاعهم ولغاتهم وسلوكهم وقيمهم، ولهم الحق في أن يعيشوا في سلام وأن يكونوا كما هم. التسامح يعني تسليم الإنسان بأن عقائده يجب أن لا تفرض على الآخر».

(٣)

كانت فكرة الإسلام عن التسامح من الوضوح بحيث لم تخف على المنصفين من مفكري الغرب على سبيل المثال.

يقول DE LACY O'LEARY «إن التاريخ أوضح ـ بما فيه الكفاية ـ أن أسطورة المسلمين الذين انساحوا في العالم ينشرون الإسلام بحد السيف واحدة من أسخف الخرافات التي ظل المؤرخون (الغربيون) يرددونها»[١].

---

[١] De Lacy O Leary, Arab Thqught and its Place in History, p.8

ويقول TRITON :«إن صورة المسلمين المحاربين الذين يتقدمون بالسيف في يد والقرآن في يد صورة بالغة الزيف»[١].

ويقول LEONARD: «إني أجد نفسي مجبراً على الاعتراف بأن محمداً يرفض ولا يقبل العنف في الدين»[٢].

ويقول جوستاف لوبون: «كانت الطريق التي يجب على الخلفاء أن يسلكوها واضحة فعرفوا كيف يحجمون عن حمل أحد بالقوة على ترك دينه.. وأعلنوا في كل مكان أنهم يحترمون عقائد الشعوب وأعرافها وعاداتها»[٣].

ويقول M.N.ROY: «الخلفية التاريخية للإسلام والظروف الاجتماعية التي نشأ فيها طبعته بطابع التسامح الذي قد يظهر للعين غير المدركة لا يتفق مع روح التعصب ـ التي اعتدنا تقليدياً أن نربطها بالإسلام ولكن (لا إله إلا الله) وحدها تخلق التسامح»[٤].

وتقول المستشرقة الإيطالية LAURA VECCIA VAGLIERI:«ليس من المبالغة أن نؤكد بإصرار أن الإسلام لم يكتف بالدعوة إلى التسامح الديني بل جعل ذلك جزءاً من قانونه الممارس دائماً»[٥].

---

(١) A. S. Triton. Islam, p.21

(٢) A. G. Leonard, Islam, p.72

(٣) جوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، ص ١٣٤.

(٤) M. N. Roy Historical Role of Islam, p.p. 40-41

(٥) Laura Veccia Vaglieri, An Interpretation of Islam, p.26

ويقول الكاتب البريطاني الشهير H.G WELLS: «إن أعظم ما اجتذب قلوب غالبية الناس عندما جاء محمد بدين الإسلام، هو فكرة الإله (الله) ـ الذي يعنى بالوعي الذي فطرت عليه قلوبهم ـ الحق، وبقبولهم المخلص للإسلام ومنهاجه انفتح أمامهم ـ في عالم كان مملوءاً بعدم اليقين والزيف والانقسامات المتعصبة ـ باب واسع للأخوة البشرية العظيمة والمتنامية وإلى فردوس لا يحتل فيه القديسون والقساوسة والملوك المكان الأعلى وإنما تتحقق فيه المساواة بين أتباع الدين، بدون رمزية غامضة، أو طقوس ظلامية، أو ترانيم قسيسين، قدم محمد تلك النظم الأخلاقية إلى قلوب البشرية، الإسلام أوجد مجتمعاً تحرر من القسوة والاضطهاد الاجتماعي إلى درجة لم يبلغها أي مجتمع من قبل»[1] ويقول: «إن الإسلام انتشر وساد لأنه قدم للإنسان أفضل نظام سياسي واجتماعي يمكن أن يمنحه الزمان، هذا النظام الذي يمثل أوسع وأنقى وأنظف فكرة سياسية أمكن حتى الآن أن تطبق عملاً على الأرض»[2] .

ويقول في كتاب "مختصر تاريخ العالم": «إن العنصر الثالث لقوة الإسلام يكمن في إصراره على الأخوة الكاملة والمساواة التامة أمام الله بين كل المؤمنين مهما اختلفت ألوانهم أو مراكزهم القانونية والاجتماعية»[3].

❁❁❁

---

[1] H. G. Wells, Outline of History, pp. 271-272, p.211

[2] Ibid, p.211

[3] H.G. Wells, Short History of the World, p.146 .

الفصل الثاني

حسن الخلق

التسامح - في الإسلام - جزء من معنى أشمل وأوسع يعبر عنه في المصطلح الإسلامي: «بحسن الخلق»، وهذا المصطلح مثل غالب المصطلحات الشرعية لا مرادف له في اللغة العربية، وهو من السعة والشمول بحيث تعددت عبارات علماء الإسلام في تحديده، فيعرفه الحسن البصري رحمه الله بأنه «بسط الوجه وبذل الندى وكف الأذى»[١]،ويقول عبد الله بن المبارك رحمه الله: «حسن الخلق أن تتحمل ما يكون من الناس»[٢]، ويقول الإمام أحمد رحمه الله: «حسن الخلق أن لا تغضب ولا تحقد»[٣]، وقال الماوردي رحمه الله: «حسن الخلق أن يكون سهل العريكة، لين الجانب، طلق الوجه، قليل النفور، طيب الكلمة»[٤]، وقال الغزالي رحمه الله عن حسن الخلق: «أن يكون كثير الحياء، قليل الأذى، كثير الصلاح، صدوق اللسان، قليل الكلام، كثير العمل، قليل الزلل، قليل الفضول، براً وصولاً وقوراً شكوراً رضياً حليماً رفيقاً عفيفاً شفيقاً، لا لعَّاناً ولا سبَّاباً ولا نمَّاماً ولا مغتاباً ولا عجولاً ولا حقوداً ولا بخيلاً ولا حسوداً، بشاشاً هشاشاً، يحب في الله ويبغض في الله ويرضى لله ويغضب لله»[٥]، وقال القزويني رحمه الله في تعريفه:

---

(١) موسوعة نضرة النعيم، ص ١٥٨٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٥٨٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٥٨٤.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٥٧١.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٥٨٥.

«سلامة النفس نحو الأفق الأحمد من الأفعال وقد يكون ذلك في ذات الله وقد يكون فيما بين الناس، أما فيما يتعلق بذات الله عز وجل فهو أن يكون العبد منشرح الصدر بأوامر الله تعالى ونواهيه، يفعل ما فرض عليه طيب النفس به، سلساً نحوه، وينتهي عما حرم عليه راضياً به، وغير متضجر منه، ويرغب في نوافل الخير، ويترك كثيراً من المباح لوجهه ـ تعالى وتقدس ـ إذا رأى أن تركه أقرب إلى العبودية من فعله، مستبشراً بذلك غير ضجر به ولا متعسر به.

أما في المعاملات بين الناس فأن يكون سموحاً لحقوقه، لا يطالب غيره بها ويوفي ما يجب لغيره عليه منها، فإن مرض ولم يُعد، أو قدم من سفر فلم يُزر، أو سلم فلم يُرد عليه، أو ضاف فلم يُكرم، أو شفع فلم يُجَب، أو أحسن فلم يُشكر، أو دخل على قوم فلم يُمكّن، أو تكلم فلم يُنصت له، أو أستأذن على صديق فلم يُؤذن له، أو خطب فلم يُزوّج، أو استمهل الدين فلم يُمهَل، أو استنقص منه فلم يُنقَص، وما أشبه ذلك.. لم يغضب ولم يعاقب ولم يتنكر من حاله حال، ولم يستشعر في نفسه أنه قد جفى وأوحش، وأنه لا يقابل كل ذلك إذا وجد السبيل إليه بمثله، بل يضمر أنه لا يعتدّ بشيء من ذلك، ويقابل كلاً منه بما هو أحسن وأفضل وأقرب منه إلى البر والتقوى، وأشبه بما يُحمد ويُرضى، ثم يكون في إيفاء ما يكون عليه، مثلما يكون في حفظ ما يكون له، فإذا مرض أخوه المسلم عاده، وإن جاءه في شفاعة شفعه، وإن استمهله في قضاء دين أمهله، وإن احتاج منه إلى

معونتـه أعانـه، وإن استسـمحه في بيـع سمـح لـه، ولا ينظـر إلى الـذي يعامله كيف كانت معاملته إياه فيما خلا، وكيف يعامل الناس، إنما يتخذ الأحسن إماماً لنفسه، فينحو نحوه ولا يخالفه»[١].

وقد تواترت الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة بالأمر بأنواع السلوك من الأقوال والأعمال مما يقع تحت مسمى حسن الخلق، وعني بهذا الموضوع علماء المسلمين وبخاصة المهتمون منهم بالتربية أبلغ عناية، حتى لو جرت محاولة لجمع ما كتبه العلماء في هذا الموضوع لصار منه مكتبة كبيرة.

وفيما يلي نماذج من الآيات والأحاديث الواردة في هذا المعنى، فمن الآيات: قوله تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ [الإسراء:٥٣]، ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [البقرة: ٨٣]، ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل:١٢٥]، ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٦]، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ

---

(١) موسوعة نضرة النعيم، ص ١٥٦٩ ـ ١٥٧١.

ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت:٣٣ - ٣٤]، ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ ﴾ [المؤمنون:٩٦]، ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان:٦٣]، ﴿ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ [لقمان:١٧ -١٩]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات:١١- ١٣].

ومن الأحاديث الصحيحة: «ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم

والصلاة»[١]، «أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه»[٢]، «اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن»[٣]، «أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقاً وخياركم خياركم لنسائهم خلقاً»[٤]، « لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه »[٥]، «إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم»[٦]، «إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً»[٧]، «البِّرُ حسن الخلق والإثم ما حاك في

---

[١] رواه أبو داوود ،كتاب الأدب ،باب في حسن الخلق، برقم (٤٧٩٩). والترمذي كتاب البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق،برقم (٢٠٠٣) وصححه الألباني.

[٢] رواه أبو داوود، كتاب الأدب ،باب في حسن الخلق برقم (٤٨٠٠) وحسنه الألباني.

[٣] رواه الترمذي، كتاب البر والصلة ، باب ما جاء في معاشرة الناس، برقم (١٩٨٧) وحسنه الألباني.

[٤] رواه الترمذي، كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، برقم (١١٦٢) وحسنه الألباني .

[٥] رواه مسلم ، كتاب الإيمان، باب بيان تحريم إيذاء الجار، برقم (٤٦).

[٦] رواه أبو داوود ،كتاب الأدب، باب في حسن الخلق، برقم (٤٧٩٨) وصححه الألباني .

[٧] رواه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في معالي الأخلاق ، برقم (٢٠١٨) وصححه الألباني .

صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس»[١]، سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة فقال: «تقوى الله وحسن الخلق»، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار فقال «الفم والفرج»[٢] «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر، حتى تختلطوا بالناس من أجل أن ذلك يحزنه»[٣]، «ألا أخبركم بمن يحرم على النار أو بمن تحرم عليه النار؟ على كل قريب سهل لين»[٤]، قال النبي ﷺ لأشج عبدالقيس: «إن فيك خصلتين يحبهما الله الحلم والأناة»[٥]، «إن الله أوحى إليّ: أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد »[٦]، «لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق»[٧]، «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا،

---

[١] رواه مسلم، كتاب البر والصلة والأدب، باب تفسير البر والإثم، برقم (٢٥٥٣).

[٢] رواه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق، برقم (٢٠٠٤) وحسنه الألباني.

[٣] رواه البخاري، كتاب الاستئذان، باب إذا كانوا أكثر من ثلاثة فلا بأس بالمسارة والمناجاة، برقم (٦٢٩٠) ومسلم كتاب السلام ،باب : تحريم مناجاة الاثنين دون الثالث بغير رضاه، برقم (٢١٨٤).

[٤] رواه الترمذي، كتاب صفة القيامة، باب، برقم (٢٤٨٨) وصححه الألباني .

[٥] رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله وشرائع الدين، والدعاء إليه والسؤال عنه، وحفظة وتبليغه من لم يبلغه، برقم (١٨).

[٦] رواه مسلم ، كتاب الجنة ،باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة أهل النار ،برقم (٢٨٦٥).

[٧] رواه مسلم ،كتاب البر والصلة والآداب ، باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء، برقم (٢٦٢٦).

وخيرهما الذي يبدأ بالسلام»[١]، «لا يفرك مؤمن مؤمنةً إن كره منها خلقاً رضي منها آخر»[٢]، «من أعطي حظه من الرفق فقد أعطي حظه من الخير ومن حرم حظه من الرفق فقد حُرم حظه من الخير»[٣]، «يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا»[٤]،«إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين»[٥]، عن عائشة رضي الله عنها أن اليهود أتوا النبي ﷺ فقالوا: السام عليكم، فقالت عائشة: عليكم ولعنكم الله وغضب عليكم، قال: «مهلا يا عائشة عليك بالرفق وإياك والعنف والفحش»[٦]، عن أنس رضي الله عنه قال خدمت النبي ﷺ عشر سنين فما قال لي: أف، وما قال لشيء صنعته لم صنعته؟ ولا لشيء تركته لم تركته؟ وكان | أحسن

(١) رواه أبو داوود، كتاب الأدب ،باب فيمن يهجر أخاه المسلم ،برقم (٤٩١٢) وصححه الألباني .

(٢) رواه مسلم ،كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء ،برقم (١٤٦٩).

(٣) رواه الترمذي ،كتاب البر والصلة ،باب ما جاء في الرفق ، برقم (٢٠١٣)، وصححه الألباني.

(٤) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب قول النبي ﷺ "يسروا ولا تعسروا" برقم (٦١٢٥) ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير وترك التعسير، برقم (١٧٣٤) .

(٥) رواه البخاري ، كتاب الوضوء ، باب صب الماء على البول في المسجد برقم (٢٢٠).

(٦) رواه البخاري، كتاب الدعوات ، باب قول ﷺ: يستجاب لنا في اليهود، ولا يستجاب لهم فينا، برقم (٦٤٠١) ومسلم ، كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم ، برقم (٢١٦٥).

الناس خلقاً[١]، وعن أنس ﷺ قال: كانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت[٢]، عن أنس ﷺ قال: كان النبي ﷺ أحسن الناس خلقاً وكان لي أخ يقال له أبو عمير، وكان إذا جاء قال: «يا أبا عمير ما فعل النغير» نغر كان يلعب به[٣]، عن ابن مسعود ﷺ قال: كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء ضربه قومه فأدموه فهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: «رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[٤]، عن أنس ﷺ قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه رداء نجراني غليظ الحاشية فأدركه أعرابي فجبذ رداءه، جبذة شديدة فنظرت إلى صفحة عاتق النبي ﷺ وقد أثرت فيه حاشية الرداء من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه فضحك ثم أمر له بعطاء[٥]، وعن أنس ﷺ قال: «كان النبي ﷺ إذا استقبله الرجل فصافحه لا ينزع يده من يده،

---

(١) رواه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في خلق النبي ﷺ، برقم (٢٠١٥) وصححه الألباني.

(٢) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب الكبر، برقم (٦٠٧٢).

(٣) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب الانبساط إلى الناس، برقم (٦١٢٩)، ومسلم، كتاب الآداب، باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته وحمله إلى صالح يحنكه وجواز تسميته يوم ولادته، واستحباب التسمية بعبد الله وإبراهيم وسائر الأنبياء عليهم السلام، برقم (٢١٥٠).

(٤) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب، برقم (٣٤٧٧)، ومسلم ،كتاب الجهاد والسير، باب غزوة أحد، برقم (١٧٩٢).

(٥) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب التبسم والضحك، برقم (٦٠٨٨)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء من سأل بفحش وغلظ، برقم (١٠٥٧).

حتى يكون الرجل الذي ينزع ولا يصرف وجهه عنه حتى يكون الرجل هو الذي يصرفه»[١]، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما مالم يكن إثماً فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه في شيء قط إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله[٢]، «إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه»[٣]، «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً[٤]، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى ههنا (ويشير إلى صدره ثلاث مرات) بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل

---

(١) رواه الترمذي ،كتاب صفة القيامة، باب، برقم (٢٤٩٠) ، وابن ماجه، كتاب الأدب، باب إكرام الرجل جليسه، برقم (٣٧١٥)، وضعفه الألباني إلا جملة المصافحة فهي ثابتة.

(٢) رواه البخاري، كتاب الحدود، باب إقامة الحدود والانتقام لحرمات الله، برقم (٦٧٨٦) ومسلم، كتاب الفضائل، باب مباعدته ﷺ للآثام، واختياره من المباح أسهله، وانتقامه لله عند انتهاك حرماته، برقم (٣٢٢٧).

(٣) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق، برقم (٢٥٩٣).

(٤) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب يا أيها الذين أمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن برقم (٦٠٦٦)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب ،باب تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش ونحوها، برقم (٢٥٦٣).

المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه، إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[١].

« **رحم الله امرءاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى**»[٢]، «**الكلمة الطيبة صدقة**»[٣]، «**لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق**»[٤]، «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[٥] «**ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف شرف كبيرنا**»[٦].

إن تعوّد المسلم على تفاصيل السلوك التي تدعو إليها نصوص الوحي وترغب فيها على نحو ما أشارت الآيات والأحاديث السابقة،

---

(١) رواه مسلم ،كتاب البر والصلة والآداب ، باب تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش ونحوها ، برقم (٢٥٦٤).

(٢) رواه البخاري، كتاب البيوع، باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع، برقم (٢٠٧٦).

(٣) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من أخذ بالركاب ونحوه، برقم (٢٩٨٩). ومسلم، كتاب الزكاة، باب بيان أن أسم الصدقة بقع على كل نوع من المعروف، برقم (١٠٠٩).

(٤) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء، برقم (٢٦٢٦).

(٥) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يجب لنفسه، برقم (١٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير، برقم (٤٥).

(٦) رواه الترمذي، كتاب البر والصلة ، باب ما جاء في رحمة الصبيان، برقم (١٩٢٠)، وصححه الألباني .

وترويض نفسه عليها حتى تكون له عادة وأسلوب حياة ثم طبيعة ثانية، كل ذلك كفيل بأن يهيئه نفسياً وذهنياً للتسامح تجاه الآخرين حتى يصدر منه هذا الخلق عفواً وبدون تكلف، وهذا مشاهد في الواقع لدى الأشخاص الذين رزقوا بمن يربيهم على حسن الخلق ويوعيهم بمنزلته في بناء الإسلام.



الفصل الثالث

التصور عن الكون والحياة
علاقة المسلم بالطبيعة

(١)
التسبيح

قال تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴾ [النور: ٤١].

وقال تعالى: ﴿ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشورى: ٥].

تكرر في القرآن ذكر أن «من في الكون يسبح لله» أكثر من ثلاثين مرة بلفظ "التسبيح" وتكرر هذا المعنى بغير لفظ "التسبيح" مرات أخرى كثيرة. وهكذا فإن المسلم الواعي عندما يقرأ أو يسمع القرآن، ويسبح الله كما أمره فإن من الطبيعي أن يدرك أنه عضو في "كورس" التسبيح الكوني، وهذا كاف لإشعاره بانسجامه مع الكون وعناصره وأنه ليس مع الطبيعة في حال تنافر وصراع.

(٢)

التسخير

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقًا لَّكُمۡۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِىَ فِى ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ إبراهيم: ٣٢ - ٣٤

وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِىَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية ١٢- ١٣].

وقد تكرر معنى الآيات الكريمة من تسخير الله عناصر الكون بلفظ "التسخير" أكثر من عشرين مرة، وتكرر هذا المعنى عدة مرات بألفاظ أخرى مثل: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولًا فَٱمۡشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [الملك: ١٥].

وهكذا فإن المسلم الواعي حين يقرأ أو يسمع القرآن، ويعرف أن عناصر الطبيعة مسخرات له، ونعم أنعم الله بها عليه فإن من الطبيعي أن يشعر بإلفٍ للطبيعة وأنس بها، وأن يعتبرها صديقة وليست عدوة وربما يفسر هذا أنه لا توجد في لغة الإسلام عبارات مثل «قهر

الطبيعة»، أو «ظلم الطبيعة» كما هي في اللغات الأوروبية، وإنما انتقلت هذه العبارات إلى اللغة العربية حديثاً تأثراً باللغات الأوروبية.

(٣)

قانون الزوجية

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٩]. وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴾ [النجم:٤٥]، وقال تعالى: ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ﴾ [الشورى:١١]، وقال تعالى: ﴿ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ [الحج: ٥]، وقال تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾ [طه:٥٣]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ [الزخرف:١٢]. وقال تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يس: ٣٦]. وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ [الرعد:٣]، وقال تعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٩].

المسلم الواعي حين يسمع أو يقرأ هذه الآيات من السهل عليه أن يدرك أن الاختلاف الظاهر في الطبيعة وفي الحياة اختلاف تنوع وتكامل وليس اختلاف تناقض وتضاد، يرى المسلم الوحدة في الكون الصادر عن الواحد الخالق، ويرى الوحدة في القانون الذي يحكم الكون من الذرة إلى المجرة، ويرى أن القانون الذي يسيطر على الحياة قانون واحد هو قانون الزوجية، فالذكر والأنثى، والليل والنهار، والجسد والروح، والدنيا والآخرة، وحتى الموت والحياة كلها أجزاء في المنهاج الكوني تسير مترافقة إلى غايته.

قد يستغرب القارئ المزاوجة بين الحياة والموت ولكن الله سبحانه تعالى يقول: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك: ٢]، الموت والحياة علامات في طريق انتقال الإنسان من مرحلة لأخرى قال تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة:١٥٤]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [آل عمران:١٦٩ -١٧٠] الموت ليس نهاية الحياة بإطلاق وإنما نهاية أجل لمرحلة معينة، الموت والحياة كاليقظة والنوم، ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ

تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ [الزمر:٤٢] فالأساس في الكون الوحدة لا التعدد والتكامل لا الصراع.

(٤)

الانسجام في القرآن والكون

والقرآن يصف نفسه بأنه آيات، ويصف الكون الطبيعي بأنه آيات، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الجاثية:٣ - ٦].

ففي هذه الآية الجمع بين آيات الكون وآيات القرآن، إن من معاني كلمة آية: الدلالة والأمارة فالقرآن آيات دالة على أن الله أنزله، والكون آيات دالة على أن الله خلقه، وقد وصف الله القرآن بأنه﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢]، وقال عن الكون: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ [الملك:٣] فنفى الاختلاف مثل نفي التفاوت

في الخلق كلاهما يعني تمام التناسق والانسجام وكون القرآن والكون على تمام التناسق والانسجام دليل على وحدة مصدرهما[1].

(٥)

الوحدة في منهج الإسلام

وحين يعي المسلم هذه المعاني: انسجامه مع الكون، وشعوره بالألفة والسلام مع عناصره، ومعرفته بأن مبدأ الوحدة هي ما يحكمه، يسهل عليه إدراك الوحدة في تنظيم الإسلام للسلوك. وقيام الإسلام منهجاً شاملاً للحياة ليس فقط الحياة في نواحيها الأساسية المختلفة من اقتصاد وثقافة واجتماع بل أيضاً في تفاصيلها حتى ما يراه الناس في العادة تافهاً منها كآداب الأكل والشرب والنوم واللباس ودخول المسكن والخروج منه.

في حياة المسلم كل نشاط أو امتناع عن نشاط يمكن أن يكون عبادة، والعبادة في الإسلام ليست مجرد طقوس تُؤدَى في المعبد، يعرف علماء الإسلام العبادة "بأنها اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة "[2]، كل عمل صالح حين يقترن بالإخلاص فهو عبادة، لا فرق بين ما تعارف الناس على تسميته «دينيا» وما تعارفوا على تسميته «دنيوياً»، الباحث في

---

(١) الانسجام في الكون حقيقة علمية مطلقة ، إذ بدون افتراض الانسجام في الكون لا يمكن أن يوجد العلم Science، وفي هذا المعنى عبارة أنشتاتين المشهورة God does not play dice

(٢) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، (١٠/١٤٩).

معملـه، والطبيب في عيادتـه، والجـراح في غرفـة العمليـات، والمهنـدس يمارس مهنته، والعامل في المصنع والمجاهـد في ميدان المعركـة كلهم يتعبدون الله بعملهم حينما يقترن بالإخلاص والاحتساب لله.

كـان هـذا المعنـى واضحـاً لـدى الأشـخاص الـذين تلقـوا الإسـلام مباشرة عن الرسول ﷺ قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه «مادمت تذكر الله فأنت في صلاة وإن كنت في السوق»، الإثم ليس فقط في تـرك الصـلاة والصوم، بل أيضاً في كسل الإنسان عن طلب المعيشة وتضييعه من هـو مسؤول عن إعالته، ففي الحديث الشريف «كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت»[1].

والتجارة والصناعة والزراعة وكل حرفة يحتاجها المجتمع تعد كلها فروض كفاية إذا أخلّ بها كل القادرين عليها في المجتمع أثموا كلهم.

وبالجملة فالإسلام ليس ديناً بالمعنى الذي تعارف الناس عليه من غير المسلمين، الإسلام منهج شامل للحياة .

يصور هذه المعاني محمد أسد بقوله «الإسلام... لا يرشد الإنسان إلى أن الحياة أساسها وحدة فحسب، لأنها تنبثق من الوحدة الإلهية، ولكن يدلنا أيضاً على الطريقة العملية التي يستطيع بها الفرد في نطاق حياته الدنيوية أن يعيد وحدة العمل والفكر في وعيه ووجوده كليهما»[2]، «يختلف إدراك العبادة في الإسلام عما هو في أي دين

---

[1] رواه أبو داوود ،كتاب الزكاة ،باب في صلة الرحم ،برقم (١٦٩٢) وحسنه الألباني.

[2] محمد أسد الإسلام على مفترق الطرق ، ترجمة عمر فروخ ص ١٩.

آخر، إن العبادة في الإسلام ليست محصورة في أعمال من الخشوع الخالص كالصلوات والصيام مثلاً، ولكنها تتناول كل حياة الإنسان العملية أيضاً، وإذا كانت الغاية من حياتنا على العموم عبادة الله فيلزمنا حينئذ ــ ضرورة ــ أن ننظر إلى هذه الحياة، في مجموع مظاهرها كلها على أنها تبعة أدبية متعددة النواحي، وهكذا يجب أن نأتي أعمالنا كلها، حتى تلك التي تظهر تافهة على أنها عبادات أي نأتيها بوعي، وعلى أنها تمثل جزءاً من ذلك المنهاج الكوني الذي أبدعه الله، تلك حال ينظر إليها الرجل العادي على أنها مُثُل عليا بعيدة، ولكن أليس من مقاصد الدين أن تتحقق المثل العليا في الوجود الواقع»[1].

«الفكرة الإسلامية في العبادة لا تشمل الصلوات فحسب، ولكنها تشمل فعلاً حياتنا كلها. إن هدفها هو جمع ذاتنا الروحية وذاتنا المادية في كلٍّ واحدٍ، من أجل ذلك يجب أن تكون جهودنا موجهة بوضوح نحو إزالة العوامل التي تنشط في حياتنا على غير وعي منا فنزيلها بالقدر الذي تتحمله طاقة البشر، إن محاسبة النفس هي أولى الخطوات في هذا السبيل، وإن أوثق الوسائل للتمرين على محاسبة النفس أن تخضع أعمالنا التي تجرى في حياتنا اليومية بحكم العادة وبغير مبالاة للمراقبة، ... ليس من السهل على الإطلاق أن يبقى الإنسان في تنبه مستمر لمحاسبة النفس وضبطها حتى ولو كانت فيه هاتان القوتان مثقفتين غاية التثقيف، إن كسل العقل في الحقيقة لا

---

[1] محمد أسد الإسلام على مفترق الطرق ، ترجمة عمر فروخ ، ص ٢١.

يقل عن كسل الجسم، فإذا تحتم علينا أن نُخضع جميع ما نعمل وجميع ما نترك لتمييز عقلي معلوم فإن مقدرتنا على ضبط النفس واستعدادنا لذلك ينموان تدريجياً ثم يصبحان طبيعة ثانية، وفي كل يوم ما دام هذا التمرين مستمراً يتناقص كسلنا الأدبي حسب ذلك، إن استعمال التعبير «تمرين» يقتضي بطبيعة الحال أن تكون قوته الفعالة معتمدة على الوعي في القيام به، هذه هي الناحية الأولى الناحية الفردية كما يقال، أما الناحية الثانية فهي الأهمية الاجتماعية والنفع الاجتماعي، لا يكاد يكون ريب في أن أكثر المنازعات الاجتماعية ترجع إلى سوء فهم بعض الناس لأغراض بعضهم الآخر ومقاصده، وسبب سوء الفهم هذا اختلاف الأمزجة والميول في أفراد البيئة الاجتماعية اختلافاً كبيراً، فإن الأمزجة تحمل الناس على عادات مختلفة وهذه العادات المختلفة إذا تبلورت بالمراس سنين طوالاً أصبحت حواجز بين الأفراد، ولكن إذا اتفق على عكس ذلك ـ أن نفراً اتخذوا في حياتهم كلها عادات معينة ترجح أن تقوم صلاتهم على التعاطف، وأن يكون في عقولهم استعداد للتفاهم، من أجل ذلك جعل الإسلام ـ وهو الحريص على خير الناس الاجتماعي والفردي ـ من النقاط الجوهرية أن يحمل أفراد البيئة الاجتماعية بطريقة منظمة على أن تكون عاداتهم وطباعهم متماثلة مهما كانت أحوالهم الاجتماعية والاقتصادية متنافرة»[1].

---

[1] محمد أسد الإسلام على مفترق الطرق ، ترجمة عمر فروخ ، ص ١٠٢ -١٠٦.

في رحلة محمد أسد الأولى إلى الشرق الأوسط اهتم بالتعرف على الإسلام وبدأ يقرأ عنه، يحكي قصة هذه التجربة الأولى في حياته فيقول: «مهما كانت ضآلة ما عرفت [عن الإسلام] إلا أنه كان أشبه برفع ستار، بدأت في معرفة عالم من الأفكار كنت غافلاً عنه جاهلاً به، حتى ذلك الوقت، لم يبدُ لي الإسلام ديناً بالمعنى المتعارف عليه بين الناس لكلمة «دين» بل بدا لي أسلوباً للحياة، ليس نظاماً لاهوتياً بقدر ما هو سلوك فرد ومجتمع، يرتكز على الوعي بإله واحد... لم أجد أي أثر على الثنائية في الطبيعة البشرية، فالبدن والروح يعملان في المنظور الإسلامي كوحدة واحدة لا ينفصل أحدهما عن الآخر»[1]، «أدهشني في البداية اهتمام القرآن الكريم ليس بالجوانب الروحية فقط بل بجوانب أخرى غير مهمة من الأمور الدنيوية، ولكن مع مرور الوقت بدأت أدرك أن البشر وحدة متكاملة من بدن وروح، وقد أكد الإسلام ذلك، لا يوجد وجه من وجوه الحياة يمكن أن نعده مهمشاً، بل كل جوانب حياة البشر تأتي في صلب اهتمامات الدين، لم يدع القرآن الكريم المسلمين ينسون أن الحياة الدنيا ليست إلا مرحلة في طريق البشر نحو وجود أسمى وأنقى، وأن الهدف النهائي ذو سمة روحية، ويرى أن الرخاء المادي لا ضرر فيه إلا أنه ليس غاية في حد ذاته، لذلك لابد أن تقنن شهية الإنسان وشهواته وتتم السيطرة عليها بوعي أخلاقي من الفرد، هذا الوعي لا يوجه إلى الله فقط بل يوجه أيضاً إلى البشر فيما بينهم، لا من أجل الكمال الفردي الروحي

[1] محمد أسد، الطريق إلى مكة، ص١٦٦.

وحده بل من أجل خلق حالة اجتماعية تؤدي إلى تطور وعي المجتمع بأكمله حتى يتمكن من أن يحيا حياة متكاملة»[١] ويقول: «تركت الشهور الأولى التي قضيتها في بلاد العرب قطاراً طويلاً من الانعكاسات والانطباعات لقد واجهت الحياة وجهاً لوجه، وكان ذلك جديداً تماماً على حياتي، الأنفاس البشرية الدافئة تتدفق من مجرى دم أولئك الناس إلى أفكارهم بلا تمزقات روحية مؤلمة من عدم الاطمئنان والخوف والطمع والإحباط الذي جعل من الحياة الأوروبية حياة قبيحة وسيئة ولا تعد بأي شيء»[٢] «ما كنت أشعر به في البداية لا يعدو أكثر من تعاطف مع شكل الحياة العربية والأمان المعنوي الذي أحسه فيما بينهم، تحول بطريقة لا أدركها إلى ما يشبه المسألة الذاتية، زاد وعيي برغبة طاغية في معرفة كنه ذلك الشيء الذي يكمن في أساس الأمن المعنوي والنفسي والذي جعل حياة العرب تختلف عن حياة الأوروبيين، ارتبطت تلك الرغبة بشكل غامض بمشكلاتي الشخصية الدفينة، بدأت أبحث عن مداخل تتيح لي فهماً أفضل للشخصية العربية والأفكار التي شكلتهم وصاغتهم وجعلتهم يختلفون روحياً عن الأوروبيين، بدأت أقرأ كثيراً وبتركيز في تاريخهم وثقافتهم ودينهم، وفي غمرة اهتمامي أحسست بأني قد توصلت إلى اكتشاف ما يحرك قلوبهم ويشغل فكرهم ويحدد اتجاههم»[٣] «أحسست بضرورة فهم روح تلك الشعوب المسلمة لأني وجدت لديهم

(١) المصدر نفسه، ص١٦٦ -١٦٨.

(٢) المصدر نفسه، ص١٣١.

(٣) محمد أسد، الطريق إلى مكة، ص١٣٢.

تلاحماً عضوياً بين الفكر والحواس، ذلك التلاحم الذي فقدناه نحن الأوروبيين، واعتقدت أنه من خلال فهم أقرب وأفضل لحياتهم يمكن أن أكتشف الحلقة المفقودة التي تسبب معاناة الغربيين، وهي تآكل التكامل الداخلي للشخصية الأوروبية، لقد اكتشفت كنه ذلك الشيء الذي جعلنا نحن أهل الغرب ننأى عن الحرية الحقة بشروطها الموضوعية التي يتمتع بها المسلمون حتى في عصور انهيارهم الاجتماعي والسياسي»(١)، «كانت صور نهائية متكاملة عن الإسلام تتبلور في ذهني، كان يدهشني في أوقات كثيرة أنها تتكون في داخلي بما يشبه الارتشاح العقلي الفكري أي أنها تتم بدون وعي مني، وإرادة مني، كانت الأفكار تتجمع ويضمها ذهني بعضها إلى بعض في عملية تنظيم ومنهجة لكل الشذرات التي عرفتها عن الإسلام، رأيت في ذهني عملاً عمرانياً متكاملاً تتضح معالمه رويداً رويداً بكل ما تحتويه من عناصر الاكتمال وتناغم الأجزاء والمكونات مع الكل المتكامل في توازن لا يطغي فيه جزء على آخر، توازن مقتصد بلا خلل ويشعر المرء بأن منظور الإسلام ومسلماته كلها في موضعها الملائم الصحيح من الوجود»(٢)، «كانت القوة الدافعة الأولى للإسلام كافية لوضعه في قمة سامية من الرقي الحضاري والفكري، إلا أن القوة الدافعة قد ماتت لنقص الغذاء الروحي الدافع لها وركدت الحضارة الإسلامية عصراً بعد عصر، لافتقار القوة الخلاقة المبدعة، لم يكن

(١) المصدر نفسه، ص١٣٢.

(٢) محمد أسد، الطريق إلى مكة، ص٣٨١.

لدي أوهام عن الحالة المعاصرة للعالم الإسلامي، بَيَّنَتَ الأعوام الأربعة التي قضيتها في مجتمعات إسلامية أن الإسلام مازال حيا، وأن الأمة الإسلامية متمسكة به بقبول صامت لتعاليمه، إلا أن المسلمين كانوا مشلولين غير قادرين على تحويل إيمانهم إلى أفعال مثمرة، إلا أن ما شغلني أكثر من إخفاق المسلمين المعاصرين في تحقيق منهج الإسلام ،الإمكانيات المتضمنة في المنهج ذاته، كان يكفيني أن أعرف أنه خلال مدة قصيرة... كانت هناك محاولة ناجحة لتطبيق هذا المنهج، وما أمكن تحقيقه في وقت ما يمكن تحقيقه لاحقاً، ما كان يهمني - كما فكرت في داخلي - أن المسلمين شردوا عن التعليمات الأصلية للدين... ما الذي حدث وجعلهم يبتعدون عن المثاليات التي علمهم إياها الرسول ﷺ منذ ثلاثة عشر قرناً مضت مادامت تلك التعليمات لا تزال متاحة لهم إن أرادوا الاستماع إلى ما تحمله من رسالة سامية؟ بدا لي كلما فكرت أننا في عصرنا الحالي نحتاج إلى تعاليم تلك الرسالة أكثر من هؤلاء الذين عاشوا في عصر محمد ﷺ، لقد عاشوا في بيئات وظروف أبسط كثيراً مما نعيش فيه الآن، لذلك كانت مشكلاتهم أقل بكثير من مشكلاتنا... العالم الذي كنت أحيا فيه - كله - كان يتخبط في غياب أي رؤية عامة لما هو خير وما هو شر.. لقد أحسست بيقين تام أن مجتمعنا المعاصر يحتاج إلى أسس فكرية عقدية توفر شكلاً من أشكال التعاقد بين أفراده، وأنه يحتاج إلى إيمان يجعله يدرك خواء التقدم المادي من أجل التقدم ذاته، وفي الوقت نفسه يعطي الحياة نصيبها، ويرشدنا إلى كيفية تحقيق التوازن بين

احتياجاتنا الروحية والبدنية.. إن ذلك سينقذنا من كارثة محققة نتجه إليها بأقصى سرعة»[١].

«وفّر الإسلام حافزاً قوياً إلى التقدم المعرفي والثقافي والحضاري الذي أبدع واحدة من أروع صفحات التاريخ الإنساني، وقد وفر ذلك الحافز مواقف إيجابية عندما حدد في وضوح: نعم للعقل الإنساني ولا لظلام الجهل، نعم للعمل والسعي، ولا للتقاعد والنكوص، نعم للحياة، ولا للرهبنة، ولذلك لم يكن عجباً أن يكسب الإسلام أتباعاً في طفرات هائلة بمجرد أن جاوز حدود بلاد العرب.. فقد وجدت الشعوب التي نشأت في أحضان مسيحية القديس بولس والقديس أوجستين.. ديناً لا يقر عقيدة ومفهوم الخطيئة الأولى.. ويؤكد كرامة الحياة البشرية ولذلك دخلوا في دين الله أفواجاً، جميع ذلك يفسر كيفية انتصار الإسلام وانتشاره الواسع والسريع في بداياته التاريخية ويفند مزاعم من روجوا أنه انتشر بحد السيف، لم يكن المسلمون ـ إذاً ـ من خلقوا عظمة الإسلام، بل كان الإسلام من خلق عظمة المسلمين وبمجرد أن تحول إيمانهم إلى عادة وابتعد أن يكون منهجاً وأسلوباً للحياة خبا وهج النبض الخلاق في تلك الحضارة وحل محلها تدريجياً التقاعس والعقم وتحلل الثقافة»[٢].

كان إدراك محمد أسد لتصور الإسلام عن الكون والحياة، ـ حيث يعد الإسلام الكون والحياة وحدة إن لم يكن في جوهرهما

---

(١) محمد أسد، الطريق إلى مكة، ص٣٨٥ -٣٨٦.

(٢) محمد أسد، الطريق إلى مكة، ص٣٤٦.

فبالتأكيد في غايتهما، الأمر الذي لم يسمح بأن يوجد في شريعته انفصام أو صراع بين الجانب الروحي والجانب المادي للحياة وإنما توافق وتوازن وانسجام، كان إدراكه ذلك ـ دافعاً له للموازنة بين هذا التصور وتصور الثقافة الغربية، كان في أعوامه المبكرة من شبابه بعد أن أصابه الإحباط وخيبة الأمل في عقيدته اليهودية التي تقصر اهتمام الإله على مجموعة معينة من البشر ترى نفسها «شعب الله المختار» قد اتجه فكره إلى المسيحية إلا أن هناك جانباً من الفكر المسيحي قلّل في رأيه إمكانية تعميمه وصلاحيته لكل البشر، ألا وهو التمييز بين عالم الروح وعالم الشؤون الدنيوية وكان يرى أنه بسبب تنائي المسيحية المبكر عن كل المحاولات التي تهدف إلى تأكيد المقاصد الدنيوية كَفَتْ من قرون أن تكون دافعاً أخلاقياً للحضارة الغربية، وأن رسوخ الموقف التاريخي العتيق للكنيسة في التفريق بين ما للرب وما لقيصر نتج عنه ترك الجانب الاجتماعي والاقتصادي في الحياة يعاني فراغاً دينياً، وترتب على ذلك غياب الأخلاق في الممارسات الغربية السياسية والاقتصادية مع باقي شعوب العالم، ومثّل ذلك إخفاقاً في تحقيق ما هدفت إليه رسالة المسيح، فالهدف الجوهري لأي دين ليس فقط تعليم البشر كيف يدركون ويشعرون بل كيف يعيشون معيشة صحيحة وينظمون العلاقات المتبادلة بينهم بطريقة سوية وعادلة، ورأى محمد أسد أن إحساس الإنسان الغربي بأن الدين خذله جعله يفقد إيمانه بالمسيحية خلال قرون، وبفقده لإيمانه فقد اقتناعه بأن الكون والحياة تعبير عن قوة خلق واحدة، وبفقد ذلك الاقتناع عاش في خواء روحي وأخلاقي، وقد

رأى أن عبادة التقدم المادي ـ ليست إلا بديلاً وهمياً للإيمان بالقيم المجردة، إن الإيمان المطلق بالمادة جعل الغربيين يعتقدون بأنهم سيقهرون المصاعب التي تواجههم حالياً، ولكن جميع النظم الاقتصادية التي خرجت من معطف المادة كانت علاجاً مزيفاً وخادعاً لا تصلح لعلاج البؤس الروحي للغرب، كان التقدم المادي في إمكانه في أفضل الحالات شفاء بعض أعراض المرض إلا أنه من المستحيل أن يعالج سبب المرض[1].

كانت المعاني السابقة تقفز بإلحاح إلى فكر محمد أسد كلما كان يقارن بين الإسلام والثقافة أو الحضارة الغربية ويقول: «الأوروبي الحديث ـ بينما هو يتسامح مع الدين، وأحياناً يؤكد أنه عرف اجتماعي ـ يترك على العموم الأخلاق المطلقة خارج نطاق الاعتبارات العملية، إن المدنية الغربية لا تجحد الله البتة ولكن لا ترى مجالاً ولا فائدة لله في نظامها الفكري الحالي»[2] «الإنسان الغربي أسلم نفسه لعبادة المادة، لقد فَقَدَ منذ وقت طويل براءته، فَقَدَ كل تماسك داخلي مع الطبيعة، لقد أصبحت الحياة في نظره لغزاً، إنه مرتاب شكوك، لذلك فهو منفصل عن أخيه الإنسان منفرد بنفسه، ولكي لا يهلك في وحدته، وفرديته هذه فإن عليه أن يسيطر على الحياة بالوسائل الخارجية، وحقيقة كونه على قيد الحياة لم تعد وحدها قادرة على أن تشعره بالأمن الداخلي، ولذا فإن عليه أن يكافح دائماً وبألم في

---

(١) محمد أسد، الطريق إلى مكة، ص١٣٩ -١٤١.

(٢) محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق ،ترجمة عمر فروخ، ص٣٧.

سبيل هذا الأمن، وبسبب أنه قرر الاستغناء عن كل توجيه ديني فإن عليه أن يخترع لنفسه وباستمرار حلفاء ميكانيكيين، من هنا نما عنده الميل المحموم إلى التقنية والتمكن من قوانينها ووسائلها، إنه يخترع كل يوم آلات جديدة ويعطي كلاً منها بعض روحه لكي تدافع عنه في سبيل وجوده، وهي تفعل ذلك حقاً، ولكنها في الوقت نفسه تخلق له حاجات جديدة ومخاوف جديدة وظمأ لا يروى إلى حلفاء جدد أكثر اصطناعية وتضيع روحه في ضوضاء الآلة الخانقة، التي تزداد مع الأيام قوة وغرابة، وتفقد الآلة غرضها الأصلي وهو أن تصون وتغني الحياة الإنسانية، وتتطور إلى صنم بذاته صنم من فولاذ، ويبدو أن كهنة هذا المعبود ومبشريه غير مدركين أن سرعة التقدم التقني الحديث هي نتيجة ليس لنمو المعرفة الإيجابي فحسب بل لليأس الروحي أيضاً، وأن الانتصارات المادية العظمى التي يعلن الإنسان الغربي أنه بها يستحق السيادة على الطبيعة هي في صميمها ذات صفة دفاعية، فخلف واجهتها البراقة يكمن الخوف من الغيب، إن الحضارة الغربية لا تستطيع حتى الآن أن تقيم توازناً بين حاجات الإنسان الجسمية والاجتماعية وبين أشواقه الروحية، لقد تخلت عن آداب دياناتها السابقة دون أن تتمكن أن تخرج من نفسها أي نظام أخلاقي آخر ـ مهما كان نظريا ـ يخضع نفسه للعقل، بالرغم من كل ما حققته من تقدم ثقافي فإنها لم تستطع حتى الآن التغلب على استعداد الإنسان الأحمق للسقوط فريسة لأي هتاف عدائي أو نداء للحرب مهما كان سخيفاً ظاهر البطلان يخترعه الحاذقون من الزعماء. الأمم الغربية وصلت إلى درجة أصبحت معها الإمكانيات

العلميـة غـير المحـدودة تصـاحب الفوضـى العمليـة، وإذا كـان الغربـي يفتقـر إلى توجيـه ديـني حكـيم فإنـه لا يسـتطيع أن يفيـد أخلاقيـاً مـن ضياء المعرفة الذي تسـكبه علومـه وهـي لا شـك عظيمـة. إن الغـربيين ـ في عجرفـة وعمـى ـ يعتقـدون عـن اقتنـاع أن حضـارتهم هـي الـتي سـتغيّر العـالم وتحقـق السـعادة، وأن كـل المشـاكل البشـرية يمكـن حلـها في المصـانع والمعامـل وعلـى مكاتـب المحلّـين الاقتصـاديين والإحصـائيين، إنهم بحق يعبدون الدجال»[1].

(٦)

عقبة في طريق فهم الغرب للإسلام

إن تأمل النصوص السابقة ربما يفسر المعضلة التي تواجه الإنسان الغربي عندما يحاول فهم الإسلام أو فهم سلوك المسلمين، وحين يواجه هذا الامتزاج الغريب على ثقافته بين الديني والدنيوي سواء كان هذا الإنسان رجل دين أم علمانياً لا يؤمن بالدين، أو يؤمن بوجوب فصله عن الشؤون الدينوية، رجل الدين يرى في تصور الإسلام للكون والحياة نزولاً بالسماء إلى الأرض، وتحويلاً للروح المتسامية إلى تجسد مادي كثيف، وانتهاكاً لهدف انعتاق الإنسان من رق المادة وخلاص روحه، أما العلماني فيرى في صبغ الإسلام الشؤون الدنيوية بألوان ترجع إلى أمور غيبية فضلاً عن أنه ضار وخطر (حسب تجربة العصور

---

(١) محمد أسد، الطريق إلى مكة ،ص٣٧٣.

الوسطى الأوروبية) فهو اعتداء على حرية الإنسان وقدرته على الاختيار.

ورجل الدين والرجل العلماني يريان أن عناية الإسلام بأمور الحياة العادية الصغيرة وشوبها بنكهة الدين، وتحويل العبادة إلى حركات بدنية تعني أن الإسلام دين أشكال وطقوس ورسوم ومظاهر فهو أقرب إلى البدائية والفطرية ولا يرقى إلى أن يكون ديناً لشعب متحضر.

في شهر إبريل من عام ٢٠٠٥ صدرت السيرة الذاتية للملكة مارجريت الثانية ملكة الدانمرك والرئيس الأعلى للكنيسة الافانجيليكية اللوثرية التي هي الدين الرسمي (القومي) للدولة، وفي هذا الكتاب سخرت الملكة مارجريت الثانية من الإسلام حيث قالت: «هناك شيء مثير للمشاعر في هؤلاء الناس الذين يحكم الدين كل حياتهم من العشاء إلى الفجر ومن المهد إلى اللحد»[١]، «هناك أيضاً شيء مخيف ومرعب من مثل هذه الشمولية التي تعتبر جزءاً من دين الإسلام»[٢]، وبغض النظر عما إذا كان يليق بالملكة التي تقود الديانة

---

(١) News B.B.C, Co. UK, 14/4/2005
Islam on Line. Net 15/4/2005 Telegraph, Co. UK, 15/4/2005

(٢) News B.B.C, Co. UK, 14/4/2005
Islam on Line. net, April 15,2005 Telegraph, Co. UK, 15/4/2005

الافانجيليكية اللوثرية أن تسخر من دين يزيد عدد معتنقيه من إخوانها في الإنسانية عن عدد أتباع الافانجيليكية اللوثرية إلا أن ما قالته الملكة له نصيب كبير من الصحة، يشهد له ما وضح سابقاً عن طبيعة الإسلام وتصوره للكون والحياة، فالحق أن الإسلام فعلاً يحكم حياة المسلم من المهد إلى اللحد، ويدعوه إلى أن يكون في عبادة دائمة بالمعنى الإسلامي للعبادة.

وتعبر عن هذا المعنى الآيات الكريمة: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠ـ ١٩١]. ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان:٦٣].

ويمكن أن يكون ما قصدت الملكة مارجريت الثانية أن توجه إليه سخريتها بالذات هي مسألة الصلاة في الإسلام وهنا أيضاً يكون لملاحظتها ـ وليس لسخريتها ـ جانب كبير من الصحة.

فالحق فعلاً أن الصلاة في هيئتها وتوقيتها هي من أبرز ما يثير انتباه واستغراب غير المسلم من أعمال العبادة عند المسلمين وفي الغالب يعبر غير المسلم عن هذا الاستغراب باتخاذ أحد الموقفين:

الأول ـ أن يرى فيها شذوذاً عن أعمال العبادة المعتادة في الديانات الأخرى إذ لا تظهر توجهاً ساكناً للمعبود أو مصحوباً بالترانيسم، ومن ثم تستدعي صلاة المسلمين في نظره الهزء والسخرية،

وقد واجه الإسلام مثل هذا الموقف من اليهود في وقت مبكر أي بعد قدوم الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة ونزلت الآية الكريمة: ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ [المائدة: ٥٨].

فالصلاة عند المسلمين تثير استغراب غير المسلمين بسبب صورتها الظاهرة وبسبب توقيتها إذ تغطي اليوم كله ليس فقط من العشاء إلى الفجر كما قالت الملكة بل من العشاء إلى العشاء، وهذا التوقيت واجب على المسلم إذ لا يجوز له تأخير الصلاة عن وقتها حتى في أصعب الظروف كحالة المواجهة بين صفي المتحاربين في معركة جهادية، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ﴾ [النساء:١٠٢].

بل يجب على المسلم أن يؤدي الصلاة في وقتها وعلى أي وجه تيسر له لذلك، حتى في حالة المرض أو في حالة الاقتحام والتحام الصفوف في معركة الجهاد، قال تعالى: ﴿ حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢٣٨ -٢٣٩].

فالشخص الذي اعتاد الصلاة على أنها ذهاب إلى المعبد في يوم من أيام الأسبوع يستمع فيه إلى الموعظة أو يشترك في الترانيم، من الطبيعي إذا لم يكن مدركاً للمعاني والمقاصد في صلاة المسلمين ـ أن يراها غريبة أو مزعجة لشعوره، ويرى الإسلام دين طقوس شكلية لا صلة له بالتسامي الروحي.

وقد وصف هذا الموقف محمد أسد بقوله: «هاتان الوجهتان [الروحية والمادية] تتفقان في أنهما لا تدعان تناقضاً أساسياً بين حياة الإنسان الجسدية وحياته الأدبية فحسب، ولكن تلازمهما هذا وعدم افتراقهما فعلاً أمر يؤكده الإسلام، ويراه الأساس الطبيعي للحياة، ذلك هو السبب على ما أظن لهذا الشكل في الصلاة الإسلامية حيث يمتزج الخشوع ببعض الحركات الجسمية، إن بعض النقاد الذين شهروا عداوتهم على الإسلام، يجعلون هذا النوع من الصلاة برهاناً على زعمهم أن الإسلام دين رسوم ومظاهر. وفي الحق أن أهل الأديان الأخرى أولئك الذين تعودوا أن يفصلوا تماماً بين الأمور الروحية والأمور الجسدية، كما يفعل اللبان عندما يخضّ الحليب ليستخرج زبدته، لا يفهمون بسهولة أن في الحليب الصريح في الإسلام يجتمع هذان العنصران ـ مع أنهما متمايزان في أجزائهما ـ ويعيشان متجانسين ويعبران عن نفسيهما أوضح التعبير»[1].

ويتحدث محمد أسد عن تجربته الشخصية عندما رأى لأول مرة المسلمين يصلون فيقول: «أصابتني الحيرة حين شاهدت صلاة تتضمن

---

(١) محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق، ترجمة عمر فروخ، ص٢٠.

حركات آلية، فسألت الإمام: هل تعتقد حقاً أن اللّه ينتظر منك أن تظهر له إيمانك بتكرار الركوع والسجود؟ ألا يكون من الأفضل أن تنظر إلى داخلك وتصلي إلى ربك بقلبك وأنت ساكن؟ فأجاب بأي وسيلة أخرى تعتقد أننا يمكن أن نعبد اللّه؟ ألم يخلق الروح والجسد معاً، وبما أنه خلقنا جسداً وروحاً ألا يجب أن نصلي بالجسد والروح؟ ثم مضى يشرح المعنى من حركات الصلاة وأيقنت بعد ذلك بسنوات أن هذا الشرح البسيط قد فتح لي أبواب الإسلام»[١].

الموقف الثاني: أن تأخذه الروعة والإعجاب.

ولعل من الأمثلة البارزة لهذا الموقف موقف الفيلسوف الفرنسي رينان، الذي قال عنه جوستاف لوبون بعد أن انتقد عدم حياده في أحكامه على الإسلام قال: «ثم يُظهر الكاتب الفاضل مسيو رينان أسفاً أحياناً على رأيه في العرب (المسلمين) ويصل إلى النتيجة غير المنتظرة الآتية التي تنم عما بين ذاتية الإنسان القديمة وذاتيته المعاصرة من التنازع، ويأسف على أنه ليس من أتباع النبي (محمد) ﷺ فيقول: (إنني لم أدخل مسجداً من غير أن أهتز خاشعاً أي من غير أن أشعر بشيء من الحسرة على أنني لست مسلماً)»[٢].

ومحمد أسد يذكر تجربته الثانية مع صلاة المسلمين بعد أن أمضى بعض الوقت في بلاد الإسلام، وكان قبل إسلامه ـ قد دخل الجامع الأموي في دمشق مع صديق مسلم فرأى الناس يصلون ويصف

---

(١) محمد أسد، الطريق إلى مكة ، ص١٢٠.

(٢) جوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، ص ٥٦٩.

هذا المشهد فيقول: «اصطف مئات المصلين في صفوف منتظمة خلف الإمام، ركعوا وسجدوا كلهم في توحد مثل الجنود كان المكان يسوده الصمت، يسمع المرء صوت الإمام من المحراب من أعماق المسجد الجامع يتلو آيات القرآن الكريم، وحين يركع ويسجد يتبعه كل المصلين كرجل واحد، أدركت في تلك اللحظة قرب الله منهم وقربهم منه بدا لي أن صلاتهم لا تنفصل عن حياتهم اليومية، بل كانت جزءاً منها لا تحملهم صلاتهم على نسيان الحياة بل تعمقها أكثر بذكرهم لله، قلت لصديقي ومضيفي ونحن ننصرف من الجامع: ما أغرب ذلك وأعظمه ! أنكم تشعرون أن الله قريب منكم أتمنى أن يملأني ذلك الشعور. ورد صاحبي: ما الذي يمكن أن نحسه غير ذلك والله يقول في كتابه العزيز ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦]».

(٧)
بين الإسلام والثقافة الغربية

إن المسلم حينما يدرك أنه عضو في نظام التسبيح الكوني شاعراً بالانسجام والتناغم مع أجزاء الكون.

وحينما يدرك أن عناصر الطبيعة مسخرة بتسخير الله وأنها منح ونعم أنعم بها عليه فيشعر أن الطبيعة صديق وليست عدواً.

وحينما يدرك قانون الزوجية في الكون ويدرك أن الاختلاف الظاهر في الطبيعة والحياة اختلاف تنوع لا تضاد فيشعر أن الكون والحياة مبنيان على التكامل لا على التناقض، ومن ثم يدرك وحدة

الكون والحياة في سبب وجودهما، وفي القوانين التي تحكمهما وفي غايتهما النهائية ويقبل بسهولة أن يكون الإسلام منهجاً شاملاً ومتكاملاً في الحياة وللحياة.

إن من الطبيعي نتيجة لكل هذه الأنواع من الإدراك أن يتقبل المسلم أن تبنى فلسفة الثقافة الإسلامية كلها على التعارف والتآلف والتعاون.

وقد جاء الأمر المقدس: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [المائدة:٢] مباشرة بعد الأمر المقدس ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾ [المائدة:٢]، ولم يكن أحد أعدا للإسلام من أولئك الذين أخرجوا المسلمين من ديارهم وأموالهم وقاتلوهم ثم صدوهم عن المسجد الحرام، فكأنه يقول: حتى هؤلاء الذين هم بهذه المنزلة من عداوتهم لكم إذا أظهروا استعداداً للتعاون معكم على أمر يدخل في مجال البر والتقوى فتعاونوا معهم، ويشهد لهذا أن النبي ﷺ قال في ذروة خصومة قريش له وصدهم له وللمسلمين عن الوصول إلى المسجد الحرام: «والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها».[1]

ويزيد هذا الأمر وضوحاً المقارنة مع الثقافة المعاصرة (أي الثقافة الغربية) حيث تسود هذه الثقافة روح الصراع والمغالبة، فلا أحد ينسى

---

(١) رواه البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد، برقم (٢٧٣١).

أنه في خلال القرن المنصرم ساد الصدام بين شطري الثقافة الغربية: الشيوعية المؤسسة على فلسفة الجدلية المادية وعلى فكرة الصراع بين طبقة العمال وطبقة الملاك، والرأسمالية المؤسسة على فلسفة الفردية والمغالبة.

وسيادة فكرة الصراع في الثقافة الغربية تفسر سهولة قبول هذه الثقافة للأفكار المبنية على الصراع مثل الفلسفية الجدلية الهيجلية والفرويدية، وأبلغ من ذلك قبولها النظرية الداروينية التي تخطت نطاقها الأساسي وهو الطبيعة اللاإرادية فقبلت في الثقافة الغربية تفسيراً لمختلف أنواع السلوك الإرادي الإنساني .

(٨)

عند استحضار الاقتباسات عن محمد أسد في هذا الفصل نرى بوضوح أن روح الإسلام وطبيعته هو ما فسر لمحمد أسد كنه ذلك الشيء الذي يكمن في أساس الأمن النفسي والمعنوي الذي جعل حياة المسلمين تختلف عن حياة الأوروبيين. لقد وجد ـ كما قال ـ لدى المسلمين تلاحماً عضوياً بين الفكر والحواس ذلك التلاحم الذي فقده الغربيون، وقد اعتقد أنه من خلال فهم أفضل لحياة المسلمين يمكن أن يكتشف الحلقة المفقودة التي تسبب معاناة الغربيين وهي تآكل التكامل الداخلي للشخصية الغربية، ولقد رأى أنه اكتشف فعلاً كنه ذلك الشيء الذي جعل الغربيين ينأون عن الحرية الحقة بشروطها الموضوعية التي تمتع بها المسلمون حتى في عصور انهيارهم الاجتماعي والسياسي، لقد واجه ـ كما يقول ـ مغزى الحياة وجهاً لوجه،

الأنفاس البشرية الدافئة تتدفق من مجرى دم المسلمين إلى أفكارهم بلا تمزقات روحية مؤلمة من عدم الاطمئنان والخوف والطمع والإحباط الذي جعل من الحياة الأوروبية حياة قبيحة وسيئة ولا تعد بشيء كما يقول.

في خلال ثمانين عاماً، وتحت وطأة التأثير الطاغي للثقافة الغربية على حياة المسلمين وعلى تصورهم عن الحياة ظهرت دلائل على ما توقعه محمد أسد من تهديد لهذا التصور في حياة وفكر المسلم حينما قال: (لا يوجد في العالم بأجمعه ما يبعث في نفسي تلك الراحة التي شعرت بها [بين المسلمين] والتي أصبحت غير موجودة في الغرب وتهدد الآن بالضياع والاختفاء من الشرق، تلك الراحة وذلك الرضا اللذان يعبران عن التوافق الساحر بين الذات الإنسانية والعالم الذي يحيط بها).

بصرف النظر عن ما جرى من تبدل في حياة المسلمين وتصوراتهم وأفكارهم فإن من البديهي أن لا يغير ذلك من حقيقة أن ثقافةً تسودها روح التآلف والتعاون لابد أن تختلف عن ثقافة تسودها روح المغالبة والصراع من حيث خلق بيئة ملائمة لوجود ونمو سلوك «التسامح».



الفصل الرابع

(١)

الوسطية والاعتدال

كان النبي ﷺ يصف الإسلام بالشريعة السمحة وجاء في القرآن الكريم: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج:٧٨]، ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ﴾ [المائدة٦]، ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة:١٨٥]، ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٢٨]، ﴿ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ [البقرة: ١٧٨]، ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ [التوبة: ١٢٨].

إن سماحة الإسلام ويسره اقترنت بحكم ما تقتضيه طبيعة الأمور بسمته العامة: الوسطية والاعتدال، والبعد عن الغلو والتطرف والتشدد والإسراف.

ولذلك لم يكن غريباً أن يتكرر في القرآن الثناء على الوسطية والاعتدال، والنعي على تجاوز الحد وما يتولد عنه من تعصب وبغي وعدوان، وأن يتكرر ذلك في أكثر من ثمانين موضعاً، يعبر فيها عن تجاوز الحد والخروج عن الوسطية والاعتدال بألفاظ الغلو والإسراف والطغيان والبغي والاعتداء.

قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ ﴾ [البقرة: ١٤٣].

قال الطبري في تفسيره : "إنما وصفهم بأنهم وسط لتوسطهم في الدين فلا هم أهل غلو فيه، ولا أهل تقصير فيه، ولكنهم أهل توسط واعتدال، فوصفهم الله بذلك إذ كان خير الأمور أوسطها" (١).

وفي هذا المعنى الآيات الكريمة ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن:٨ -٩].

فالعدل والاعتدال والتوسط في سلوك الإنسان في نفسه وفي معاملته لغيره سمة عامة في الإسلام، وتوسط الإنسان واعتداله في تصوره عن نفسه وحكمه عليها يحكم في الغالب تصوره عن غيره وحكمه عليه.

وفي معنى هذا التوسط والاعتدال ما وصف الله به الأبرار في دعائهم: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة: ٢٠١]، وفي هذا المعنى الآيات الكريمات: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٧٧]، ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان:٦٧]، ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ

---

(١) انظر تفسير الطبري، (١٤٢/٣).

مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٩]، ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾

[الأعراف ٣١ -٣٢].

وتكررت النصوص في النهي عن الخروج عن الوسطية والاعتدال إلى مسلك الغلو والتطرف.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ﴾ [النساء: ١٧١]. ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة:٧٧]، ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ ﴾ [هود:١١٢].

وجاء في الأحاديث الشريفة: **«إياكم والغلو فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو»**[(١)].

«لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم، فإن قوماً شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم»[(٢)].

---

(١) رواه النسائي، كتاب مناسك، باب التقاط الحصى، برقم (٣٠٥٧)، وابن ماجه، كتاب المناسك، باب قدر حصى الرمي، برقم (٣٠٢٩)، وصححه الألباني.

(٢) رواه أبو داوود ،كتاب الأدب، باب في الحسد، برقم (٤٩٠٣)، وضعفه الألباني.

«إن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه»[(١)]، «**سئل النبي ﷺ أي الأديان أحب إلى الله فقال الحنيفية السمحة**»[(٢)].

كما جاءت الأحاديث بالأمر بالتيسير على النفس وعلى الخلق في مثل: «**إن الله لم يبعثني معنتاً ولا متعنتاً ولكن بعثني معلماً ميسراً**»[(٣)]، «إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين»[(٤)].

«يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا»[(٥)]، **«إن الله رفيق يحب الرفق»**[(٦)]، **«الرفق ما كان في شيء إلا زانه ولا نزع من شيء إلا شانه»**[(٧)].

---

(١) رواه البخاري ،كتاب الإيمان، باب الدين يسر ، برقم (٣٩).

(٢) رواه مسلم ،كتاب الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقا إلا بالنية، برقم (١٤٧٨).

(٣) رواه البخاري ، كتاب الوضوء ،باب صب الماء على البول في المسجد، برقم (٢٢٠).

(٤) رواه البخاري ،كتاب العلم ،باب ما كان النبي ﷺ تيخو لهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا، برقم (٦٩) ، ومسلم ،كتاب الجهاد والسير ، باب في الأمر بالتيسير ـ وترك التنفير ،برقم (١٧٣٢).

(٥) رواه البخاري، كتاب استتابة المرتدين ،باب إذا عرَّض الذمي وغيره بسب النبي ﷺ، برقم (٦٩٢٧)، ومسلم ،كتاب البر والصلة والآداب ،باب فضل الرفق ،برقم (٢٥٩٣).

(٦) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب ،باب فضل الرفق، برقم (٢٥٩٤).

(٧) رواه البخاري، كتاب استتابة المرتدين، باب إذا عرّض الذمي وغيره بسب النبي ﷺ برقم (٦٩٢٦)، ومسلم، كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم، برقم (٢١٦٥).

قال الشاطبي رحمه الله (ت ٧٩٠) في كتابه الموافقات: «النهي عن التشديد شهير في الشريعة بحيث صار أصلاً قطعياً»[١].

(٢)

منهج الحكم

يبدأ الإسلام التدريب على الاعتدال والوسطية والتوازن بالتدريب على المنهج السليم في الحكم على الأشياء والأشخاص والآراء فيسمي هذا المنهج الصراط المستقيم، وهو يتضمن عنصرين: **(الأول)** العلم بأن يبذل الإنسان غاية ما يستطيعه بصفته إنساناً للوصول إلى الحقيقة فلا يحكم بالظن ولا بالإشاعة، ولا بناء على خبر غير موثق إذ يسمى مثل هذا الحكم صراط الضالين، **(والثاني)** عدم التحيز والعدول عن موجب العلم، بأن لا يحكم على خلاف ما أوصله إليه علمه لهوى أو عاطفة إذ يسمي مثل هذا الحكم صراط المغضوب عليهم.

والمسلم يردد في صلاته في كل ركعة: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة:٦ -٧].

وقد أعطى القرآن هذا الأمر مساحة واسعة، إذ تناول هذا المنهج بالإيضاح والتفصيل في أكثر من ثلاثمائة آية، والحكمة واضحة في ذلك لأن منهج الحكم السليم هو أساس لصحة كل قول أو عمل أو امتناع عن القول أو العمل.

---

(١) الشاطبي، الموافقات (١٣٣/٢).

(٣)

تجري بعد ذلك كل تعاليم الإسلام وأحكامه على منهج التوازن والوسطية والاعتدال.

(أ) **العلاقة بالرب والعلاقة بالخلق:**

ومن مظاهر ذلك الاهتمام بعلاقة الإنسان بربه وعلاقته ببيئته الاجتماعية.

فكما يهتم الإسلام بالسمو الروحي وتنمية مشاعر الإنسان في علاقته بربه، يهتم في الوقت نفسه بتصحيح سلوكه الاجتماعي

ولذلك فإن علماء الإسلام حينما يريدون أن يلخصوا الإسلام في عبارة موجزة يقولون مثل ما يقول ابن تيمية: الإسلام يدور على الإخلاص للحق ورحمة الخلق[1]، أو كما يقول الرازي رحمه الله في تفسيره عند قوله تعالى ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴾ [الإنسان :٧]: مجامع الطاعات هي تعظيم أمر الله، والشفقة على خلق الله[2]،أو كما يقول الهروي رحمه الله في "كتابه منازل السائرين" عن أساسيات التصوف بأنها إقامة أمر الله وتعظيم نهيه والشفقة على العالم.

وفي أول اتصال لمحمد أسد بالإسلام وقبل إسلامه لاحظ هذا المعنى وعبر عنه بقوله: «بدأت في معرفة عالم من الأفكار كنت غافلاً عنه وجاهلاً به، حتى ذلك الوقت لم يبدُ لي الإسلام ديناً بالمعنى المتعارف عليه بين الناس لكلمة "دين" بل بدا لي أسلوباً للحياة، ليس نظاماً

---

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (١١٧/٢٠ـ ١١٨).

(٢) الرازي، مفاتيح الغيب ،(٢١٥/٣٠ ـ ٢١٦).

لاهوتياً بقدر ما هو سلوك في مجتمع يرتكز على الوعي بوجود إله واحد»[١].

وبعد إسلامه يتضح له هذا المعنى أكثر فيعبر عنه بقوله: «هناك فرق بين الإسلام وبين سائر النظم الدينية المعروفة، ذلك أن الإسلام لا يكتفي بأن يأخذ على عاتقه تحديد الصلات المتعلقة بما وراء الطبيعة فيما بين المرء وخالقه فقط، ولكن يعرض أيضاً للصلات الدنيوية بين الفرد وبيئته الاجتماعية»[٢].

(ب) العلاقة بين الروح الجسد:

ومن مظاهره الاستجابة لحاجات الروح وحاجات الجسد،وقد جاءت آيات معبرة عن هذا المعنى، منها الآية الكريمة : ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف ٢١ - ٢٢].

والآيات الكريمة والأحاديث الصحيحة التي تضمنت هذا المعنى كثيرة مشهورة ومنها الحديث: إن لربك عليك حقاً وإن لنفسك عليك

---

(١) محمد أسد ، الطريق إلى مكة ، ص١٢٧ -١٢٨.

(٢) محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق، ترجمة عمر فروخ، ص٢٢.

حقاً وإن لأهلك عليك حقاً فأعط كل ذي حق حقه[١]، وقال ﷺ لأصحابه الذين قال أحدهم: أصلي الليل أبداً وقال الآخر: أصوم الدهر، وقال الآخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج، فقال: «**أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**»[٢]، وحين أخبر ﷺ عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما أنه يصوم النهار ويقوم الليل قال: فلا تفعل، صم وأفطر ونم وقم، فإن لجسدك عليك حقاً وإن لعينك عليك حقاً وإن لزوجك عليك حقاً وإن لزورك عليك حقاً»[٣]، وقال: «**بكل تسبيحة صدقة، وبكل تكبيرة صدقة وبكل تحميدة صدقة وبكل تهليلة صدقة وأمر بالمعروف صدقة ونهي عن منكر صدقة وفي بضع أحدكم صدقة**» قالوا يا رسول الله: أيأتي أحدنا شهوته يكون له فيها أجر؟ قال: «**أرأيتم لو وضعها في حرام هل يكون عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في حلال يكون له أجر**»[٤].

---

(١) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، برقم (٥٠٦٣)، ومسلم ، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة، واشتغال من عجز عن المؤن بالصوم، برقم (١٤٠١).

(٢) رواه البخاري، كتاب الأدب ،بان صنع الطعام والتكلف للضيف، برقم (٦١٣٩).

(٣) رواه مسلم كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، برقم (١٠٠٦).

(٤) كنز العمال، (٤٧/٢)، برقم (٥٤١٩)، قال العراقي في إسناده ضعف.

وقال «**يا عثمان إن الله قد أبدلنا بالرهبانية الحنيفة السمحة**»[١]، وقال: «**حُبب إلي من الدنيا النساء والطيب وجعل قرة عيني في الصلاة**»[٢].

ويتحدث محمد أسد عن تجربته عندما قرأ القرآن فيقول:«أدهشني في البداية اهتمام القرآن الكريم ليس بالجوانب الروحية فقط بل بجوانب متكاملة من بدن وروح وقد أكد الإسلام ذلك. لا يوجد وجه من وجوه الحياة يمكن أن يعده مهمشاً، بل إن كل جوانب حياة البشر تأتي في صلب اهتمامات الدين، لم يدع القرآن الكريم المسلمين ينسون أن الحياة ليست إلا مرحلة في طريق البشر نحو تحقيق وجود أسمى وأبقى، وأن الهدف النهائي ذو سمة روحية، ويرى أن الرخاء المادي لا ضرر منه إلا أنه ليس غاية في ذاته... كان منهجه في تناول مشكلات الروح أعمق كثيراً من تلك التي وَجَدْتُها في التوراة هذا عدا أنه لم يأت لبشر دون بشر... كما أن منهجه في مسألة البدن بعكس منهج الإنجيل، منهج إيجابي لا يتجاهل البدن، البدن والروح معاً يكوّنان البشر كتوأمين متلازمين»[٣].

وعندما رجع إلى أوروبا وعند نقاشه مع أصدقائه قضية الإسلام أحس أنهم كلهم، من يرفضون الدين أصلاً، ومن لا يرفضونه يميلون

---

(١) رواه النسائي، كتاب عشرة النساء، باب حب النساء، برقم (٣٩٣٩) وحسنه الألباني.

(٢) رواه النسائي، كتاب عشرة النساء، باب حب النساء، برقم (٣٩٣٩) وقال الألباني حسن صحيح.

(٣) محمد أسد، الطريق إلى مكة، ص ١٦٨.

بلا سبب إلى تبني المفهوم الغربي الشائع الذي يرى أن الإسلام يهتم بالشؤون الدنيوية ولا يقتصر على الروحانيات، الأمر الذي يتوقع الإنسان أن يجده في كل دين، يقول: «ما أدهشني بالفعل أن أكتشف أن ذلك الجانب من الإسلام هو ما جذبني إليه من أول لحظة، وهو عدم الفصل بين الوجود المادي والوجود الروحي للبشر، وتأكيد السببية العقلية سبيلاً للإيمان، وهو الجانب ذاته الذي يعترض عليه مفكرو أوروبا الذين يتبنون السببية العقلية منهجاً للحياة، ولا يتخلون عن ذلك المنهج العقلاني إلا عندما يرد ذكر الإسلام، لم أجد أي فرق بين الأقلية المهتمة بالدين والأغلبية التي ترى أن الدين أصبح من المفاهيم البالية التي عفا عليها الزمن، وأدركت مع الوقت مكمن الخطأ في منهج كلٍّ منهما، أدركت أن مفاهيم من تربوا في أحضان الأفكار المسيحية في أوروبا تبنوا مفهوماً يسود بينهم جميعا، فمع طول تعود أوروبا لنسق التفكير المسيحي تعلم حتى غير الدينيين أن ينظروا إلى أي دين آخر من خلال عدسات مسيحية، فيرون أن الدين إنما يكون صالحاً إذا غلفته مسحة غامضة خارقة للطبيعة تبدو خافية وفوق قدرة العقل البشري على استيعابها ومن منظورهم لم يف الإسلام بتلك المتطلبات»[1].

لقد ظلت فكرة جمع الإسلام بين الاستجابة لحاجات الروح وحاجات الجسد تتضح في ذهن محمد أسد أكثر فأكثر، فبعد إسلامه سجل هذه الملاحظات:

---

(١) محمد أسد، الطريق إلى مكة ، ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨.

«لقد أشرت من قبل إلى أن الفكرة الإسلامية في العبادة لا تشمل الصلوات فحسب، ولكنها تشمل فعلاً حياتنا كلها، أما هدفها فهو جمع ذاتنا الروحية وذاتنا المادية في كلٍّ واحد، من أجل ذلك وجب أن توجه جهودنا بوضوح نحو إزالة العوامل التي تنشط في حياتنا على غير وعي منا ومن غير خضوع لسيطرتنا، فنـزيلها بالقدر الذي تتحمله طاقة البشر" [1]، [الإسلام] لا يرشد الإنسان فقط إلى أن الحياة في أساسها وحدة، لأنها تنبثق من الوحدانية الإلهية، ولكنه يدلنا أيضاً على الطريقة العملية التي يستطيع بها كل فرد في نطاق حياته الدينية ـ أن يعيد وحدة الفكر والعمل في وجوده ووعيه كليهما، وللوصول إلى هذا الهدف السامي في الحياة كان الإنسان في الإسلام غير مجبر على أن يرفض الدنيا، وليست ثمة حاجة إلى تقشف يفتح به الإنسان باباً سرياً إلى التطهر الروحي، ذلك أمر غريب كل الغرابة عن الإسلام، فالإسلام ليس عقيدة صوفية ولا هو فلسفة، ولكنه نهج من الحياة حسب قوانين الطبيعة التي سنها الله لخلقه، وما عمله الأسمى سوى التوفيق التام بين الوجهتين الروحية والمادية في الحياة الإنسانية، وإنك لترى هاتين الوجهتين في تعاليم الإسلام تتفقان في أنهما لا تنفيان التناقض الأساسي بين حياة الإنسان الجسدية وحياته الأدبية فحسب، ولكن تلازمهما هذا وعدم افتراقهما فعلاً أمر يؤكده الإسلام إذ يراه الأساس الطبيعي للحياة» [2].

---

(١) محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق، ترجمة عمر فروخ، ص ١٠٢ ـ ١٠٣.

(٢) محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق، ترجمة عمر فروخ، ص ١٩ ـ ٢٠.

«إن من أهم مآتي الإسلام ـ تلك المآتي التي تميزه عن غيره من النظم ـ التوفيق التام بين الناحية الخلقية والناحية المادية من الحياة الإنسانية»[١].

«ومن بين سائر الأديان نجد الإسلام وحده يتيح للإنسان التمتع بحياته الدنيا إلى أقصى حد، من غير أن يضيع اتجاهه الروحي دقيقة واحدة، وهذا يختلف كثيراً عن وجهة النظر النصرانية، إن الإنسان حسب العقيدة النصرانية يتعثر في الخطيئة الموروثة التي ارتكبها آدم وحواء، وعلى هذا تعد الحياة كلها ـ في نظر العقيدة على الأقل ـ وادياً مظلماً للأحزان، إنها الميدان الذي يعترك فيه قرنان: الشر المتمثل في الشيطان، والخير المتمثل في المسيح، إن الشيطان يحاول بواسطة التجارب الجسدية أن يسد طريق النفس نحو النور الأزلي، إن النفس ملك للمسيح وإن الجسد ملعب للمؤثرات الشيطانية، وقد يمكن التعبير عن ذلك بوجه آخر: إن عالم المادة شيطاني في أساسه، بينما عالم الروح إلهي خير، وإن كل ما في الطبيعة الإنسانية من المادة أي الجسد ـ كما يؤثر اللاهوت النصراني أن يدعوه ـ هو نتيجة مباشرة لزلة آدم حينما سمع نصيحة الأمير الجهنمي للظلمة والمادة يعني إبليس، من أجل ذلك كان حتماً على الإنسان عندهم إذا شاء النجاة أن يلفت قلبه عن عالم اللحم إلى هذا العالم الروحي المقبل، حيث تحل الخطيئة بتضحية المسيح، أي بفداء المسيح، أما في الإسلام فإننا لا نعلم شيئاً عن خطيئة أصلية موروثة، من أجل ذلك ليس ثمة أيضاً

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٨٦.

غفران شامل للإنسان فيه، إن المغفرة والغضب أمران شخصيان، إن كل مسلم رهين بما كسب فهو يحمل في نفسه جميع وجوه الإمكان للنجاة الروحية أو الخيبة الروحية ولقد قال القرآن في النفس الإنسانية: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] وقال: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩] ولكن كما أن الإسلام لا يشرك النصرانية فيما تنص عليه من الناحية المظلمة للحياة فإنه يعلمنا على كل حال أن لا نعلق على الحياة أهمية مبالغاً فيها، كالتي تقول بها المدنية الغربية الحاضرة، إن الغرب الحديث ـ بصرف النظر عن نصرانيته ـ يعبد الحياة بالطريقة نفسها التي يعبد بها النَهِمُ طعامه: إنه يلتهمه ولكنه لا يحترمه، أما الإسلام فينظر إلى الحياة بهدوء واتزان، إنه لا يعبد الحياة، ولكنه ينظر إليها على أنها ممر في طريقنا إلى وجود أسمى، ولكن بما أنها دار ممر، ودار ممر ضرورية، فليس من حق الإنسان أن يحتقر حياته الدنيا ولا أن يبخسها شيئاً من حقها، إن سفرنا في هذا العالم أمر ضروري وجزء إيجابي من سنة الله، من أجل ذلك كان لحياة الإنسان قيمة عظمى، ولكن يجب أن لا ننسى أنها قيمة الواسطة إلى غاية فقط. ثم ليس هناك مجال في الإسلام للتفاؤل المادي كما في الغرب الحديث الذي يقول: «مملكتي في هذا العالم وحده»، ولا لاحتقار الحياة الذي يجري على لسان النصرانية: «مملكتي ليست من هذا العالم»، إن الإسلام يتخير في ذلك طريقاً وسطاً ولذلك يعلمنا

القرآن الكريم أن ندعو فنقول: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة ٢٠١]»[١].

« وعبادة الله في أوسع معانيها... تؤلف في الإسلام معنى الحياة الإنسانية، هذا الإدراك وحده يرينا إمكان بلوغ الإنسان الكمال (البشري) في إطار حياته الدنيوية الفردية، ومن بين سائر النظم الدينية نرى الإسلام وحده يعلن أن الكمال الفردي (البشري) ممكن في الحياة الدنيا، إن الإسلام لا يؤجل هذا الكمال إلى إماتة الشهوات «الجسدية» كما في النصرانية ولا هو يعدنا بسلسلة متلاحقة الحلقات من تناسخ الأرواح على مراتب متدرجة كما هو الحال في الهندوكية، ولا هو يوافق البوذية التي تقول بأن الكمال والنجاة لا يتمان إلا بعد انعدام النفس الجزئية وانفصام علاقاتها الشعورية من العالم، كلا.. إن الإسلام يؤكد في إعلانه أن الإنسان يستطيع بلوغ الكمال في حياته الدنيا الفردية وذلك بأن يستفيد استفادة كاملة من وجوه الإمكان الدنيوي في حياته هو»[٢].

(ت) الإيمان والعمل:

ومن مظاهر ذلك: الجمع بين الإيمان والعمل إذ يعتبر الإسلام أن دعوى الإيمان والتقوى بدون أن يصدقهما العمل دعوى كاذبة، وكذلك فإن العمل إن لم يكن مبعثه الإيمان ولم يقصد به وجه الله،

---

(١) محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق، ترجمة عمر فروخ ، ص ٢٦ ـ ٢٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٢ ـ ٢٣.

فهو حابط في ميزان الآخرة، والإيمان حينما يقترن بالعمل الصالح ينتج السعادة الدنيوية والأخروية، قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ [العصر:٢ -٣]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٦٢].

واقتران الإيمان بالعمل الصالح ورد في القرآن أكثر من ثلاثمائة وثمانين مرة، كما أن لفظي عمل وفعل وما اُشتُق منهما ورد في القرآن (٤٧٥) مرة.

ولتوضيح هذا المعنى يقول محمد أسد: «إن الإسلام لا يسمح بالتفريق بين المطالب الأدبية والمطالب العملية في وجودنا هذا... وهكذا كان الإصرار في الإسلام على أن العمل عنصر لا غنى عنه في الفضائل الخلقية شديداً، فعلى كل مسلم أن ينظر إلى نفسه على أنه مسؤول شخصياً عن نشر كل أنواع السعادة وحده، وأن يسعى إلى إقرار الحق وإزهاق الباطل في كل زمان وفي كل ناحية، ونجد مصداق ذلك في آية من القرآن الكريم: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ ﴾ [آل عمران:١١٠]. إن المعرفة بالفضائل ـ حسب تعاليم الإسلام ـ تفرض على الإنسان من تلقاء

نفسها العمل بالفضائل، وأما الفصل الأفلاطوني بين الخير والشر من غير حث على زيادة الخير ومحو الشر فإنه فسق في ذاته، إن الأخلاق في الإسلام تحيا وتموت مع سعي الإنسانية لنصرتها على الأرض».[١]

(ث) العمل والتوكل:

ومن مظاهر ذلك الجمع بين العمل والتوكل، وبين الاجتهاد لجلب النفع ودرء الضر، والإيمان بالقدر، فمن جهة يحث الإسلام على العمل الديني والدنيوي، بل يعد العمل المقرون بالنية الصالحة مهما كان وصفه عبادة لله، وقد يكون العمل الذي تعارف الناس على وصفه بالدينوي فرض عين أو فرض كفاية يؤدي تركه إلى الإثم، والمسلم مطلوب منه الأخذ بقواعد السلامة وأخذ الحيطة ضد احتمال وقوع الضرر، والأخذ بذلك يتردد بين الوجوب الشرعي والاستحباب الشرعي فكلما صار الضرر أكبر واحتمال وقوعه أكثر صار الحكم أقرب إلى الوجوب، وكلما صار الضرر أهون واحتمال وقوعه أقل صار الحكم أقرب إلى الاستحباب.

وقد تكرر لفظ العمل واشتقاقاته في القرآن ٣٦٧ مرة، ولفظ الفعل واشتقاقاته ١٠٨ مرّات كما ورد التعبير عن العمل بألفاظ: الكسب والإتيان والسعي والكدح والابتغاء مرات أخرى.

وتكررت هذه الألفاظ بصيغة الأمر بالعمل أو الحث عليه أو تقرير أن الجزاء على حسب العمل في مثل الآيات: ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ ﴾ [التوبة:

---

(١) محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق، ترجمة عمر فروخ ،ص ٢٨ -٢٩.

١٠٥]، ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة:٢٨٦]، ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ [القصص: ٧٧]، ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ [النجم ٣٨ - ٤١]، ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الجمعة:١٠]، ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [الملك: ١٥]. والأحاديث وأخبار سيرة الرسول ﷺ وسيرة أصحابه في هذا المعنى أكثر من أن تحصر.

وقد ورد الحديث بالأمر بإتقان العمل: «**إن الله عز وجل يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه**»[1] ورد هذا الحديث في مناسبتين ـ على الأقل ـ لإحداهما دلالة خاصة: فعندما كان ابنه إبراهيم يدفن وكان الرجل الذي يدفنه قد صف اللبن في القبر وسد الشقوق ولكن غفل عن شق منها فنبهه النبي ﷺ إليه ثم قال: «**أما إنها لا تضر ولا تنفع ولكن تقر عين الحي ،وإن العبد إذا عمل عملاً أحب الله أن يتقنه**»[2] أي أن إتقان العمل مطلوب حتى في الأمور ـ قليلة الأهمية التي لا يترتب

---

(١) السيوطي، صحيح الجامع الصغير وزياداته، برقم (٤٩٤٩)، وحسنه الألباني.

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، (١٤٣/١)، قال الألباني وإسناد رجاله موثوقون غير محمد بن عمر وهو الواقدي وهو ضعيف جداً.

على إهمالها ضرر أو فوات نفع، ولكن مراعاة الإتقان حتى في مثل هذه الأمور التافهة يجعل الإتقان عادة فيسهل على العامل التزامه.

والآيات والأحاديث في اتخاذ الحيطة والأخذ بقواعد السلامة كثيرة، وقد ورد الأمر بالحذر مرتين في آية واحدة في سورة النساء ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ۗ﴾ [النساء:١٠٢].

ودلالة الآية على التوازن والاعتدال في الأخذ بإجراء السلامة واضحة.

وقد حفظت كتب الحديث أكثر من مائة حديث صحيح في إجراءات السلامة، أو الأخذ بالحيطة.

ومن جهة أخرى يأمر الإسلام بالتوكل على الله والإيمان بمشيئته والرضا بقدره، والآيات والأحاديث في هذا أكثر من أن تحصر.

ومذهب التوسط والاعتدال في هذا واضح فالإسلام لا يدعو إلى الجبرية وترك العمل احتجاجاً بالقدر ودعوى التوكل على الله، وفي الوقت نفسه يقرر الحقيقة المطلقة أن كل شيء بقدر، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله، وأن الإنسان لا يقوم وحده، - حسب التعبير الغربي - ويدعو المسلم إلى التوكل على الله وطلب المعونة منه سبحانه.

وفي القرآن والسنة تنبيه إلى أن الإيمان بالقدر والتوكل على الله لا يتعارضان ويجب أن لا يتعارضا في حياة المسلم، فيتوكل على الله مع جدِّه في السعي والعمل واحتياطه ضد المخاطر.

مثل الآية الكريمة: ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾[يوسف:٦٧].

وبغض النظر عن اختلاف المفسرين في تحديد الخطر الذي حذره يعقوب عليه السلام من دخول أبنائه جميعاً المدينة من باب واحد،[والذي لا تتوقف العبرة والاستفادة منه على البحث عنه ومعرفته] إلا أن المقصود واضح، وهو أمر النبي الكريم يعقوب عليه السلام أبناءه بأخذ الحيطة وتوقي الخطر بالدخول من أبواب متفرقة، فقوله: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖ﴾ أمر بأخذ الحيطة وتوقي الخطر والتزام قاعدة من قواعد السلامة وقوله: ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ﴾ إيمان بالقدر وتسليم لقضاء الله، وقوله: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ حث على التوكل على الله.

ولما تحدث النبي صلى الله عليه وسلم عن القدر وخشي أن يفهم الصحابة رضي الله عنهم من هذا تبرير التقاعس عن العمل قال: «**اعملوا فكل ميسر لما خلق له**»(١) فالجزء الأول حث على العمل والجزء الثاني تقرير للقضاء والقدر،

(١) رواه مسلم ،كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، برقم (٢٦٦٤).

وقال ﷺ: «**استعن بالله ولا تعجز وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل** »[١].

وعلّم النبي ﷺ أصحابه هذا الدعاء: «**اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل**»[٢]، فالاستعاذة بالله نتيجته الاعتماد عليه والإيمان بمشيئته وقدره، والاستعاذة من العجز والكسل نتيجته العلم بأنهما أمران مكروهان وغير مرضيين من الشارع.

ومثله الدعاء: «**اللهم أني أعوذ بك من الكفر والفقر**»[٣].

إن المسلم الملتزم بإسلامه جاد في العمل حريص على إتقانه يعي أن لا حول له ولا قوة إلا بالله فيطلب عونه ويرضى عن قضائه، فإن حالفه النجاح لم يبطر ولم يتملكه الغرور، ولم يقل: إنما أوتيته على علم عندي، وإنما يحمد الله على معونته وتوفيقه ويقول:«هذا من فضل ربي» وإن مُنِيَ بالإخفاق لم يجزع ويسخط بل يصبر ويرضى بمشيئة الله ويقول: قدر الله وما شاء فعل.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب التعوذ من فتنة المحيا والممات برقم (٦٣٦٧) ومسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب التعوذ من العجز والكسل وغيره، برقم (٢٧٠٦).

(٢) رواه أبو داوود، كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح، برقم (٥٠٩٠) وحسن الألباني إسناده.

(٣) رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، برقم (٢٩٩٩).

ولهذا جاء في الحديث: «**أمر المؤمن كله خير وليس ذلك لغير المؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له وليس ذلك لغير المؤمن**»[(١)].

المسلم الواعي مع إيمانه بقدر الله عليه، يعي أن له حرية الاختيار العملي بين الحركة والسكون، وأنه ليس مسيّراً كالريشة في مهب الريح، لا يملك الإرادة والاختيار على العمل، ويعلم أنه مدعو إلى التوكل على الله وفي الوقت نفسه مدعو إلى الجدّ في السعي لما ينفعه ودفع ما يضره ولا يشعر المسلم بأي تناقض بين الموقفين.

للأسف فإنه في عصور التخلف والانحطاط في تاريخ المسلمين غابت هذه المعاني عن حياة كثير من المسلمين وانحرفت مفاهيمهم عن هذه التصورات الإيجابية فانتشرت تقاليد الدروشة، والانسحاب من الحياة، وأصيبت المجتمعات بالعجز والكسل، وسادت عادات الإهمال والتفريط في قواعد السلامة وعدم النشاط إلى التحسب للاحتمالات، وإلى السعي لمواجهتها، ونسب كل ذلك زيفاً وزوراً إلى التوكل، والإيمان بالقدر، أما في هذا العصر فإن من المبرر الخشية على المسلم من التأثير السلبي للثقافة الغربية، وتصور هذه الثقافة للكون والحياة، حيث في هذا التصور يرى الشخص السبب ولا يرى وراءه الله ويرى النتيجة ولا يرى أمامها الله، وبذلك يتعبد الطريق للفصل بين الأخلاق والأعمال البشرية، أو كما يصور ذلك محمد أسد حيث

---

(١) رواه مسلم،كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله له خير، برقم (٢٩٩٩).

يقول: «ترى التفكير الأوروبي الحديث بينما هو يتسامح بالدين، وأحياناً يؤكد أنه عرف اجتماعي ـ يترك على العموم الأخلاق المطلقة خارج نطاق الاعتبارات العملية، إن المدنية الغربية لا تجحد اللّه البتة، ولكنها لا ترى مجالاً ولا فائدة للّه في نطاقها الفكري الحالي، لقد اصطنعت فضيلة العجز الفكري في الإنسان ـ أي من عجزه عن الإحاطة بمجموع الحياة ـ، وهكذا يميل الأوربي الحديث إلى أن ينسب الأهمية العملية فقط إلى تلك الأفكار التي تقع في نطاق العلوم التجريبية، أو تلك التي ينتظر منها على الأقل أن تؤثر في صلات الإنسان الاجتماعية بطريقة ملموسة، وبما أن قضية وجود اللّه لا تقع تحت هذا الوجه ولا ذاك فإن العقل الأوربي يميل بداءة إلى إسقاط «اللّه» من دائرة الاعتبارات العملية»[1].

(ج) الإيمان بالغيب والسببية العقلية:

ومن مظاهر ذلك جمع الإسلام بين الإيمان بالغيب والسببية العقلية لقد تكرر في القرآن وصف اللّه عباده الصالحين بأنهم يؤمنون بالغيب، وفي الحقيقة فإن جانباً من جوانب الإسلام ـ سواء فيما يتعلق بالعقيدة أم بالأحكام ـ مؤسَّسٌ على الإيمان بالغيب، والمقصود بالغيب هنا هو الغيب الذي مصدره الوحي (القرآن والسنة الصحيحة) وليس الغيب الذي مصدره الأحلام أو الكهانة أو التنجيم أو المأثورات

---

(١) محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق، ترجمة عمر فروخ، ص ٣٦ ـ ٣٧.

الشعبية أو حتى ما يسند إلى أقوال الخيار من الصالحين إذا لم يشهد الوحي لأقوالهم، ففي الوقت نفسه الذي يكون فيه الإيمان بالغيب المستند إلى الوحي ركناً أساسياً في الإسلام بل هو لبه وروحه فإن الإسلام يحرص على رفض الخرافات والخزعبلات والأساطير التي لا يشهد لها المنطق أو التجربة، ويوجه أتباعه للتخلص من آثارها ومظاهرها، والآيات والأحاديث في هذا أكثر من أن تحصر.

أما بالنسبة للسببية العقلية فليس أدل على أهميتها في الإسلام مما حفل به القرآن من الحث على إعمال العقل والتفكير وطلب المعرفة، وليس أدل على عناية الإسلام بالعقل والتفكير مما أشير إليه سابقاً من اهتمام القرآن بمنهج الحكم على الأشياء والأشخاص والآراء، وبناء هذا المنهج على أساسين: العلم وعدم التحيز.

وقد وردت في القرآن ألفاظ العقل والفكر والفقه والذكر ومشتقاتها ١٠٨١ مرة وألفاظ العلم والمعرفة ومشتقاتها ٧٩٣ مرة، وهذا الأمر من الوضوح بحيث يدركه المثقف غير المسلم فعلى سبيل المثال في رحلة محمد أسد الثانية إلى الشرق الأوسط في أوائل العشرينيات من القرن المنصرم ـ وقبل إسلامه ـ كان يعلق على حلقة ذكر كان شاهدها في رحلته الأولى في «سكوتاري» في تركيا فقال: «اتضحت في ذهني معانٍ لم تبدُ لي عندما شاهدت حلقة الذكر في «سكوتاري» كان ذلك الطقس لتلك الجماعة ـ وهي واحدة من جماعات كثيرة شاهدتها في مختلف البلدان الإسلامية ـ لا تتفق مع صورة الإسلام التي كانت تتبلور في ذهني، تبين لي أن تلك الممارسات والطقوس دخيلة على الإسلام من جهات ومصادر غير إسلامية، لقد شابت تأملات

المتصوفة وأفكارهم أفكار روحية هندية ومسيحية، مما أضفى على بعض ذلك التصوف مفاهيم غريبة عن الرسالة التي جاء بها النبي ﷺ، ولقد أكدت رسالة النبي ﷺ أن السببية العقلية هي السبيل للإيمان الصحيح، بينما تبتعد تلك التأملات الصوفية وما يترتب عليها من سلوك عن ذلك المضمون، إن الإسلام قبل أي شيء مفهوم عقلاني لا عاطفي ولا انفعالي، والانفعالات مهما تكن جياشة فهي معرضة للاختلاف والتباين باختلاف رغبات الأفراد وتباين مخاوفهم بعكس السببية العقلية، كما أن الانفعالات غير مضمونة بأية حال»[1].

كما انتبه محمد أسد إلى منزلة السببية العقلية في الإسلام فقد لاحظ بعد إسلامه الفارق بين الإسلام والثقافة الغربية المعاصرة فيما يختص بإهمال هذه الثقافة للمعاني الإيمانية الغيبية، ودوّن هذه الملاحظات: «إن العصور الوسطى أتلفت القوى المنتجة في أوروبة، حيث كانت العلوم في ركود وكانت الخرافات سائدة، والحياة الاجتماعية فطرية خشنة على نحو من الصعب علينا أن نتصوره اليوم، في ذلك الحين أخذ النفوذ الإسلامي في العالم... يقرع الأبواب الموصدة دون المدنية الغربية، وأمام الأبصار المشدوهة، أبصار المفكرين الأوربيين، ظهرت مدنية جديدة، مدنية مهذبة راقية خفاقة بالحياة ذات كنوز ثقافية... وكان أثر هذا النفوذ في أوروبة عظيماً، لقد بزغ مع الاحتكاك بالحضارة الإسلامية نور عقلي في سماء الغرب ملأها بحياة

---

(١) محمد أسد، الطريق إلى مكة، ص ٢٥٣.

جديدة وبتعطش إلى الرقي، إن مجاري الشباب التي كانت تنبع في العالم الإسلامي مكنت خيرة العقول في أوروبة من أن تناضل بعزم جديد ضد تلك السيطرة البعيدة التي كانت للكنيسة المسيحية... ولقد كان لهذا النضال في أول الأمر مظهر خارجي تمثّل في حركات الإصلاح الديني التي ظهرت في وقت واحد تقريباً في البلدان الأوروبية المختلفة، وكانت الغاية منها تكييف طريقة التفكير المسيحي حسب مقتضيات الحياة الجديدة، ولقد كانت تلك الحركات عاقلة حكيمة في السبيل التي سلكتها، ولو أنها لقيت نجاحاً روحياً حقيقياً لاستطاعت أن توجد توفيقاً بين العلم وبين التفكير الديني في أوروبة، ولكن النتائج السيئة التي حققتها كنيسة العصور الوسطى كانت قد أصبحت أبعد أثراً من أن تزال بإصلاح ديني، بإصلاح ما عتم حتى انقلب نزاعاً سياسياً بين أقوام ذوي أغراض دنيوية، وبينما كانت القرون تمضي كانت السلطة الروحية للتفكير الديني المسيحي تضعف شيئاً فشيئاً وفي القرن الثامن عشر أزيلت سيطرة الكنيسة تماماً بفعل الثورة الفرنسية في فرنسا نفسها ثم بآثار تلك الثورة في البلاد الأخرى.

وفي ذلك الحين أيضاً تراءى لنا كما لو أن مدنية روحية جديدة طليقة من استبداد الكنيسة... تتهيأ لها أسباب النمو في أوروبا، ولقد ظهر فعلاً في أواخر القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر للميلاد عدد من أحسن الشخصيات الأوربية وأقواها من الناحية الروحية... ولكن هذا الإدراك الجديد ظل قاصراً على أشخاص قلائل، أما السواد الأعظم في أوروبة فلم يكن يستطيع أن يهتدي إلى الاتجاه

الديني الصحيح بسرعة بعد أن قضى ذلك الردح الطويل من الزمن سجيناً لعقائد دينية لا صلة لها بجهود الإنسان الطبيعية، ومن أجل ذلك رفض السواد الأعظم في أوروبا هذه العقائد ومعها رفض الدين أجمع، ثم إن بدء عصر الصناعة وضجيج التقدم المادي المدهش وجَّهَا البشر نحو منافع جديدة، وهكذا ساهم ذلك كله في إحداث الفراغ الديني الذي تلا ذلك العهد في أوروبة، في هذا الفراغ اتخذت المدنية الغربية اتجاهاً مؤسفاً، مؤسفاً من وجهة نظر أولئك الذين ينظرون إلى الدين على أنه أقوى الحقائق في الحياة الإنسانية.

ولما تحرر العقل الأوربي من عبوديته الأولى للكنيسة تخطى في القرن التاسع عشر والعشرين تلك الحدود، ووطد عزمه تدريجياً على العداء لكل شكل من أشكال السلطان الروحي على الإنسان، ومن ثنايا هذا الخوف الباطن، ولئلا تعود تلك القوى التي تدعي السلطان الروحي مرة ثانية إلى التغلب أقامت أوروبة نفسها زعيماً بكل ما هو ضد الدين مبدئياً وعملياً، لقد رجعت أوروبة إلى إرثها الروماني...

لعل أهم الأسباب التي كانت بها تلك المدنية مناهضة للدين تمام المناهضة في مدركاتها وفي طرقها، وراثة أوروبا للمدنية الرومانية مع اتجاهها المادي التام فيما يتعلق بالحياة الإنسانية وقيمتها الذاتية... وثورة الطبيعة الإنسانية على احتقار النصرانية للدنيا، وعلى كبت الرغبات الطبيعية والجهود المشروعة للإنسان، وقد كانت هذه الثورة ظافرة إلى حد جعل الفرق النصرانية والكنائس مرغمة على أن تلائم شيئاً فشيئاً بين بعض عقائدها والأحوال الاجتماعية والعقلية المتبدلة في أوروبة، وهكذا بدلاً من أن تؤثر النصرانية في حياة أتباعها

الاجتماعية وتبدل فيها ـ كما يقضي الواجب الديني الأول ـ فإنها سكتت عما أقره العرف وكانت في نفسها ستاراً للمشروعات السياسية، ثم إن للنصرانية اليوم في نظر السواد الأعظم معنى شكلياً فقط، كما كانت حالة الآلهة الرومانية، تلك الآلهة التي لم يكن يسمح لها، ولا ينتظر منها أن يكون لها نفوذ حقيقي على المجتمع.

لا ريب أنه لا يزال في الغرب أفراد عديدون يشعرون ويفكرون على أسلوب ديني ويبذلون جهد القانط حتى يوفقوا بين معتقداتهم وبين روح حضارتهم ولكن هؤلاء شواذ فقط، إن الأوربي العادي.. يعرف ديناً إيجابياً واحداً هو التعبد للرقي المادي أي الاعتقاد بأن ليس في الحياة هدف آخر سوى جعل هذه الحياة نفسها أيسر فأيسر. أو كما يقول التعبير الدارج «طليقة من ظلم الطبيعة»، إن هياكل هذه الديانة إنما هي المصانع العظيمة ودور السينما والمختبرات الكيماوية وباحات الرقص وأماكن توليد الكهرباء، أما كهنة هذه الديانة فهم الصيارفة والمهندسون وكواكب السينما وقادة الصناعة وأبطال الطيران، وإن النتيجة التي لا مفر منها في هذه الحال هي الكدح لبلوغ القوة والمسرة، وذلك يخلق جماعات متخاصمة مدججة بالسلاح ومصممة على أن يفني بعضها بعضاً حينما تتصادم مصالحها المتقابلة، أما على الجانب الثقافي فنتيجة ذلك خلق نوع بشري تنحصر فلسفته الأخلاقية في مسائل الفائدة العملية، ويكون أسمى فارق لديه بين الخير والشر إنما هو التقدم المادي، إننا نجد في التبدل الأساسي الذي تخضع له الحياة الاجتماعية في الغرب الآن تلك الفلسفة الأخلاقية المبنية على الانتفاع تبرز للعيان شيئاً فشيئاً، وكل الفضائل التي تتعلق

مباشرة برفاهية المجتمع المادية كالمقدرة الفنية (التكنولوجية) والوطنية والشعور القومي هي اليوم موضع المديح ورفع قيمتها فوق ما هو معقول، بينما الفضائل التي ظلت تعتبر إلى اليوم من جهة قيمتها الخلقية الخالصة كالحب الأبوي والعفاف تخسر من قيمتها بسرعة لأنها لا تهب للمجتمع فائدة مادية محسوسة»[١]، «إن ما نسميه الاتجاه الديني في الإنسان إنما هو النتاج الطبيعي لأحواله العقلية والحيوية، وإن الإنسان لا يستطيع أن يكشف لنفسه غوامض الحياة ولا سر الولادة والموت ولا سر انعدام النهاية والأبد، فإن تفكيره يصطدم بجدران لا تخترق ولكن الإنسان على كل حال يستطيع أن يعمل شيئين: **أولهما**: أن يتحاشى كل محاولة لفهم الحياة بمجموعها، وفي هذه الحال يعتمد على قرائن الحياة الظاهرة وحدها، ويحصر كل استنتاج في نطاقها، وهكذا يصبح قادراً على فهم نتف متفرقة من الحياة تزداد في عددها ووضوحها بسرعة أو ببطء يتفقان مع ازدياد معرفة الإنسان بعالم الطبيعة، ولكن هذا الفهم على كل حال يبقى نتفاً من مجموع تظل الإحاطة به فوق طاقة العقل البشري، هذا هو السبيل الذي تسير فيه العلوم الطبيعية.

أما الإمكان الثاني ـ الذي يمكن أن يوجد بجانب الإمكان العلمي ـ فهو سبيل الدين (الإيمان) إنه يهدي الإنسان في أكثر الأحيان عن طريق الاختيار الوجداني لقبول تفسير الحياة تفسيراً شاملاً مبنياً

---

(١) محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق، ترجمة عمر فروخ، ص ٤٠ ـ ٤٦.

في أكثره على الافتراض بأن ثمة قوة مبدعة تدبر هذا العالم على أمر قد قدر، ولكن الإحاطة به وراء طاقة الفهم البشري... إنه لا يلزم من هذا الرأي أن يمتنع الإنسان من البحث في حقائق الحياة وأجزائها حينما تكشف هذه نفسها للنظر الظاهر، إذ ليس ثمة عداوة أصيلة بين الرأي الظاهر «العلمي» والرأي الوجداني «الإيمان» ولكن الثاني في الحقيقة هو الاحتمال الوحيد في النظر العقلي لإدراك الحياة كلها على أنها وحدة في جوهرها وفي قوتها المحركة وعلى أنها مجموع متزن منسجم، إن التعبير منسجم، وهو الذي يساء استعماله كل الإساءة - مهم جداً فيما نحاوله، لأنه يقتضي اتجاهاً مصاقباً في الإنسان، إن الرجل المتدين يعلم أن كل ما يصيبه أو يحدث في نفسه لا يمكن أن يكون خبط عشواء لا وعي فيه ولا حكمة منه، بل يعتقد أنه نتيجة لإرادة الله الواعية وحدها، وأنه هو نفسه جزء من هذا المنهاج الكوني، وهكذا قدر للإنسان أن يحل الخلاف المرير بين الذات الإنسانية والعالم الواقعي المتكون من الحقائق والمظاهر التي تسمى الطبيعة، إن الإنسان بكل ما في نفسه من التركيب الآلي المعقد، وبكل رغباته ومخاوفه وشكوكه التفكيرية يرى نفسه أمام عالم طبيعي امتزجت رحمته بقسوته، وخطره وأمنه بأسلوب عجيب بعيد عن أن يفسره، وكأنه في ظاهره يعمل على أسس تناقض بناء التفكير الإنساني وتناقض أساليبه، ولم يتح للفلسفة العقلية المحضة ولا للعلوم التجريبية أن تحل هذا التناقض، هنا يتدخل الدين، وعلى ضوء النظر الديني والاختبار نرى أن الذات الإنسانية المفارقة، والطبيعة الخرساء المسلوبة في ظاهرها من التبعة، تجتمعان معاً في

نسبة من الانسجام الروحي، إن الوعي الروحي في الإنسان والطبيعة التي تحيط به وتملؤه أيضاً ليسا وإن اختلفا سوى مظهرين متكاملين للإرادة المبدعة الواحدة بعينها، إن الخير العميم الذي يهبه الدين للإنسان من هذا السبيل إنما هو توكيد على أن الإنسان ما زال ولن يزال جزءاً مقدراً في الحركة الأبدية للخليقة، إنه جزء محدود في نظام غير محدود في هذا الجهاز الكوني، ثم إن الأهمية الإنسانية لهذا الإدراك التي هي الشعور العميق بالسكينة، إنما هو ذلك التوازن بين الرجاء والخوف، التوازن الذي يميز المتدين الحقيقي من الجاهل»[1].

«إن القرآن مملوء بمثل هذه الآيات الكريمة ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [الحديد:١٧]، ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة :٧٣]، ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمًا﴾ [طه: ١١٤]، وفي الحديث الشريف: «**من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة**»،[2] «**فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب**».[3]

---

(١) محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق، ترجمة عمر فروخ، ص ١٧ ـ ١٩.

(٢) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن والذكر، برقم (٢٦٩٩).

(٣) رواه أبو داوود، كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، برقم (٣٦٤١)، وصححه الألباني.

وليس من الضروري أن نستشهد بآيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ للدفاع عن موقف الإسلام من العلم، إن التاريخ يعرف ـ وراء كل إمكان للريب ـ أنه ما من دين أبداً حث على التقدم العلمي كما حث عليه الإسلام وأن التشجيع الذي لقيه العلم والبحث العلمي من الدين الإسلامي انتهى إلى ذلك الإنتاج الثقافي الباهر في أيام الأمويين والعباسيين وأيام العرب في الأندلس، إن الإسلام لم يقف يوماً واحداً سداً في وجه التقدم والعلم: وما من دين ذهب أبعد من الإسلام في تأكيد غلبة العقل وبالتالي العلم على جميع مظاهر الحياة، وإذا نحن عملنا بأركان هذا الدين فإننا لا نستطيع أن نهجر التعليم الحديث في حياتنا.

ولكن الشيء الوحيد الذي لا يستطيع المسلمون أن يتمنوه هو أن ينظروا بعيون غربية وأن يروا الآراء الغربية، إنهم لا يستطيعون أن يتمنوا إذا أرادوا أن يظلوا مسلمين أن يتبدلوا بحضارة الإسلام الروحية تجارب مادية من أوروبا»[1].

«إن الإسلام بوصفه ديناً لا يقوم على عقيدة تصوفية، ولكنه يتقبل دائماً البحث الانتقادي العاقل.... إن الإسلام يحمل الإنسان على توحيد جميع نواحي الحياة وبما أن هذا الدين واسطة لهذه الغاية فإنه يمثل في نفسه مجموعة مدركات لا يجوز أن يضاف إليها شيء ولا أن ينقص منها شيء، كما أنه ليس في الإسلام مجال للخيرة، فإذا قبلنا

---

(١) محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق، ترجمة عمر فروخ، (ص ٦٧ ـ ٦٩).

بتعاليمه كما بسطها القرآن الكريم أو كما أوردها الرسول ﷺ، فيجب علينا أن نقبلها كاملة وإلا خسرت قيمتها، ومن سوء الفهم الأساس للإسلام أن نظنه يخضع تعاليمه للاختيار الشخصي بين العقل والفلسفة العقلية كما يفهمها عادة بعضهم اليوم، إن لعمل العقل فيما يتعلق بالتعاليم الدينية صفة الوازع وواجبه أن يرى أنه لا يفرض على العقل إلا ما يحتمله العقل بسهولة ومن غير لجوء إلى الخدع الفلسفية، أما فيما يتعلق بالدين الإسلامي فإن العقل البعيد عن الهوى قد وثق به مرة بعد مرة ثقة مطلقة من كل قيد... إلى هنا كان عمل العقل في الأمور الدينية ـ كما رأينا ـ عملاً من الرقابة السلبية... ولكن ليس الأمر كذلك فيما يسمونه الفلسفة العقلية إنها لا تكتفي بالتسجيل والمراقبة وإنما تقفز إلى التفكير السلبي، إنها ليست متفهمة ولا مستقلة كالعقل المطلق ولكنها ذاتية مزاجية إلى الحد الأقصى، إن العقل يعرف حدوده الخاصة، ولكن الفلسفة العقلية تتخطى المعقول في ادعائها حصر العالم بجميع خفاياه في نطاقها الفردي الضيق، وهي لا تكاد تسلم في الأمور الدينية بأنه من الممكن وجود أشياء لا يطيقها الفهم الإنساني في زمن ما أو في كل زمن مع أنها في الوقت نفسه تخالف المنطق إلى حد أنها تسلم بهذا الإمكان للعلم»[1].

«نحن نعد الإسلام أسمى من سائر النظم المدنية لأنه يشمل الحياة بأسرها، إنه يهتم اهتماماً واحداً بالدنيا والآخرة، بالروح والجسد، بالفرد والمجتمع، إنه لا يهتم فقط لما في الطبيعة الإنسانية

---

(١) محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق، ترجمة عمر فروخ، ص ٩٨ ـ ٩٩.

من وجوه السمو بل يهتم أيضاً لما فيها من قيود طبيعية، إنه لا يحملنا على طلب المحال، ولكنه يهدينا إلى أن نستفيد أحسن الاستفادة ـ بما فينا من استعداد ـ إلى أن نصل إلى مستوى أسمى من الحقيقة حيث لا شقاق ولا عداء بين الرأي والعمل، إنه ليس سبيلاً من السبل ولكنه السبيل، وإن الرجل الذي جاء بتعاليمه ليس هادياً من الهداة ولكنه الهادي»[1].



(١) المصدر نفسه ،ص ١٠٨.

الخــلاصة

إن الإســلام وهــو يحكــم علاقــة الإنســان بربــه وعلاقتــه بــالمجتمع البشري، ويجمع بين الاستجابة لحاجات الـروح وحاجات الجسـد، بـين العقيـدة والعمـل، بـين العمـل والتوكـل علـى الله والإيمـان بقـدره، بـين الإيمان بالغيب والسببية العقلية، إن الإسلام وهو يجمع بين هـذه الأمـور المتقابلـة في تـوازن دقيـق واعتـدال حكـيم هـو مـا يفسـر رفـض الإسـلام التطرف والتعصب والعدوانية وهو مـا يفسـر أن التسـامح الإيجـابي جـزء من طبيعة الإسلام وجوهره.

السـر في أن التسـامح طبـع سـلوك المسـلمين بقـدر التـزامهم لمـنهج الإسـلام في كـل العصـور وفي كـل الأقطـار هـو مـا يفسـر أن انحـراف بعض المسلمين عن منهج الاعتدال والتوازن شكّل أول إخفاق للمسلمين في تـاريخ الإسـلام وكـان عـاملاً هامـاً في خلـق مـا واجهـه المسـلمون مـن مشاكل فيما بعد وعلى مدى الزمن.

إن العجــز عــن انتهــاج مــنهج الإســلام يمكــن أن يفســر امتــداد الظلاميــة والتطـرف والتعصـب والعدوانيــة في هــذا العصــر في الغــرب والشـرق، بـالرغم ممـا وصـل إليـه الإنسـان مـن نضـج في مجـال الفكـر والعلم وما حققه من إنجاز مذهل في مجال التكنولوجيا والعلم.



الفصل الخامس

إلغاء الطبقية والتمييز العنصري

(١)

في الفقرات السابقة، أشير إلى تسامح الإسلام، ونظرته الإنسانية إلى الحياة وقابليته للتعايش مع الأفكار المخالفة، وأثر هذه القابلية على تحقيق السلام في المجتمع، والاندماج بين عناصره .

والواقع أن التاريخ يكشف في مختلف العصور ومختلف الأماكن عن وجود ظاهرتين في العالم الإسلامي:

الأولى ـ إلغاء الطبقية في المجتمع .

الثانية ـ منح الأديان وأتباعها الحرية في الاعتقاد والعبادة والتمتع بالحقوق المدنية بصورة لا تمنحها أي دولة حديثة للأقليات الموجودة بها.

فيما يتعلق بإلغاء الطبقية نص القرآن على تكريم وتفضيل كل بني آدم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠] .

ونص على أن المعيار الوحيد للتفاضل بين الناس عند الله هو التقوى ولما كان محل التقوى القلب فذلك يعني تحديد مجال التمييز بين الناس في التعامل فيما بينهم.

وقد أكد هذا المعنى النبي ﷺ في وصية من آخر وصاياه في خطبته في حجة الوداع حيث قال: «**أيها الناس إن ربكم واحد وأباكم واحد وأنه لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا**

لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى، أيها الناس إن أكرمكم عند الله أتقاكم »[(١)]، وفي تلك المناسبة كان يعلن إلغاء عدد من تقاليد الجاهلية ومنها التمييز العرقي.

وفي مناسبات أخرى أوضح أن التمييز بين الناس على أساس العرق أو اللون من أمور الجاهلية المنافية للإسلام فقال ﷺ: «**إن الله أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء**»[(٢)] ولما عير أبو ذر رضي الله عنه أحدهم بلون أمه قال النبي ﷺ: «**إنك امرؤ فيك جاهلية**»[(٣)].

وعندما قال أحدهم: يا للأنصار! وقال الآخر: يا للمهاجرين! في مجال التعصب والحمية قال النبي ﷺ: «**دعوها فإنها منتنة**»[(٤)].

---

(١) رواه أبو داوود، كتاب الأدب، باب في التفاخر بالأحساب، برقم (٥١١٦)، والترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الحجرات برقم (٣٢٧٠)، وصححه الألباني.

(٢) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية، ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك، برقم (٣٠)، ومسلم،كتاب الإيمان، باب إطعام المملوك مما يأكل وإلباسه مما يلبس ولا يكلفه ما يغلبه ،برقم (١٦٦١).

(٣) رواه البخاري،كتاب التفسير، باب قوله سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر، برقم (٤٩٠٥)، ومسلم كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالما أو مظلوماً، برقم (٢٥٨٤).

(٤) رواه البخاري، كتاب المناقب، باب ما ينهى من دعوة الجاهلية، برقم (٣٥١٨) ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالما أو مظلوما، برقم (٢٥٨٤).

(٢)

وقد انتبه عدد من كتّاب الغرب لهذه القيمة الإنسانية من قيم الإسلام وأشادوا بها، فعلى سبيل المثال كان المؤرخ البريطاني الشهيرARNOLD TOYNBEE بعد أن ذكر في كتابه Civilization on Trial أنه «بدراسة التاريخ نجد أنه حتى الآن أعاد نفسه حوالي عشرين مرة في إيجاد حضارات من نوع حضارتنا المعاصرة كلها بادت أو انهارت، وحينما ندرس تاريخ هذه الحضارات بالتفصيل نجد ما يشبه النموذج المتكرر لانهيارها وسقوطها»(١) «لقد استيقظنا على حقيقة أن حضارتنا ليست محصنة ضد هذا المصير ولا أدري كيف كان يمكن أن نعمى عن هذه الحقيقة»(٢)، «كل هذه الحضارات المعروفة للمؤرخين الغربيين كلها دون استثناء بادت بسبب الحرب أو الطبقية أو كليهما»(٣).

بعد أن ذكر هذا قال: «إن انعدام الطبقية في المجتمع الإسلامي كان واحداً من الإنجازات الأخلاقية بالغة الروعة للإسلام، وفي عالمنا المعاصر توجد حاجة ملحة Crying Need للإفادة من هذه الفضيلة الإسلامية»(٤).

وقال في كتابه الآخر A Study of History: «إن الأخوة الإسلامية بين مختلف الأعراق ليست مجرد دعوى نظرية بل هي واقع

---

(١) Arnold Toynbee, Givilization on Trial, p.38

(٢) Ibid, p.21

(٣) Ibid, p.23

(٤) Ibid, p.205

عملي في المجتمع المسلم حيث الزنجي المسلم يقف على قدم المساواة مع الأبيض أو الأحمر أو الأصفر وهنا في هذا التصور النبيل، الأخوة البشرية ليست مجرد فرضية بل حقيقة تثبتها اكتشافات العلم الحديث فالعلم الحديث يتقبل إلى أدق التفاصيل التصور الإسلامي للوحدة البشرية»(١).

وقال المستشرق النمساوي المهتدي محمد أسد: «إن النظام الخلقي للإسلام وتصوره للسلوك الخلقي والاجتماعي والشخصي هو - بلا حدود - أرفع وأعظم كمالاً من مثيله في الحضارة الغربية، فالإسلام ألغى الكراهية الإنسانية وفتح الطريق للأخوة والمساواة بين بني الإنسان، ولكن الحضارة الغربية لا تزال عاجزة عن أن تنظر أبعد من الأفق الضيق للشقاق العرقي والقومي، الإسلام لم يعرف قط الطبقية أو حرب الطبقات ولكن التاريخ الأوربي منذ عهد الإغريق والرومان مملوء بالصدام الطبقي والكراهية الاجتماعية»(٢).

وقال المستشرق البريطاني H. A. R. GIBB: «الإسلام لايزال قادراً على أن يمنح خدمة جلّى للهدف الإنساني، إن لدى الإسلام تقليداً رائعاً من التعاون والتفاهم بين مختلف الأعراق، لا يوجد مجتمع آخر كالإسلام كان له مثل سجله في النجاح في أن يوجد في المساواة في المركز الاجتماعي والفرص، في العمل والنجاح مثل هذا العدد والتنوع من الأجناس البشرية»(٣).

---

(١) Arnold Toynbee, A study of History, p.228

(٢) محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق ، ترجمة عمر فروخ، ص٧٢ -٧٣.

(٣) H. A. R. Gibb, Wither Islam, p.379

وجاء في الموسوعة البريطانية ENCYCLOPAEDIA BRITANNICA: «إن العامل الجوهري والأكثر ديناميكية في مجال الأخلاق الاجتماعية التي منحها الإسلام للإنسانية هو المساواة، فكل أعضاء المجتمع المسلم بغض النظر عن العرق أو اللون أو المركز الاجتماعي والاقتصادي أعضاء متشاركون على قدم المساواة في المجتمع»(١).

وقال جوستاف لوبون: «إن العرب (المسلمين) يتصفون بروح المساواة المطلقة وفقاً لنظمهم السياسية، وإن مبدأ المساواة الذي أعلن في أوروبا قولاً لا فعلاً راسخ في طبائع الشرق (المسلمين) رسوخاً تاماً، وإنه لا عهد للمسلمين بتلك الطبقات الاجتماعية التي أدى وجودها إلى أعنف الثورات في الغرب ولا يزال يؤدي... والكتّاب الأوربيون الذين بحثوا عن بعد في شؤون أولئك الأقوام وهم الذين لا يعلم الأوربيون من أمورهم سوى القليل ـ يستخفون بتلك النظم ويقولون إنها أدنى من نظمنا كثيراً، ويتمنون قرب الوقت الذي تستولى فيه أوربا على تلك البقاع. وغير ذلك ما يبديه الباحثون المحققون، وإليك مثلاً ما جاء في كتاب ثمين وضعه العالم المتدين مسيولوبليه الذي هو ممن أجادوا درس أمور الشرق: (صان المسلمون أنفسهم حتى الآن من مثل خطايا الغرب الهائلة فيما يمس رفاهية طبقات العمال، وتراهم يحافظون بإخلاص على النظم الباهرة التي يسوي بها الإسلام بين الغني والفقير والسيد والأجير على العموم، وليس من المبالغة أن يقال الآن إن الشعب

(١) Encyelopaedia Britannica, v.12, p.669

الذي يزعم الأوربيون أنهم يرغبون إصلاحه هو خير مثال في ذلك الأمر الجوهري)»[١].

ونقل M.N.ROY قول دراپير DRAPER: «الإسلام لأول مرة قدم للعالم المساواة الاجتماعية Social equality التي لم تعرف قبل في أي حضارة قديمة، **الإسلام فقط** هو أول من قدم هذا المعنى للمجتمع الإنساني»[٢].

ثم قال: «الإسلام ناصر الحرية والمساواة التي كانت في الحقيقة قد نسيت على أرض الحضارات التي تَغَلَّبَ عليها ،مع أن كثيراً من الديانات والمذاهب الأخلاقية دعت إلى المساواة بين البشر فإن الإسلام وحده فيما يبدو وحتى الآن هو الذي نجح في غرس هذا التصور في تفكير وسلوك المؤمنين به الواعين لحقيقته»[٣].

وعلق المفكر الهندي الشهير SWAMI VIVE KANANDA بقوله:«إن الأدفيتية ADVAITISM التي تنظر إلى البشرية كروح واحدة لم تتطور قط بين الهنادكة، وعلى العكس فإن خبرتي تهديني إلى أنه إن كان هناك دين نجح في جعل هذا التصور أقرب إمكانية للتطبيق فإنه الإسلام والإسلام وحده. لذلك فإني على تمام الاقتناع أنه دون وجود الإسلام فاعلاً فإن الفدانتية

---

(١) جوستاف لوبون، حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر، ص ٣٩١.

(٢) M. N. Roy, Histoical Role of Islam, p.1

(٣) Ibid, p.41

VEDANTISM مهما بدت لنا رائعة وجميلة فإنها تكون دون أية قيمة عملية للمجتمع البشري»[١].

ويقول المفكر الهندي SIR.P.RAMAIWAMYLYER.

«أعتبر وكل العقلاء يوافقونني على ذلك أن الإسلام لا غير هو العقيدة الديمقراطية في العصر الحاضر. أنا هندوكي ومتشدد في الالتزام بديني، ومع ذلك أجدني مجبراً على الاعتراف أن ديني بالرغم من فلسفته الأساسية قد فشل في أن يضع موضع التطبيق وحدة الإنسانية. لا يوجد دين مهما كانت نظرياته قد طبق عملياً الفكرة الأساسية لمساواة البشر أمام الله غير الإسلام، إن الإسلام فقط هو الذي لم يكن ليسمح بظهور مشكلات التمييز التي وجدت من قبل البوير في جنوب أفريقيا، رودسيا البيضاء أو أستراليا، أو في الولايات الجنوبية في الولايات المتحدة الأمريكية، وحتى في إنجلترا في الطبقات المتعددة في المجتمع»[٢].

(٣)

ما أشير إليه في الاقتباسات السابقة من اختلاف النظرة إلى «الطبقية» بين الإسلام والثقافة الغربية يؤيده أن مفكري النهضة

---

(١) Swamy Vinekinanda Letters of Swamy kononda p463 (what they say about Islam). Islamic Cultural Centre Website.

(٢) Sir C.P. Rama swamy lyer, Estern Times, 22 December, (1944, Ibed)

الأوربية ومفكري الثورة الفرنسية قد نجحوا في خلق شعارات أصبحت ترددها شعوب أوروبا وأمريكا عن حرية الإنسان، وحقوقه والمساواة بين الناس أمام القانون وقد طبقت هذه الشعارات عملياً في داخل المجتمعات الأوربية والأمريكية، وأصبحت من أساسيات التربية لكن هذه الشعارات أخفقت في أن تفرض نفسها في علاقة الغرب مع الغير.

لا أحد ينكر في هذا المجال أثر الجذور الثقافية الأوربية منذ عهد الإغريق والرومان حينما كان أرسطو يعد الشعوب الأخرى عبيداً بالطبيعة Natural Slave وحينما كان العدل الروماني عدلاً للرومانيين وحدهم وحينما كان اليونانيون والرومانيون ينظرون إلى أنفسهم على أنهم هم المتمدينون أما من كان أجنبياً عنهم وعلى الأخص شعوب البحر الأبيض المتوسط فكانوا يطلقون عليهم لفظ «البرابرة»، ويوضح هذا المعنى محمد أسد بقوله إنه «من ذلك الحين والأوربيون يعتقدون أن تفوقهم العنصري على سائر البشر أمر واقع، وإن احتقارهم إلى حد بعيد أو قريب لكل ما ليس أوربياً من أجناس البشر، قد أصبح إحدى الميزات في الحضارة الغربية»[١].

ويقول توماس. س. باترسون في كتاب (الحضارة الغربية INVENTING WESTERN CIVILISATION): «إن مصطلح الحضارة صيغ في أوروبا في سياق التوسع الاستعماري الأوروبي فيما وراء البحار، وإن المصطلح جرى على ألسنة النخبة في الدول الغربية، واستهدفوا التمييز بين أنفسهم والشعوب التي التقوا

---

(١) محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق، ترجمة عمر فروخ، ص ٥٠.

بها، فما أن انتقلوا إلى ما وراء البحار حتى استخدموا التصنيفات الفئوية الشائعة آنذاك مثل عبارات: المتوحشين والهمج والكفار والبرابرة... إلخ لوصف أبناء الشعوب الذين التقوا بهم... وأثناء الانسياح الأوربي الاستعماري عامل المستعمرون في كثير من الأحيان الشعوب الأخرى كما لو لم يكونوا بشراً، وارتكبوا نتيجة لذلك ضد هذه الشعوب فظاعات وحشية»[١].

إن هذه الفظاعات الوحشية التي ارتكبها الأوربيون ضد السكان الأصليين التي أشار إليها باترسون هي ما حمل الراهب PARTOLOME DELA CASAS في النصف الأول من القرن السادس عشر، إلى اختراع اصطلاح «الطفل بالطبيعة» Natural Child بدلاً من اصطلاح «العبد بالطبيعة» وكان ذلك بقصد الدفاع عن شعوب العالم الجديد محتجاً بأن هؤلاء بشر، وهم وإن كانوا متخلفين فهم قابلون بالتعليم والدعوة للتحضر، ولأن يتحولوا إلى مسيحيين[٢]، ولكن هذا الاصطلاح الأخير Natural Child ساعد في استمرار فكرة التفوق العنصري، وحينما شاع شعار المصير الواضح Maniest Destiny في الولايات المتحدة جرى تحت هذا الشعار ـ كما يقول توماس.س. باترسون ـ «تُصُوِّرَ التوسع غرباً بأنه تحقيق لمشيئة ربانية على أيدي أبناء شعب مختار ومتفوق عرقياً ـ المسيحيين البيض الأنجلوسكسون ـ إذ اختارهم الله للانتصار على

---

(١) توماس، س، باترسون، الحضارة الغربية، ترجمة شوقي جلال، ص ٢١.

(٢) Z. Sardar & M.W. Davies, Why do people hate America? U.K. 2002, p.154

الطبيعة ونقل الحضارة إلى القبائل التابعة المقيمة عند الحدود وفي داخل الأقاليم الهندية، واعتقد كثير من المفكرين في غرب أوروبا وفي الولايات المتحدة الأمريكية أن تقدم الحضارة نتاج العملية الطبيعية للتطور الاجتماعي.. ودافع التطوريون الاجتماعيون من أمثال هربرت سبنسر في إنجلترا، ولويس هنري مورجان في الولايات المتحدة الأمريكية بأن كلا العالمين الطبيعي والبشري يخضعان لقوانين التطور ذاتها، وهي قوانين لا تقبل التغيير، بَيْدَ أنهم اعتقدوا بأن التطور غير متساو بمعنيين اثنين فالمجتمعات والسلالات المختلفة تتقدم بسرعات مختلفة وأن تطور مجتمع بذاته يختلف باختلاف مراحل تطوره... واستخدموا هذا الزعم لتأسيس ودعم زعم آخر أن هناك ترتيبات هرمية اجتماعية وثقافية وعرقية»[1]، ويقرر باترسون: «حظيت آراء سبنسر بنفوذ كبير جداً في كل من الولايات المتحدة وأوروبا، وبدا هنا نوع من المصادقة العلمية على المعتقدات التي اعتبرت الفوارق بين الأفراد والمجتمعات والأعراق والأمم على أنها فوارق ضاربة بجذورها في الطبيعة وفسرت هذه الأيدلوجيا التي عرفت باسم «الداروينية الاجتماعية» العالم في ضوء «البقاء للأصلح». وكان لها نفوذها الكبير فيما بين ثمانينيات القرن التاسع عشر والحرب العالمية الأولى، وأعيد إحياؤها ثانية في سبعينيات القرن العشرين تحت اسم «البيولوجيا الطبيعية».. اعتقد «الداروينيون الاجتماعيون» أن جميع الموجودات ابتداء من الكائنات العضوية الحيوية حتى المجتمعات

---

(١) توماس، س، باترسون، الحضارة الغربية، ترجمة شوقي جلال، ص ٣٤.

البشرية تقدمت طبيعياً من الأدنى إلى الأرقى، وافترضوا أنواعاً من التراتيبات الهرمية لتصوير أو تمثيل العلاقات التطورية للكائنات العضوية الحية أو المجتمعات البشرية، ونجد في المنطق الدوري لآرائهم أن الأشكال (الأصلح) تحتل قمة هذه التراتيبات، وجدير بالذكر أن سفيراً للولايات المتحدة لدى إنجلترا أعلن في مطلع العقد الرابع من القرن التاسع عشر أن «العرق الأنجلوسكسوني الذي انحدرنا منه نحن الأمريكيين لم يتجاوزه أحد في تاريخ الوجود»[1].

(استخدمت أيدلوجيا «الداروينية الاجتماعية» لإضفاء مشروعية علمية على البنية الطبقية القائمة.. واستخدمها الأمريكيون في الولايات المتحدة لتبرير مزاعم تفوق العرق الأنجلو أمريكي ومشاعر معاداة الهجرة إلى الشمال، وكذا لتبرير السياسات العنصرية في الجنوب، وبررت أيضاً النداءات من أجل شن حروب أمبريالية)[2].

وفيما يتعلق بالولايات المتحدة الأمريكية خاصة يزيد باترسون الفكرة إيضاحاً بقوله: «بعد عام ١٩٤٥ استخدمت الولايات المتحدة حججاً ودراسات هي رجع صدى لحجج ودراسات «الداروينين الاجتماعيين»... وبدأت الولايات المتحدة تقدم نفسها باعتبارها المركز وقوة الدفع للحضارة الغربية... واعتقد كثير من الرسميين في حكومة الولايات المتحدة أن رسالتهم ليست قاصرة على الحفاظ على الحضارة بل وأيضاً العمل على نشرها إلى أبعد أركان المعمورة واستلزم هذا أن

---

(١) توماس، س، باترسون، الحضارة الغربية، ترجمة شوقي جلال، ص ٣٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٧.

يتوافر لدى جميع الأمريكيين تقييم وتقدير عميقان للرأي القائل إن مجتمعهم ليس فقط مجتمعاً استثنائياً فريداً بل وإن أبناء هذا المجتمع أيضاً هم «شعب مختار» اختاره الرب لمهمة إنجاز رسالته سبحانه لنشر الحضارة»[١].

ويلخص باترسون تقريره بقوله: «تبين لنا أن مؤيدي وأنصار الحضارة الغربية عمدوا منذ بداية القرن السابع عشر إلى النظر إلى مجتمعاتهم باعتبارها أكثر تقدماً من مجتمعات العالم القديم، والتمسوا تحديد وتمييز القوى المحركة المسؤولة عن تطور المجتمع الرأسمالي، وما فتئت النظريات الرائجة الآن عن الحضارة.. تؤكد على قسماتها الإيجابية ـ أي التحسن المادي والتقدم والحداثة ـ وعلى الأوضاع التي تدعمها، ولكن القسمات السلبية ـ مثل: تزايد الاغتراب الروحي والافتقار الاقتصادي لأعداد كبيرة من الناس ـ فقد صوروها على أنها ظواهر عابرة يمكن القضاء عليها... ولكن ليس الجميع رأوا صعود الحضارة في ضوء إيجابي، ذلك أن كثيرين من المفكرين الغربيين انتقدوا الحضارة والدولة معاً، لقد كشفوا عن القسمات السلبية والتناقضات، ومن ثم ازداد شكهم باطراد بشأن منافع الحضارة الغربية التي قيل إنها جلبتها معها منذ بزوغها»[٢].

ويعبر المؤلفان M.W.DAVIES, Z.SARDAR في كتابهما Why Do People Hate America عن المعنى السابق بقولهما:

(١) توماس، س، باترسون، الحضارة الغربية، ترجمة شوقي جلال، ص ٣٨.

(٢) توماس، س، باترسون، الحضارة الغربية، ترجمة شوقي جلال، ص ٤٣.

«لقد كان المقصود من اختراع دلا كاساس اصطلاح (الطفل بالطبيعة) في حالة الهنود أن يكونوا تحت الحماية، والتعليم، والنقل إلى المسيحية وإلى الحضارة، والصعوبة في مثل هذه الحالة أنه لا يوجد في هذا الإطار الاستعماري «اختبار للنجاح» كما أنه من الصعب افتراض أن تتم تربية إنسان من قبل قاتليه ومضطهديه ومستغليه، إن اصطلاح «الطفل بالطبيعة» اصطلاح مؤدب مؤسس على الاستعلاء العنصري حتى لو كان قد صدر عن رجل دين شفوق أراد أن يقاوم به فظاعات الإبادة البشرية التي كان يرتكبها معاصروه تجاه السكان الأصليين لأمريكا، إن فلسفة «الطفل بالطبيعة» في الحقيقة عاشت طويلاً في الوعي الأوربي، بل لا تزال معنا حتى الآن، إنها دائماً لب المحاضرات التي تلقى على البلدان النامية في الموضوعات المتنوعة من السياسة الاقتصادية إلى حقوق الإنسان من قبل البلدان المتقدمة التي نمت وأثرت من الاستعمار، ولا تزال تجني الأرباح المشروعة وغير المشروعة من نظام الاقتصاد العالمي غير المتكافئ الذي خلقته»[(١)].

(٤)

في عام ١٩٦٤ صدر في الولايات المتحدة قانون الحقوق «المدنية» الذي ألغى التمييز العنصري، وفي الربع الأخير من القرن العشرين ألغي التمييز العنصري في رودسيا وجنوب أفريقيا، وبهذا انتهى الوجود الرسمي والقانوني للتمييز العنصري.

---

(١) Z. Sardar & M.W. Davies, Why do people hate America? U.K. 2002, p.154

ولكن هذا لا يعني أن التمييز العنصري اختفى عملياً في الغرب فأثره على الفكر والسياسة والإعلام لا يزال قوياً وفاعلاً ولا يزال صادقاً على هذا الواقع ما قاله أرنولد توينبي قبل نصف قرن من أن «الحضارة المعاصرة في حاجة ملحة إلى أن تتعلم من إنجاز الإسلام في إلغاء التمييز العنصري بين البشر».

ليس من الغريب أن ترد في خطاب السياسيين وكتابة الكتّاب عبارة «العالم المتحضر» يشار بها عادة إلى شعوب أوروبا وأمريكا الشمالية، وتعني بدلالة مفهوم المخالفة أن غيرهم من الشعوب «عالم غير متحضر».

كما أنه ليس من الغريب أن تكون الصورة النمطية للشعوب الأخرى في ذهن الأوروبي أو الأمريكي الشمالي صورة سلبية، فعلى سبيل المثال في عام ١٩٨٠ أظهر الاستطلاع الذي أجري في الولايات المتحدة الأمريكية عن الصورة النمطية للعربي المسلم نسب الإحصاء كما يلي: بربري قاس وعنيف ٤٤٪ خائن ومكار ٤٩٪ متعطش للدم ٥٠٪ معاد للنصرانية والسامية ٤٠٪ [١].

وعندما نستحضر في الذهن أن الولايات المتحدة بلد متعدد الأعراق والثقافات حتى ليسمى بلد المهاجرين ومن ثم كان من المفروض أن يكون أكثر تسامحاً مع الآخر، فإن أخذها نموذجاً للغرب في تمثل الصورة السلبية للمسلم لا يكون بعيداً عن الواقعية والموضوعية .

---

(١) Katherne Bullock, Rethinking Muslum Women and the veil, USA, 2003, p.227

من الإنصاف القول: إن هذه الصورة النمطية للعرب أو المسلمين التي تظهرها الاستطلاعات لا تعني أنها تماماً الصورة النمطية للشعوب الأخرى والأديان غير الإسلام في ذهن الأوروبي والأمريكي إذ لاشك أن الصورة النمطية للعرب والمسلمين ساهمت في نشأتها موروثات ثقافية وتاريخية خاصة، كما كانت أيضاً نتيجة لتأثير الإعلام بوسائله المختلفة.

ولا شك أن الأدبيات الأوربية والأمريكية غنية بالأفكار التي ترفض التمييز العنصري، وتقرر مبادئ المساواة بين البشر.

ولكن ما تقدم يدل بلا شك أيضاً على أن الثقافة الغربية أخفقت في أن تحقق ما نجح فيه الإسلام من إلغاء الوعي بالتمييز العنصري بصفة كلية.

والمقارنة بين الثقافتين ـ الإسلامية والغربية ـ في هذا المجال، وفي ضوء الحقائق السابقة لا تدل بأية حال على أن التسامح خصيصة غربية، أو أن عدم التسامح يتفق مع طبيعة الإسلام.



الفصل السادس

قبول التعددية الثقافية

(١)

في الدول الحديثة تسود فكرة مبدأ السيادة، ولذا فليس من الممكن أن تمنح الدولة الحديثة الأقليات فيها ما منحه الإسلام في عصوره المختلفة من حريات وحقوق للأقليات الخاضعة لسلطان المسلمين التي تعتنق أدياناً وثقافات مخالفة، ولهذا فليس من العدل أن توصف أي دولة حديثة بأنها دولة تعادي التعددية بمجرد أنها لم تمنح الأقليات فيها ما منحه الإسلام في سلطانه للطوائف غير المسلمة من الحق في الاستقلال القانوني أو القضائي، وحق الاستثناء من القانون الجنائي العام في الدولة الإسلامية .

وليس من العدل أن توصف أي دولة حديثة بعدم التسامح بمجرد هذا السلوك.

ولكن قبول الإسلام ديانةً وتاريخاً منح الأقليات الإثنية التي تكون تحت سلطانه تلك الحريات والحقوق دليل منطقي على طبيعة الإسلام في صلته بالتسامح أو التعصب ومدى (قابليته) للتعددية ومدى قدرته على التعايش مع الأفكار والثقافات المخالفة.

ومما يزيد الأمر وضوحاً ودلالة صفة الاستمرارية لهذه المعاملة إذ كانت دائماً هي الطابع المميز للدولة الإسلامية على مدى القرون في حالة القوة والضعف، وحالة التقدم والتخلف، وفي أوقات ازدهار الحضارة وتراجعها.

في كل مكان وفي كل وقت تمتعت الأقلية الإثنية في ظل سلطان الإسلام بالحرية الكاملة في ممارسة دينها وعباداتها، وفي استمرارها في استخدام لغتها وعاداتها، وطرق تربية أبنائها كما بقيت لها الحرية في الاستقلال بقوانينها وقضائها و استثنيت من القانون الجنائي العام الإسلامي فلم يعتبر جريمة في حقها ما يحكم بإباحته نظامها الديني والخلقي وإن كان القانون الجنائي العام يعتبره جريمة.

وقد لفتت هذه الظاهرة أنظار المؤرخين غير المسلمين وحتى المتعصبين منهم ضد الإسلام، فسجلوها في كتبهم حقيقة من حقائق التاريخ سيرى القارئ فيما يأتي نماذج من شهاداتهم.

(٢)

لقد نشأت هذه الظاهرة الإنسانية والحضارية مع الإسلام منذ لحظة ميلاده.

فعندما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة وأنشأ الدولة الأولى للإسلام كان سكان المدينة مجتمعاً تعدديّاً متنوع الثقافة والدين، كان في المدينة المسلمون من الأنصار سكان المدينة الأصليين، والمهاجرين الذين قدموا إليها من قريش وغيرها، وكان فيها مشركون بقوا على دينهم، وطوائف من اليهود.

فكان من أول الأعمال التي تمت كتابة النبي ﷺ عهداً بين الفئات المختلفة في المجتمع ضمن المساواة في الحقوق وأمام القانون للفئات المختلفة وعلى سبيل المثال كان من نصوص هذا العهد «وأن من تبعنا من اليهود فإن له النصرة والأسوة غير مظلومين ولا متناصر

عليهم، وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، ومواليهم وأنفسهم إلا من ظلم أو أثم فإنه لا يوتغ (يهلك) إلا نفسه، وأن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف»، وعدد كل قبائل اليهود المتحالفة مع بطون الأوس والخزرج قبيلة قبيلة ثم ذكر «أن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وأن النصر للمظلوم»[(١)].

واعتبر بعض الكتاب المعاصرين هذا العهد أول وثيقة دستورية في العالم.

واستمر إعمال نصوص هذه الوثيقة بدقة بالرغم مما هو متوقع من وجود نزاعات تظهر في العلن، وجدال ديني الصبغة، ومساجلات كلامية، سمح بها شعور الفئات المختلفة بمدى المجال الواسع الذي أعطي لحرية القول.

وكان هذا الأمر يصل أحيانا إلى أذى الرسول ﷺ بالقول وأذى المؤمنين وإلى السخرية بالدين، وقد سجل القرآن هذا في آيات متنوعة المضمون مثل قوله تعالى ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ ﴾ [النساء: ٤٦]، ﴿

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٤٥٤)، و د. أكرم العمري، السيرة الصحيحة، (١/ ٢٨٤).

أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٧٥ -٧٦]. ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ [المائدة: ٥٨]. ﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ ﴾ [البقرة: ١١١]. ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [البقرة :١٣٥]. ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ١٤٢]. ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ٧٢ -٧٣]. ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ ﴾ [آل عمران: ١١١]. ﴿وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ ﴾ [آل عمران: ١١٨].

وقد نُهيَ المؤمنون عن المشاركة في مجالسهم التي يدور فيها الكلام بالكفر بآيات الله، والسخرية من الإسلام قال تعالى: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ ﴾ [النساء: ١٤٠].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [القصص: ٥٥].

وكان النبي ﷺ على رأس السلطة السياسية يتبع هدى الله وأمره فيقابل ما يصدر منهم من أذى بالصبر والحلم، قال الله تعالى: ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة: ١٣].

وتحفل السيرة الكريمة بمواقف عديدة توضح تطبيقياً هذه المعاني.

كان ما تقدم هو دائماً هدي النبي ﷺ وأصحابه، فلم يستعمل العنف إلا بعد ما انتقل اليهود من الأذى بالكلام إلى الأذى بالفعل ونقضوا العهد فحاربهم طائفة بعد طائفة.

وكان النبي ﷺ في نقدهم أو حربهم يتفادى التعميم في الحكم عليهم قولاً أو فعلاً، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة في هذا المعنى مثل: ﴿ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٣]، ﴿ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ﴿ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٦٦]، ﴿ وَمِنْ

أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَادُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ﴾ [آل عمران: ٧٥].

وكذلك عندما يعاقبهم - على جرائمهم - يقتصر بالعقاب على مرتكبي الجرم دون غيرهم ممن يشاركهم في الدين والثقافة فعندما قاتل بني قينقاع لم تتغير معاملته لغيرهم من طوائف اليهود، وكذلك الحال عندما قاتل بني النضير وبني قريظة، وكان في المدينة غير هذه الطوائف يهود آخرون بقوا في المدينة يتمتعون بمعاملة التسامح نفسها من الرسول ﷺ ثم من المسلمين، وحين تُوفي رسول الله ﷺ كان منهم من لا يزال باقياً في المدينة يزاول التجارة أو الزراعة أو المهن كما تشهد بذلك الأحاديث الصحيحة.

كان اليهود في المدينة في العصر النبوي يستخدمون لغتهم، ويقيمون صلواتهم في معابدهم، ويعلمون أولادهم دياناتهم في مدارسهم، دون أن يضاروا في ذلك أو تقيد حريتهم، وأعطى لهم الحق بالاستقلال بقضائهم في المنازعات التي تقع بين أفراد مجتمعهم، وكانوا أحياناً يختارون التقاضي إلى النبي ﷺ فيحكم بينهم بالعدل تنفيذاً لأمر الله، ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [المائدة: ٤٢].

ومن الحوادث العديدة المميزة عن طبيعة التسامح الإسلامي في العصر النبوي **نختار حادثتين** ونشير إليهما لأن لهما **دلالة خاصة** في هذا المجال:

(**الحادثة الأولى**) قال ابن القيم رحمه الله " قال ابن إسحاق : وفد على رسول اللّه ﷺ وفد نصارى نجران بالمدينة فحدثني محمد بن جعفر بن الزبير قال لما قدم وفد نجران على رسول اللّه ﷺ دخلوا عليه مسجده بعد صلاة العصر فحانت صلاتهم فقاموا يصلون فقال رسول اللّه ﷺ دعوهم فاستقبلوا المشرق فصلوا صلاتهم " [١].

(**الحادثة الثانية**) أن درعاً سُرِقَت، وكان الاتهام بالسرقة يدور بين مسلِمَيْن ويهودي، وبحكم الطبيعة البشرية كان المسلمون يحبون أن يثبت الاتهام على اليهودي لا المسلِمَيْن، وسرت الأحاديث والإشاعات في مجتمع المسلمين بذلك، فأنزل اللّه سبحانه تسع آيات من سورة النساء في تبرئة اليهودي، وفي عتاب المسلمين حين تكلموا في هذه القضية استجابة للعاطفة وليس استجابة للعلم والدليل[٢].

وقد تقرر النظام في علاقة الحكومة الإسلامية بأهل الذمة بكتاب النبي ﷺ لأهل نجران النصارى، وتضمن النص الآتي: «ولنجران وحاشيتها جوار اللّه وذمة محمد النبي رسول اللّه على أموالهم وأنفسهم وأرضهم وملكهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم، (أو عبادتهم) وبيعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير لا يغير أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته وليس

(١) ابن القيم، زاد المعاد، (٦٢٩/٣)، قال محقق الكتاب رجاله ثقات، لكنه منقطع.

(٢) انظر تفسير الطبري (١٨٣/٩ - ١٩٠) وتفسير ابن كثير (٤٠٥/٢)، قال محقق تفسير ابن كثير، دار طيبة للنشر والتوزيع، وإسناده مسلسل بالضعفاء.

عليهم ريبة ولا دم جاهلية ولا يحشرون ولا يعشرون ولا يطأ أرضهم جيش ومن سأل منهم حقاً فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين»[(١)].

ظل هذا النظام في العلاقة بين السلطة الإسلامية، والأقليات غير المسلمة سارياً بعد وفاة الرسول ﷺ، فكان المسلمون في فتوحهم وامتداد سلطانهم يضمنون دائماً تعهدهم لأهل البلاد التي يفتحونها الالتزام بموجبات هذا النظام، من حماية للحرية الدينية والمعابد، و للثقافة والعادات وللمجتمع ومؤسساته، واستمر هذا الأمر إلى نهاية الخلافة العثمانية.

وبالرغم من تحول العالم الإسلامي إلى دول حديثة تأخذ بمبدأ السيادة إلا أن تقاليد التسامح الإسلامي تجاه الأقليات غير المسلمة ظلت في أغلب الأحوال مرعية.

لقد استثنيى (مركز الإسلام) من الأرض التي امتد إليها السلطان السياسي للمسلمين، أي استثنيى من قبول الوجود الدائم للأديان الأخرى المخالفة للإسلام، ويحدد الفقهاء عادة هذا المركز بمكة ومخاليفها، والمدينة ومخاليفها، واليمامة ومخاليفها، وذلك يشمل مجموع الأرض التي تضمها الحدود الحالية للمملكة العربية السعودية تقريباً .

(١) رواه البخاري ،كتاب الجنائز، باب ما جاء في قبر النبي ﷺ وأبي بكر وعمر، برقم (١٣٩٢).

فهذا المركز حرم فيه الوجود الدائم لغير الإسلام سواء في ذلك الأشخاص والمؤسسات والمنشآت، ووقع هذا عملاً بالأحاديث الشريفة ومنها وصية الرسول ﷺ بذلك عند موته.

وقد روعي هذا الحكم بعد وفاة الرسول ﷺ في عهد الخلفاء الراشدين ومن بعدهم حتى وقتنا الحاضر.

والمعنى في الاستثناء واضح إذ إن هذا الجزء من أرض العالم الإسلامي هو قبلة المسلمين ومركز توجهم وما يقتضيه اضطلاعه بما ينبغي أن يكون له من دور في القيادة الدينية للمسلمين.

يوضح ذلك اجتماع مشاعر المسلمين كافة على هذا الأمر وإنكارهم لكل ما يمس به (غير بعيد عن الذاكرة المظاهرات الصاخبة المعبرة عن غضب المسلمين بعدما عرضت أحدى الفضائيات فيلماً مزيفاً كان يظهر صور جنود غير مسلمين في مكة المكرمة ، وذلك أثناء حرب الخليج عام ١٩٩٠ م).

وفي منطقة الحرم داخل هذا المركز يحرم بنص القرآن الكريم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةً فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[سورة التوبة٢٨] حتى الوجود غير الدائم لغير المسلمين.

على أن استثناء هذا الجزء الصغير من الأرض الواسعة التي امتد إليها حكم المسلمين، أي من حدود الصين إلى جنوب فرنسا ومن شرق اندونيسيا إلى وسط أوربا هو استثناء يقرر القاعدة ولا ينقضها ،

فلا يعتبر هذا الحكم مناقضاً للتوجه الإسلامي العام في التعايش مع الأديان الأخرى وإنما تنبه صفة الاستثناء في هذه المسألة المسلمين وبخاصة سكان هذا الجزء من الأرض إلى ما يجب عليهم من احترام مقتضى هذا الاستثناء وعدم الإخلال به في أي وقت وفي أي حال.

إن هذا الحكم لو لم يكن على درجة عالية من الأهمية لما استثني من اتجاه عام ساد التاريخ الإسلامي في كل أدواره بالرغم من الانحرافات التي حدثت للمسلمين وتمثلت في تخليهم عن عدد من الاتجاهات الشرعية الأخرى.

ولو لم يكن على درجة عالية من الأهمية لما اهتم بالوصية به الرؤوف بنا والحريص علينا العزيز عليه ما يعنتنا في الحال التي كانت نفسه الكريمة تفارق جسده ﷺ وجزاه عنا أفضل ما جزي نبياً عن أمته.

(٣)

لقد سميت الأقليات غير المسلمة تحت سلطان الدولة الإسلامية " أهل الذمة " تذكيراً بأن لهم ذمة الله وتأكيداً على حماية حقوقهم وحرياتهم التي منحها الإسلام وضمنتها العهود التي يكتبها لهم الفاتحون.

ونظراً لمعرفة القادة المسلمين بالطبيعة البشرية وأن الأقليات معرضة للتجاوز على حقوقها أو حرياتها من قبل السلطة أو قوة الأغلبية فقد حرص القادة دائماً في تعليماتهم للمسؤولين التنفيذيين على التوصية الخاصة بأهل الذمة وبحمايتهم من الظلم أو انتقاص حقوقهم

وهم بذلك يتأسون بالنبي ﷺ الذي صحت عنه الأحاديث بالتوصية بأهل الذمة، وبمثل ما رواه البخاري من وصية عمر بن الخطاب رضي الله عنه «أوصي الخليفة من بعدي بذمة الله وذمة رسوله ﷺ أن يوفي لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم وأن لايكلفوا فوق طاقتهم».[(١)]

بلا شك كانت تقع حوادث ظلم لأهل الذمة من ذوي النفوذ الجائر بين وقت وآخر ولكنها كانت دائماً موضع الرفض من الضمير الخلقي للمجتمع المسلم، وعلى كل فليس هناك ما يدل على كونها أكثر أو أشيع من حوادث الظلم التي تقع من السلطات الجائرة على المسلمين أنفسهم.

كان أهل الذمة في الدولة الإسلامية يتميزون عن مواطنيهم المسلمين بالتزامهم بدفع الجزية، ولكن هذه الجزية في الغالب لا تصل إلى مقدار الزكاة الواجبة على المسلمين، وهي إنما تفرض على القادرين على الحرب المؤهلين لها فلا تفرض على النساء والأطفال والرهبان كما لا تفرض على العجزة والفقراء، وهي تجبى مقابل حمايتهم والدفاع عنهم، وذلك لأن من غير العدل ولا من المنطق أن يفرض عليهم المشاركة في الجهاد لدفع العدو الخارجي، ولكنهم كانوا إذ اشتركوا في الجهاد وضعت عنهم الجزية ويحفظ التاريخ سوابق تطبيقية لهذا المعنى، ففي كتاب العهد الذي كتبه سويد بن مقرن رضي الله عنه لأهل دهيستان وجرجان (أن لكم الذمة وعلينا المنعة «الحماية» على أن عليكم من الجزاء في كل سنة على قدر طاقتكم

---

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب قصة البيعة، برقم (٣٧٠٠).

على كل حال، ومن استعنا به منكم فله جزاؤه «جزيته» في معونته عوضاً عن جزائه ولهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وشرائعهم ولا يغير شيء من ذلك)[1].

وفي كتاب عتبة بن فرقد لأهل أذربيجان «هذا ما أعطى عتبة بن فرقد عامل عمر بن الخطاب أمير المؤمنين أهل أذربيجان سهلها وجبلها وحواشيها وشعارها وأهل ملتها لهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم على أن يؤدوا جزية على قدر طاقتهم ومن حشر منهم في سنة (أي انضم لجيش المسلمين) وضع عنه جزاء تلك السنة»[2].

وفي عهد سراقة بن عمرو رضي الله عنه لأهل أرمينية «هذا ما أعطى سراقة بن عمرو... سكان أرمينية والأرض أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وملتهم أن لا يضاروا ولا ينقصوا وعلى أرمينية والأبواب الطراء منهم والقناء ومن حولهم فدخل معهم أن ينفروا إلى كل غارة وينفذوا لكل أمر ناب.... على أن يوضع الجزاء عمن أجاب إلى ذلك ومن استغنى عنه منهم وقعد فعليه مثل ما على أهل أذربيجان من الجزاء فإن حشروا وضع ذلك عنهم»[3].

كما يحفظ التاريخ القصة المشهورة عن أبي عبيدة رضي الله عنه عندما أراد لأسباب تكتيكية أن ينسحب من مدينة حمص التي كان قد تم فتحها وفرض الجزية على سكانها من غير المسلمين، فرد عليهم الجزية التي أخذها منهم معللاً ذلك بأن جيش المسلمين باضطراره

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، (٤/١٥٢).

(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، (٤/١٥٥).

(٣) المصدر نفسه، (٤/١٥٧).

للانسحاب يكون قد تخلى عن الدفاع عن المدينة، وبذلك لا يكون للمسلمين حق في الاحتفاظ بالجزية التي أخذوها في مقابل تحملهم الدفاع عن تلك المدينة وسكانها.

وقد التزم المسلمون في مقابل أخذ الجزية بكفالة الذمي عند العجز والفقر، على سبيل المثال قد جاء في العهد الذي كتبه خالد بن الوليد لأهل الحيرة كما دوّنه كتاب الخراج لأبي يوسف: «وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه طرحت جزيته وعيل من بيت المال وعياله ما أقاموا بدار الهجرة ودار الإسلام فإن خرجوا إلى غير دار الهجرة ودار الإسلام فليس على المسلمين النفقة عليهم»[1].

في حديث جسر أبي جعفر قال شهدت كتاب عمر بن عبدالعزيز إلى عدي بن أرطاة ـ قُرئ علينا في البصرة ـ أما بعد فإن الله سبحانه إنما أمر أن يؤخذ الجزية.. على من أطاق حملها... وانظر من قِبَلَكَ من أهل الذمة ممن كبرت سنه وضعفت قوته وولت عنه المكاسب فأجر عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه[2].

تقول المستشرقة الإيطالية VAGLIERI في كتابها. An Intpration Of Islam : «عند وصول محمد ﷺ إلى المدينة قبل كل شيء مدَّ يد الصداقة إلى اليهود الذين كانوا يمثلون في المدينة طائفة ثرية مالكة الناحية الاقتصادية، لقد دعاهم إلى التعاون المخلص في

---

(١) أبو يوسف، الخراج، ص ١٤٤.

(٢) ابن سلام، الأموال، ص ٤٥ ـ ٤٦.

وحدة سياسية واجتماعية، ولكن حينما تأكد أنهم يناصبونه العداء الشديد، وأنهم قد أوغلوا في طريق الخيانة والمكر لم يملك إلا أن يحاربهم»[١]، «إن تاريخ العقود الأولى من الفتح الإسلامي ليقدم لنا عديداً من الأمثلة على التسامح الديني الذي أبداه الخلفاء الأولون خاصة تجاه الأديان الإبراهيمية، فتماماً كما فعل النبي ﷺ تجاه نصارى نجران من ضمان الحماية لمؤسساتهم الدينية، وكما أوصى قائده المبعوث بأن لا يضار يهودي بيهوديته كذلك فعل الخلفاء في وصاياهم لقادة الفتح، وهؤلاء القادة بعد انتصارهم هم بدورهم أبرموا عهوداً مع سكان البلدان المفتوحة مطابقة لهدي نبيهم، بموجب هذه العهود منح لسكان البلدان المفتوحة حرية بقائهم على أديانهم وتقاليدهم بشرط التزامهم ـ في حالة عدم إسلامهم ـ بدفع جزية هي في الغالب أقل من الواجب المالي الذي يدفعه المسلمون تجاه حكومتهم، وفي مقابل ذلك ضمنت لهم حماية حقوقهم تماماً مثل المسلمين، نتيجة لذلك صار ما سنه النبي ﷺ وخلفاؤه من بعده قانوناً مرعياً في العصور اللاحقة، وليس من المبالغة أن نؤكد أن الإسلام لم يكتف بالدعوة إلى التسامح الديني، ولكنه جعل التسامح جزءاً من القانون الإسلامي.

بمجرد إبرام العهد مع سكان البلدان المفتوحة يتمتع السكان بحريتهم الدينية ولا يتعرضون لأية ضغوط لاعتناق الإسلام، لم يكن

---

(١) L.V. Vaglieri, Intpration Of Islam, p. 23

الجيش الإسلامي يتبعه جيش من المبشرين اللحوحين وغير المرغوب فيهم، ولم يكن الدعاة للإسلام يحتلون مراكز تفضيلية تساعدهم لنشر دينهم أو الدفاع عنه، بل على العكس في بعض الأوقات كان الإجراء الذي يشترط لاعتناق الإسلام لا يساعد على تسهيل تحول غير المسلم إلى الإسلام وأعني بذلك الإجراء الذي يقضي في حالة تحول غير المسلم إلى الإسلام أن يحضر أمام القاضي فيقرر بأن تحوله إلى الإسلام لم يكن نتيجة ضغط أو نتيجة إغراء بأي ميزة دنيوية... لم يسمح فقط الفاتحون المسلمون للنصارى واليهود بأن يعيشوا في سلام دون أن يتعرضوا لأية مساءلة تتعلق بممارستهم دينهم، ولكنهم أيضاً كانت تفتح لهم الطريق للتعيين في المناصب الإدارية في الحكومة الإسلامية ما دامت مواهبهم وخبراتهم تؤهلهم للوصول إلى هذه المناصب»[1].

وتنهي المستشرقة ملاحظتها بهذه الأسئلة: «ما هو التفسير لهذه الحقيقة؟ إنه بالرغم من الحرية الدينية الواسعة التي منحتها أمة الإسلام لمواطنيها غير المسلمين وبالرغم من غياب أي مؤسسات دعوية إسلامية مؤثرة فقد استمر الإسلام يشق طريقه إلى القلوب والعقول في آسيا وأفريقيا وذلك في مواجهة الابتعاد عن الدين السائد في الوقت الحاضر (النصف الأول من القرن العشرين)؟ في الوقت الحاضر لا يمكن القول بأن سيف الفاتح هو الذي عَبَّدَ الطريق لتقدم الإسلام؟ على العكس فإنه في البلدان التي كانت تحكمها حكومات

---

(١) Ibid, p. 26-27

إسلامية، تحكمها الآن حكومات غير إسلامية، ويعمل خلال المجتمعات الإسلامية ـ منذ وقت طويل ـ منظمات تبشيرية قوية ولكنها حتى الآن لم تنجح في إبعاد الإسلام عن حياة المسلمين؟

- **ما هي القوة المعجـــزة الخفية في ثنايا هذا الدين؟**
- **ما هي القوة الداخلية للإقناع الممتزجة بهذا الدين؟**
- **ومن أي أعماق الروح الإنسانية تثير جاذبيته كل هذه الاستجابة لندائه؟**»[1].

ويقول ول ديورانت في كتابه (قصة الحضارة): «وكان اليهود في بلاد الشرق الأدنى قد رحبوا بالعرب الذين حرروهم من ظلم حكامهم السابقين...

وأصبحوا يتمتعون بكامل الحرية في حياتهم وممارسة شعائر دينهم.. وَأَثْرَوا كثيراً في ظل الإسلام في آسية ومصر وأسبانيا كما لم يُثْرُوا من قبل تحت حكم المسيحيين وكان المسيحيون في بلاد آسية الغربية ـ خارج حدود الجزيرة العربية ـ يمارسون شعائر دينهم بكامل حريتهم، ويحدثنا المؤرخون أنه كان في بلاد الإسلام في عصر المأمون أحد عشر ألف كنيسة كما كان فيها عدد كبير من معابد اليهود ومعابد النار وكان المسيحيون أحراراً في الاحتفال بأعيادهم علناً والحجاج المسيحيون يأتون أفواجاً آمنين لزيارة الأضرحة المسيحية في فلسطين... وأصبح المسيحيون الخارجون على كنيسة الدولة البيزنطية الذين كانوا يلقون صوراً من الاضطهاد على يد بطارقة القسطنطينية

---

(١) Ibid, p. 26-29

وأورشليم والإسكندرية وإنطاكية أصبح هؤلاء الآن (بعد الفتح الإسلامي) أحراراً آمنين تحت حكم المسلمين الذين لم يكونوا يجدون لنقاشهم ومنازعاتهم معنى يفهمونه، ولقد ذهب المسلمون في حماية المسيحيين إلى أبعد من هذا إذ عين والي إنطاكية في القرن التاسع الميلادي حرساً خاصاً ليمنع الطوائف المسيحية المختلفة من أن يقتل بعضها بعضاً، وانتشرت أديرة الرهبان وأعمالهم في الزراعة وفي إصلاح الأراضي البور.. وبلغت العلاقة بين الدينين في وقت من الأوقات درجة من المودة تبيح للمسيحيين الذين يضعون الصلبان على صدورهم أن يقصدوا المساجد ويتحدثوا فيها مع أصدقائهم المسلمين وكانت طوائف الموظفين الرسميين في البلاد الإسلامية تضم فئات من المسيحيين وقد بلغ عدد الذين رقوا منهم إلى المناصب العليا في الدولة من الكثرة إلى درجة أثارت شكوى المسلمين في بعض العهود... وعلى الرغم من خطة التسامح الديني التي كان ينتهجها المسلمون الأولون أو بسبب هذه الخطة اعتنق الدينَ الجديد معظمُ المسيحيين وجميع الزرادشيتين والوثنيين إلا عدداً قليلاً منهم... واتخذ غير المسلمين من اللغة العربية لساناً لهم ولبسوا الثياب العربية ثم انتهى الأمر باتباعهم شريعة القرآن واعتناق الإسلام. وحيث عجزت (الهيلينية) أن تثبت قواعدها بعد سيادة دامت ألف عام، وحيث تركت الجيوش الرومانية الآلهة الوطنية ولم تغلبها على أمرها، وفي البلاد التي نشأت فيها مذاهب مسيحية خارجة على مذهب الدولة البيزنطية الرسمي، في هذه الأقاليم كلها انتشرت العقائد والعادات الإسلامية.. وآمن السكان بالدين الجديد وأخلصوا له، واستمسكوا بأصوله إخلاصاً

واستمساكاً أنسياهم بعد وقت قصير آلهتهم القديمة، واستحوذ الدين الإسلامي على قلوب مئات الشعوب في البلاد الممتدة من الصين وإندونيسيا والهند... إلى مراكش والأندلس وَتملَّكَ خيالهم وسيطر على أخلاقهم وصاغ حياتهم، وبعث فيهم آمالاً تخفف عنهم بؤس الحياة ومتاعبها وأوحى إليهم العزة والأنفة.... وظل هذا الدين يوحد بينهم ويؤلف قلوبهم مهما يكن بينهم من الاختلافات والفروق السياسية»[١].

قال جوستاف لوبون: «ويمكن القول إن التسامح الديني كان مطلقاً في دور ازدهار حضارة العرب وقد أوردنا على هذا غير دليل... فتسامح مثل هذا لم تصل إليه أوربة بعدما قامت به في أكثر من ألف سنة من الحروب الطاحنة»[٢]، وقال: «كانت الطريق التي يجب على الخلفاء (الأولين) أن يسلكوها واضحة فعرفوا كيف يحجمون عن حمل أحد بالقوة على ترك دينه، وعرفوا كيف يبتعدون عن إعمال السيف في من لم يسلم، وأعلنوا في كل مكان أنهم يحترمون عقائد الشعوب وأعرافها وعاداتها مكتفين بأخذهم في مقابل حمايتهم جزية زهيدة تقلُّ عما كانت تدفعه لسادتها السابقين من الضرائب»[٣].

وقال: «كان يمكن أن تُعمي فتوح العرب الأولى أبصارهم... ويسيئوا معاملة المغلوبين، ويكرهوهم على اعتناق دينهم الذي كانوا يرغبون في نشره في العالم... ولكن العرب اجتنبوا ذلك فقد أدرك الخلفاء السابقون الذي كان عندهم من العبقرية السياسية ما قلّ

(١) ول، ديورانت، قصة الحضارة، ص ١٣١ ـ ١٣٣.

(٢) جوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، ص٥٧٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٣٤.

وجوده في دعاة الديانات الجديدة أن النظم والأديان ليست مما يفرض قسراً فعاملوا كما رأينا أهل سورية ومصر وأسبانية وكل قطر استولوا عليه بلطف عظيم تاركين لهم قوانينهم ومعتقداتهم غير فارضين عليهم غير جزية زهيدة... في مقابل حفظ الأمن بينهم فالحق أن الأمم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب، ولا ديناً مثل دينهم، وما جهل المؤرخون من حكم العرب الفاتحين كان من الأسباب السريعة في اتساع فتوحهم وفي سهولة اعتناق كثير من الأمم لدينهم ونظمهم ولغتهم التي رسخت وقاومت جميع الغارات وبقيت قائمة حتى بعد أن توارى سلطان العرب عن العالم»[1].

وقال عن فتح مصر: «عامل عمرو بن العاص رضي الله عنه الفلاحين بما لم يعرفوه من العدل والإنصاف منذ زمن طويل... واحترم عمرو بن العاص رضي الله عنه نظم المصريين وعاداتهم ومعتقداتهم، ولم يمنع من عادات المصريين سوى عادة اختطاف إحدى العذارى الحسان من أبويها في كل سنة وقذفها في النيل»[2].

وقال عن فتح صقلية: « وعقب دور تنظيم العرب لصقلية دور فتحهم لها، وترك لنصارى صقلية كل ما لا يمسّ النظام العام، فكان للنصارى قوانينهم المدنية والدينية وحكام منهم للفصل في خصوماتهم وجباية الجزية عليهم.. وكانت هذه الجزية - التي هي دون ما كان يأخذه الروم - لا تؤخذ من رجال الدين والنساء

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٦٠٥.

(٢) جوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر ، ص ٢١٥.

والأولاد، وجعل العرب كل ما له علاقة بالحقوق المدنية.. ملائماً لعادات صقلية، وسمح العرب في أيام سلطانهم للنصارى بالمحافظة على قوانينهم وعاداتهم وحريتهم الدينية، وقد روى الأب موركولي أنه كان ينصب في الحفلات العامة بمسينة رايتان إحداهما إسلامية وعليها صورة برج أسود في حقل أخضر، والأخرى نصرانية وعليها صورة صليب مذهب في حقل أحمر، ولم يمس العرب الكنائس القائمة في صقلية حين فتحهم لها.. ولم تكد أقدام العرب ترسخ في صقلية حتى أقبلوا على الزراعة والصناعة فانتشلوها بسرعة من الانحطاط الذي كانتا فيه وأدخلوا إلى صقلية زراعة القطن وقصب السكر والدردار والزيتون، وحفروا فيها الترع والقنوات التي لا تزال باقية وأنشؤوا فيها المجاري المعقوفة التي كانت مجهولة قبلهم»[١].

وعن فتح الأندلس يقول EBLYDEN : «تحت سلطان الحكومات الإسلامية في أسبانيا، وحينما كان للإسلام السيادة السياسية تمتعت الجماهير من السكان النصارى بحماية التسامح العريض، لم يكن ذلك بدافع سياسي وإنما كان تطبيقاً لشريعة الإسلام كان مسموحاً للسكان الأصليين النصارى بأن يكون لهم قادتهم الدينيون، ومعابدهم، وأديرتهم وأن يحكموا بقوانينهم الخاصة ومحاكمهم عندما تكون القضية بين طرفين غير مسلمين»[٢].

---

(١) المصدر نفسه، ص ٣٠٨ ـ ٣١٠.

(٢) E. Blyden, Christianty Islam, and the Negro Race, 1969, p.254

وقال جوستاف لوبون: «استطاع العرب أن يحولوا أسبانيا مادياً وثقافياً في بضعة قرون وأن يجعلوها على رأس جميع الممالك الأوربية ،ولم يقتصر تحويل العرب لأسبانية على هذين الأمرين، بل أثّروا في أخلاق الناس أيضاً، فهم الذين علموا الشعوب النصرانية وإن شئتَ فقل: حاولوا أن يعلموها التسامح الذي هو أثمن صفات الإنسان، وبلغ حلم عرب أسبانيا نحو الأهلين المغلوبين مبلغاً، كانوا يسمحون لأساقفتهم أن يعقدوا مؤتمراتهم الدينية، وتعد كنائس النصارى الكثيرة التي بنوها أيام الحكم العربي من الأدلة على احترام العرب لمعتقدات الأمم التي خضعت لسلطانهم»(١).

ويقول توماس أرنولد TOMAS ARNOLD: «لم يسمع قط عن أي إكراه على اعتناق الإسلام أو اضطهاد، في الحقيقة ربما كان التسامح تجاه الدين المسيحي هو ما سهل على المسلمين الاستيلاء على أسبانيا إلى أبعد حد ... باستثناء قضايا الجرائم ضد القانون الإسلامي كان المسيحيون يحاكمون أمام قضاة من أهل دينهم وبمقتضى قوانينهم الخاصة، لم يضايقوا بأي صورة فيما يتعلق بممارستهم الدينية كانت القداسات تقام بعبق البخور ورنين الأجراس وكل طقوس الدين الكاثوليكي، كانت الأناشيد الدينية يصدح بها الكورس، وكانت المواعظ المسيحية تُراعَى كالمعتاد، نقرأ عن تأسيس عديد من المعابد الجديدة وعن عديد من التحول إلى راهبات ورهبان الذي انتعش في ظل الحكام المسلمين، لم يكن القسس

---

(١) جوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧.

يحتاجون إلى إخفاء إشارات مناصبهم الدينية، وفي الوقت نفسه لم تكن صفاتهم الدينية تمنعهم من أن تناط بهم المسؤوليات في المحاكم أو الخدمة في الجيش الإسلامي»[(١)]، «إن تسامح الحكام المسلمين تجاه رعاياهم المسيحيين في أسبانيا وحرية الامتزاج بين أتباع الديانتين أدى إلى مقدار من الاندماج بين المجتمعين، اختار كثير من المسيحيين التسمي بالأسماء العربية وقلدوا في كثير من الأمور جيرانهم المسلمين على سبيل المثال: اختتن كثير منهم، وفيما يتعلق بالطعام والشراب اتبعوا عادات الكفار غير المعمدين (أي المسلمين). إن اصطلاح المستعربين الذي أطلق على المسيحيين الأسبان تحت الحكم الإسلامي هو أوضح صورة للاتجاه السائد، فدراسة اللغة العربية حلت بسرعة محل دراسة اللاتينية وحتى لغة الطقوس المسيحية سارت تدريجياً في طريق الإهمال أو النسيان»[(٢)].

وعن فتح فارس يقول TOMAS ARNOLD: «أمكن لكل الأديان المختلفة في فارس أن يتنفسوا تحت ظل الحكم الإسلامي الذي منحهم الحرية الدينية والإعفاء من الخدمة العسكرية، منح القانون الإسلامي الحرية الدينية والحق في تعامل الجزية ليس فقط لليهود والنصارى بل أيضاً للمجوس والصابئين وعباد الأصنام أو النار والأحجار»[(٣)].

---

(١) Tomas Arnold, Preaching of Islam, p.134 – 135

(٢) Ibid, p. 136-138

(٣) Ibid, p.206-207

ويقول: «إن اعتناق الإسلام بمحض الاختيار الحر على نطاق واسع من قبل الفرس حقيقة يثبتها أن التسامح الإسلامي كان قد امتد إلى أولئك الذين ظلوا متشبثين بأديانهم القديمة، فإلى اليوم يوجد مجتمعات صغيرة من عباد النار في أنحاء متفرقة من إيران»[١].

وعن البلدان الأوروبية التي وقعت تحت سلطان الحكم العثماني يقولTOMAS ARNOLD: «بعد استيلاء محمد الفاتح على القسطنطينية واستتباب النظام فيها كان أول خطوة اتخذها ضمان إخلاص المسيحيين بإعلان نفسه حامي الكنيسة الإغريقية والمنع بصرامة لأي إيذاء يمكن أن يوجه للمسيحيين، وأصدر مرسوماً بمنح البطريق المنتخب وخلفاءه والقادة الدينيين من تحته كل الامتيازات والريوع والحصانات التي كانوا يتمتعون بها في ظل الحكم السابق، لم يكن رئيس الكنيسة يعامل فقط بكل مظاهر الاحترام التي كان يحظى بها من الأباطرة المسيحيين بل أكثر من ذلك أعطيَ سلطات مدنية واسعة، لقد أنشئت محكمة البطريق لكي تفصل في كل القضايا بين الخصوم إذا كان كلا طرفي الخصومة من الإغريق، وكان من صلاحيات هذه المحكمة فرض الغرامات، وحبس المذنبين في سجون خاصة بالمحكمة، وفي بعض الحالات كان من سلطتها أن تصدر عقوبة الإعدام، وكان على الجهات التنفيذية الحكومية أن تنفذ أحكام تلك المحكمة، وكان الإشراف الكامل على الشؤون الدينية قد ترك للبطريق ورجال الدين ممن دونه فكان

---

(١) Ibid, p.208

لهم وحدهم القرار في أمور العقيدة والدين إذ لم يكن الخلفاء ـ وعلى خلاف ما كان عليه الحكم المدني في الإمبراطورية البيزنطية ـ يتدخلون في الشأن الديني وكان القادة الدينيون (Bishops) في المناطق يعاملون بدورهم باعتبار كبير، وقد ظلوا إلى العصر الحاضر يحكمون بسلطة قانونية في الشؤون المدنية للرعايا كما لو كانوا حكاماً عثمانيين على المناطق، وهكذا انتقلت إليهم السلطة المدنية التي كانت تمارس من قبل الأرستقراطية البيزنطية قبل زوال هذه الأخيرة، نتيجة لذلك وبالرغم من أن الإغريق كانوا عددياً أكثر من الأتراك فإن الحرية الدينية التي منحت لهم والحماية لحياتهم وأموالهم التي أصبحوا يتمتعون بها جعلتهم يتقبلون بسهولة تغيير الحكام بل جعلتهم يفضلون أن يعيشوا تحت حكم السلطان عن أن يعيشوا تحت أي سلطة مسيحية، وفي الحقيقة فإنه في كثير من أرجاء البلاد رحب الإغريق بالأتراك كما لو كانوا محررين لهم من حكم الفرانك، لقد كانت المناطق الأوربية الواقعة تحت السلطان العثماني بالتأكيد تتمتع بحكم أفضل وبازدهار أعظم من معظم أجزاء أوروبا المسيحية، وكان جمهور السكان المسيحيين العاملين في الزراعة يتمتعون على نطاق واسع بحرية خاصة، ويملكون ثمار عملهم تحت حكم السلطان أكثر بكثير من معاصريهم تحت حكم الملكيات المسيحية»[١].

---

(١) Ibid ,p.145-150.

«إن معاملة السلاطين العثمانيين لرعاياهم المسيحيين ـ على الأقل على مدى قرنين بعد استيلائهم على اليونان ـ تمثلت بقدر من التسامح لم تشهد مثله بقية أوروبا ـ في ذلك الوقت، أتباع كالفن في هنغاريا وترانسفاليا، والموحدون في القطر الأخير فضلوا طويلاً أن يكونوا تحت سلطان الأتراك من أن يقعوا تحت التعصب المقيت لبيت هابسبرج، وظل بروتستانت سيلسيا ينظرون بعيون الشوق إلى الأتراك، ويفضلون بسرور أن يشتروا حريتهم الدينية بخضوعهم للحكم الإسلامي، وإلى تركيا لجأت أعداد كبيرة من اليهود الأسبان فراراً من الاضطهاد، في نهاية القرن الخامس عشر، وفي القرن السابع عشر كان مكاريوس بطريق إنطاكية على حق في تهنئة نفسه عندما رأى الفظائع المرعبة للاضطهاد الذي وقع على الروس أتباع الكنيسة الأرثوذكسية على يد الكاثوليك وعلى حق في أن يقول: «الله يديم الإمبراطورية العثمانية إلى الأبد إذ يكتفون بأخذ الضريبة، ولا يتدخلون بأي صورة في أديان رعاياهم سواء كانوا مسيحيين أو نازارين أو يهود أو سامرة في حين أن هؤلاء الكاثوليك الملعونين لم يكتفوا بأخذ الضريبة من إخوانهم في المسيح بالرغم من رغبتهم في خدمتهم بل سلطوا عليهم أعداء المسيح اليهود البغاة، الذين لم يسمحوا لهم قط ببناء الكنائس أو يتركوا لهم قسيساً يعرف أسرار الديانة،وحتى في إيطاليا وجد أشخاص يتمنون أن يكونوا تحت

سلطان الأتراك ليتمتعوا بالحرية والتسامح اللذين حرموا منهما تحت سلطان الحكومة المسيحية»[١].

إن الظاهرة الإسلامية لقبول التعددية، وقابلية التعايش مع الثقافات المخالفة ـ كما تتجلى من النصوص السابقة ـ يدل على ارتباطها الطبيعي بروح الإسلام أمران:

أ. المدى الذي حققه الإسلام عملاً في قبوله تحت سلطانه التعددية الثقافية وقابليته للتعايش مع الأيدلوجيات والثقافات الأخرى بما هو مدى فريد لا يوجد له مماثل في التاريخ الماضي والحاضر.

ب. استمرار هذه الظاهرة على مر العصور وفي مختلف الأقطار التي حكمها الإسلام بما يعني أنه لم يكن لتغيير الظروف الزمانية والمكانية أثر على هذه الظاهرة.

ويزيد في الدلالة على الارتباط الطبيعي بين الظاهرة المشار إليها وروح الإسلام وجود عاملين مهمين كان يمكن بمقتضى طبيعة الأمور أن يعوقا هذه الظاهرة، ولكن الذي حدث أنه لم يكن لهما أثر عليها.

العامل الأول: أن المسلم مع إيمانه بالسيد المسيح عليه السلام ومحبته وتمجيده له بما مجده به القرآن، ومع إيمانه بالمسيحية الأولى التي جاء بها عيسى عليه السلام ووصف أتباعه وحوارييه بأنهم أنصار الله، ومع إيمانه بموسى عليه السلام ووعيه بما فاض به القرآن من تكريمه وتمجيده، وإيمانه بالموسوية كما جاء بها النبي الكريم، مع ذلك فإن المسلم لم يكن

Ibid ,p.158.(١)

لديه لبس في مناقضة الإسلام للنصرانية واليهودية في صيغتيهما المنحرفة عندما واجههما الإسلام، وهو فيما يتعلق بالنصرانية يقرأ ويسمع الآيات الكريمة: ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ [الكهف: ٤ -٥].

﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٣]. ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٧٢ - ٧٣]

وهو فيما يتعلق باليهود يسمع أو يقرأ الآيات الكريمة:

﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ

عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٥٨ - ٦٠]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨]. ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ﴾ [المائدة: ٨٢].

وفيما يتعلق باليهود والنصارى يسمع ويقرأ الآية الكريمة:

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة:١٢٠].

(العامل الثاني) ما تواترت به الآيات الكريمة والأحاديث الصحيحة والإجماع من الأمر بعدم تقليد المسلم للديانات الأخرى في الجملة وبخاصة في الرموز الدينية الخاصة ـ والوعي بوجوب التمايز بين الإسلام والأديان الأخرى والمفاصلة بينهما والأصل في هذا السورة الكريمة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١ ـ ٦].

وقد وصف النبي ﷺ هذه السورة بأنها تعدل ربع القرآن، الأمر الذي قد يشير إلى مقدار ما اشتمل عليه القرآن من مضمون هذه السورة من مثل الآيات الكريمة:

﴿ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [القصص:٥٥]. ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١٥]. ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٩]. ﴿ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس ٤١].

ومن الأحاديث الشريفة:

«من تشبه بقوم فهو منهم»[١]، **«خالفوا المشركين أحفوا الشوارب وأعفوا اللحى »**[٢].

كان من المفترض أن يُوجد هذان العاملان في المجتمع الإسلامي بيئة تعوق تسامح المسلم تجاه الديانتين اليهودية ـ والمسيحية لو لم يكن التسامح جزءً من جوهر الإسلام.

على أنه بالرغم من التناقض الظاهر بين هذين العاملين وبين ظاهرة التسامح تجاه الأديان والثقافات الأخرى التي وجدت تحت

---

(١) رواه أبو داود، كتاب اللباس، باب في لباس الشهرة، برقم (٤٠٣١)، وقال الألباني حسن صحيح.

(٢) رواه مسلم، كتاب الطهارة، باب خصال الفطرة، برقم (٢٥٩).

سلطان المسلمين، إلا أنه عند التأمل يتبين عدم وجود تناقض في الحقيقة، والجمع بين مقتضى العاملين المشار إليهما، وظاهرة التسامح تجاه الأديان الأخرى هو غاية الحكمة، إذ إن التسامح العظيم كما تجلى في الظاهرة الإسلامية لدى المسلمين لو شاع معه لديهم تقليد الأديان والثقافات الأخرى، لأمكن أن يؤثر ذلك سلباً على الهوية الإسلامية، وحماية الهوية الذاتية مصلحة كبرى لا يجوز التهاون بها أو التفريط فيها.

على أن وجود الظاهرة الإسلامية في التسامح مصحوبة بالعاملين المشار إليهما هو كما أشير سابقاً أنصع دليل على الارتباط الطبيعي بين ظاهرة التسامح وروح الإسلام.

والدرس المستفاد مما سبق أنه يمكن عملاً قبول التعددية الثقافية، وتسامح الأغلبية ذات السلطان تجاه ثقافات الأقليات التي اختارت أن تعيش معها، دون أن تتعرض الهوية الوطنية أو ثقافة الأغلبية لخطر الانتقاص أو الذوبان.

وبهذا يظهر ضعف حجة الاتجاه غير التسامحي الذي بدأ يبرز ويتزايد في الغرب تجاه ثقافات الأقليات الأخرى، ولاسيما الأقليات الإسلامية، إذ كانت الحجة التي تقدم دائماً لإسناد هذا الاتجاه أن احتفاظ الأقليات بثقافاتها مصادم لطريقة الحياة، وأن على هذه الأقليات إذا رغبت أن تعيش في الغرب أن تكون حياتها منسجمة ومتوافقة مع طريقة الحياة الغربية.

وتطور الأمر في الآونة الأخيرة إلى إصدار قوانين تنتهك أهم القيم التي ظل الغرب يتمدح بها ويدّعي امتيازه بها على الشعوب الأخرى.

على سبيل المثال في خطاب الرئيس الفرنسي في ١٧ ديسمبر ٢٠٠٣ الذي اقترح فيه إصدار قانون يقيد حرية المسلمات في تنفيذ واجبهن الديني بارتداء الحجاب ـ أشار الرئيس الفرنسي في هذا الخطاب إلى أن هذا العصر الذي (بدأت فيه الظلامية ومعها التعصب يسجلان امتداداً في العالم) وصف العلمانية الفرنسية بأنها (ضمان لحرية الفكر والضمير وحامية لحرية المعتقد وتؤمن لكل فرد طمأنينة وحرية دون أن يجد نفسه تحت وطأة التهديد بأن تفرض عليه قناعة أو معتقدات أخرى) وأن العلمانية الفرنسية (بانفتاحها السخي تمثل مكمناً متميزاً للتلاقي والتبادل، فالحيادية في المجال العام هي التي تسمح بتعايش وانسجام متناسق بين كافة الديانات على أنواعها، وشأن الحرية الدينية شأن كل الحريات الأخرى لا قيود للتعبير عنها إلا بحدود عدم المساس بحريات الآخرين، والاحترام والتسامح وروح التعاون تترسخ عبر فهم الآخر والتعرف عليه).

وصدر هذا القانون الذي اقترحه الرئيس والذي يحدد حرية المسلمة الفرنسية في أداء ما تعتقد أنه واجبها الديني من ارتداء الحجاب، ووجدت المسلمة نفسها تحت وطأة التهديد بأن تفرض عليها معتقدات أخرى، وحرمت من إمكانية ممارسة شعيرة من شعائر دينها والتعبير عن إيمانها بحرية لا تخرج عن حدود عدم المساس بحرية الآخرين. والدرس الثاني من الظاهرة الإسلامية للتسامح والتعايش مع الثقافات المناقضة أن ذلك لم يعق الاندماج الإيجابي بين طوائف المجتمع، ولا يزال المؤرخون الغربيون يرددون أن ظاهرة الاندماج بين

المسلمين في الأندلس - ولهم السلطان - والأقليات اليهودية والمسيحية كان نموذجاً مثالياً منقطع النظير في التاريخ.

وعلى العكس أثبت التاريخ استعصاء المدجنين على الاندماج بعد أن حاولت السلطات النصرانية تحقيقه عن طريق فرضه بالقوة، وأصدرت القوانين التي تحرم على المدجنين الظهور بأي مظهر إسلامي وتمنع المسلمات الأسبانيات من ارتداء الحجاب أو الملابس العربية واقتضى تطبيق هذه القوانين أكثر من قرن (١٥٠٣ـ ١٦٠٩) دون أن يحقق الاندماج المطلوب واضطر الملك فيليب الثالث إلى الأمر بطرد المدجنين بعد أن يئس منهم وأخرجهم من أسبانيا، ويعبر عن هذه الحادثة جوستاف لوبون بسخرية فيقول: « وسلك فيليب الثالث طريقاً وسطاً فاكتفى بإعلان طردهم في سنة ١٦١٠ ولكنه أمر بأن يقتل أكثرهم قبل أن يوفقوا لترك أسبانيا فقتل ثلاثة أرباعهم تقريباً»[(١)].

من المحتمل في الغالب أن الحجة التي يستند إليها في الإلحاح على الأقليات المسلمة في أوروبا وأمريكا الشمالية بالتخلي عن خصائصهم الثقافية، وعلى العمل على اندماجهم في المجتمع، والأخذ بطريقة الحياة الغربية أو الأمريكية هذه الحجة مجرد تبرير سياسي يستعمل لإخفاء التناقض بين قيم الحرية والمساواة وحقوق الإنسان وبين ما يتخذ من إجراءات قانونية أو بوليسية ضد الأقليات المسلمة، ويؤيد هذا

---

(١) د. محمد مرزوق أحمد، التجربة الأندلسية الموريسكية، السجل العلمي لندوة الأندلس، فروق من التقلبات والعطاءات، ص ٤٩، ٤٨؛ جوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، ص ٥٨٢.

الاحتمال أن التناقض بين التصور الإسلامي للكون والحياة والتصور الغربي ربما لا يفوق التناقض فيما يتعلق بهذا التصور بين الأيدلوجية الاشتراكية والأيدلوجية الرأسمالية، أو بين الأصولية الأمريكية والليبرالية الأمريكية أو التناقض بين اليهودية والمسيحية.

ومع ذلك أمكن - في الغرب - التعايش بين هذه الثقافات المختلفة، فقد لاحظت MARIA ROSA MENOCAL في كتابها Ornament Of The World أنه: «في ٢٥ أغسطس ١٩٩٢ بدأ الجيش الصربي يقصف - عن عمد - المكتبة القومية في سراييفو فدمر عن قصد أكثر من مليون كتاب وأكثر من مائة ألف مخطوط، وقبل ذلك بثلاثة أشهر قام الجيش نفسه بقصف المعهد الشرقي في سراييفو الذي كان يحتوي عل مجموعة نفيسة ورائعة من المخطوطات الإسلامية واليهودية أحرق منها أكثر من خمسة آلاف مخطوط، لماذا ؟ متى كانت المكتبات أهدافاً عسكرية؟ لكن الحرب عادة تنشب على عدة جبهات والهجوم على مراكز الذاكرة الثقافية الإسلامية بسراييفو يتم لأسباب لا تختلف عن تلك الأسباب التي دعت لإحراق العدد الهائل من الكتب الإسلامية في أسبانيا في القرن السادس عشر أو إلى تدمير أو تشويه العدد من مراكز الذاكرة الثقافية للأندلس، مثل: الكتب والمباني والأعمال الفنية والأغاني وفي بعض الأحيان حتى لغة الصلاة التي هي دائماً تعبير عن تعقيدات

التسامح والهوية الثقافية وهي تعقيدات ينكرها العقديون الأيدلوجيون سواء كواقع حاضر أو إمكانية مستقبلية»[١].

يمكن للقارئ أن يقارن بين رد الفعل من الغرب تجاه هذا العمل العسكري الصربي ضد المكتبة والمعهد، ورد الفعل لدى الغرب تجاه تدمير طالبان الأصنام البوذية في أفغانستان، وتداعي المعاني سوف يجعله يتأمل في حرب الإبادة التي شنتها جماعة أرثوذكسيه (الصرب) تولى إسنادها اللوجستي دولة كبيرة أرثوذكسية (روسيا) ضد جماعة مسلمة (البوسنة) حظر عليها الإسناد اللوجستي بقرار دولي، وحتى النجدة الإنسانية لهذه الجماعة البائسة اعتبرت بعد عشر سنوات دعماً للإرهاب. (على سبيل المثال قضية إنعام أرناؤوط مدير المؤسسة الدولية للإغاثة في إلينوي بالولايات المتحدة الأمريكية الذي أدين بدعم الإرهاب بزعم أنه أعان البوسنيين وقت حربهم مع الصرب).

علق الرئيس الأمريكي نيكسون على مذبحة فبراير الشهيرة التي نفذها الصرب ضد مسلمي سراييفو بقوله: إنها حقيقة مؤلمة محرجة ولكن لا يمكن إنكارها لو كان سكان سراييفو في أغلبيتهم مسيحيين أو يهوداً لما كان العالم المتحضر سيسمح للحصار أن يصل إلى الحد الذي وصل إليه في ٥ فبراير عندما كان الصرب يقصفون سوق سراييفو المزدحم بالسكان، في مثل هذه الحالة

---

(١) Maria Rosa Menocal, Ornament of the World, U.S.A. 2002, P.278

سيكون رد الفعل لدى العالم المتحضر سريعاً، وسيكون محقاً في ذلك[١] .

منذ بداية عصر النهضة في أوروبا والفلاسفة والمفكرون والإصلاحيون يجهدون في التبشير بالقيم الإنسانية الفطرية من الحرية والعدل والمساواة أمام القانون وتكافؤ الفرص والإخاء بين البشر وديمقراطية الحكم، ويسعون لترسيخها في المجتمع وقد نجحوا في ذلك حتى أصبحت قيماً مسلماً بها، ومقياساً للتحضر، وأصبحت جزءاً من التربية الغربية، وحظيت في المجتمعات الغربية محلياً بالتطبيق على نطاق واسع، وصارت موضع الامتداح والفخر، ومجال نقد الغرب للشعوب الأخرى، بل استخدمت كمبرر للتوسع والاستعمار باعتبارها غاية لتحضير الشعوب الأخرى وتمدينها.

وبغض النظر عن النسبية الخلقية التي ساهمت في تعامل الغرب مع الشعوب الأخرى بما يناقض هذه القيم إلا أن تطبيق هذه القيم في النطاق المحلي الغربي كان أوسع وأبلغ ـ في كثير من الأحيان ـ من تطبيقها في المجتمعات الأخرى المعاصرة.

لقد دونت على أساس هذه القيم الدساتير، وصدرت القوانين، وأنشئت بها النظم ، وأقيم عليها بناء المؤسسات.

إلا أن تخلف الإيمان الديني بهذه القيم، واعتناقها فقط على أنها مقتضى التفكير السليم، والمصلحة العملية، وأنها مظهر التسامي البشري والتحضر الدنيوي هو السبب في إخفاق الغرب في الالتزام بهذه

---

[١] محمد أسد، الطريق إلى مكة ، ص ٥.

القيم كلما تعرض لاختبار التعارض بين تطبيق تلك القيم، ومصلحته المادية أو تصوراته عن ذاته وعن الآخر.

ولإيضاح هذا الأمر بمثل تطبيقي: فمن المعروف أن السويد تعد نموذجاً مثالياً للغرب في تمثل هذه القيم وتطبيقها فالسويد تحظى بأفضل نظام للحكم وأصلح حكومة وربما أصلح نظام اجتماعي علماني. وسجلها في رعاية حقوق الإنسان أنصع من سجل أية دولة غربية أخرى وتسبق ولاشك أية دولة أخرى فيما يتعلق بقبول التعددية الثقافية، والتعايش مع الآخر.

ومع ذلك فعندما نشرت وول ستريت جورنال الأوربية في ٢٠٠٤/١٢/١٠ نتيجة المسح الذي أجرته لحسابها مؤسسة Gfk Gustom Recearch Worldwide أظهرت هذه النتيجة فيما يتعلق بالتصور تجاه التعددية الثقافية أن ٧٥٪ من السويديين يرفضون وجود المسلمين في أوروبا.

بالتأكيد لا تدل نتيجة هذا المسح على أن السويد ترفض على الإطلاق التعددية الثقافية أو لا تقبل التعايش مع الأديان الأخرى، وأن الغالب أن الاتجاه السلبي ضد المسلمين يعتبر في حالة السويد استثناء من القاعدة، وأن هذا الاستثناء في الغالب يرجع لسببين:

أحدهما: أن الصورة النمطية للإسلام التي يجدُّ الإعلام في ترسيخها في ذهن الإنسان الغربي ساهمت بقدر كبير في هذه النتيجة، وفي تقرير U.E.M.C المنشور في ٢٣/مايو/٢٠٠٢ حَمَّل التقرير الإعلام المسؤولية عن موجة العنف التي وجهت بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١ في دول الاتحاد الأوروبي ضد المسلمين أفراداً ومؤسسات والتي

وصلت في بعض الأحيان إلى حرق الجوامع وإلقاء القنابل عليها وضرب الأفراد بل وقتلهم ،وحسب التقرير لم يكن نصيب السويد في هذا العنف المتطرف ضد المسلمين أقل من نصيب المملكة المتحدة والدانمارك وهولندا.

ثانيهما: رواسب العداء للمسلمين في الموروث الثقافي الأوروبي التي امتد أثره حتى إلى الشعوب الأوروبية التي لم يحدث بينها وبين العالم الإسلامي احتكاك عنف كالسويد.

ويصور هذه الرواسب في الموروث الثقافي الأوربي محمد أسد في مقدمة كتابه الطريق إلى مكة بقوله: «صار الغرب أكثر تسامحاً ـ ليس تجاه الإسلام ـ بل فقط تجاه ثقافات شرقية معينة تقدم نوعاً من الجاذبية الروحية إلى الغرب الجائع روحياً التي في الوقت نفسه هي أبعد جداً من أن تشكل تحدياً حقيقياً للقيم الغربية، فحين يتحدث الغربي مثلاً عن الهندوكية أو البوذية فإنه يكون دائماً على وعي بالاختلاف الأساسي بين هذه الأيدلوجيات والأيدلوجية الغربية، ربما يعجب بهذه الفكرة أو تلك من هذه الأيدلوجيات ولكنه لا يمكن بالطبع أن يعتبر وجود إمكانية لأن تكون أي من هذه الأيدلوجيات بديلاً جدياً عن أيدلوجيته، وبما أنه يعترف في البداية بعدم وجود هذه الإمكانية فإنه يكون قادراً على أن يتعامل فكرياً مع هذه الثقافات المغايرة باتزان وتعاطف، ولكن عندما يتصل الأمر بالإسلام الذي هو في الحقيقة أقرب إلى الأيدلوجية والقيم الغربية من الهندوكية و البوذية فإن اتزان الغربي في هذه الحالة يختل بقدر كبير من التحيز العاطفي، إني دائماً أتساءل ألا يكون ذلك بسبب أن قيم الإسلام تمثل

تحدياً حقيقياً لكثير من التصورات الغربية الروحية والاجتماعية؟ بالإضافة إلى ذلك فإنه لكي نفهم بشكل أفضل العداوة الشديدة والمتركزة بعمق تجاه الإسلام التي نجدها دائماً في الأدبيات الغربية وفي الفكر المعاصر علينا أن نرجع بالنظر إلى التاريخ لمحاولة إدراك الخلفية السيكولوجية في العلاقات المبكرة بين عالمي الإسلام والغرب، فما يعتقده ويشعر به الغربيون اليوم متجذر في الانطباعات التي ولدت أثناء الحروب الصليبية»[١].

ويقول في كتابه «الإسلام على مفترق الطرق»: «فيما يتعلق بالإسلام لا نجد موقف الأوروبي موقف كره في غير مبالاة فحسب كما هي الحال في موقفه من سائر الأديان والثقافات ،بل هو كره عميق الجذور يقوم في الأكثر على صدوره عن التعصب الشديد، هذا الكره ليس عقلياً فقط ولكنه يصطبغ أيضاً بصبغة عاطفية قوية، قد لا تتقبل أوروبا تعاليم الفلسفة البوذية أو الهندوكية ولكنها تحتفظ دائماً فيما يتعلق بهذين المذهبين بموقف عقلي متزن ومبني على التفكير، إلا أنها حالما تتجه إلى الإسلام يختل التوازن ويأخذ الميل العاطفي للتسرب، حتى إن أبرز المستشرقين الأوروبيين جعلوا من أنفسهم فريسة للتحزب غير العلمي في كتابتهم عن الإسلام، ويظهر في جميع بحوثهم على الأكثر كما لو أن الإسلام لا يمكن أن يعالج على أنه موضوع بحث في البحث العلمي بل على أنه متهم يقف أمام قضاته، إن بعض المستشرقين يمثلون دور المدعي العام الذي يحاول

---

(١) محمد أسد، الطريق إلى مكة ،ص ١٥٤.

إثبات الجريمة، وبعضهم يقوم مقام المحامي في الدفاع فهو مع اقتناعه شخصياً بإجرام موكله لا يستطيع أكثر من أن يطلب له مع شيء من الفتور «اعتبار الأسباب المخففة»، وعلى الجملة فإن طريقة الاستقراء والاستنتاج التي يتبعها أكثر المستشرقين تذكرنا بوقائع دواوين التفتيش في القرون الوسطى، إن تلك الطريقة لم يتفق لها أبداً أن نظرت في القرائن التاريخية بتجرد، ولكنها كانت في كل دعوى تبدأ باستنتاج متفق عليه من قبل قد أملاه عليها تعصبها لرأيها، ويختار المستشرقون شهودهم حسب الاستنتاج الذي يقصدون أن يصلوا إليه مبدئياً، وإذا تعذر عليهم الاختيار المعرفي للشهود عمدوا إلى اقتطاع أقسام من الحقيقة التي شهد بها الشهود الحاضرون، ثم فصلوها عن المتن أو تأولوا الشهادات بروح غير علمية من سوء القصد من غير أن ينسبوا قيمة ما إلى عرض القضية من وجهة نظر الجانب الآخر، وليست نتيجة هذه المحاكمة سوى صورة مشوهة عن الإسلام والأمور الإسلامية... وليس ذلك قاصراً على بلد دون آخر، إنك تجده في كل صقع يتجه المستشرقون فيه بأبصارهم نحو الإسلام، وبما أن هؤلاء المستشرقين ليسوا سلالة خاصة ولكنهم طلائع مدنيتهم وطلائع بيئتهم الاجتماعية فإننا من أجل ذلك يجب أن نصل ضرورة إلى استنتاج أن في العقل الأوروبي على العموم ـ لسبب ما ـ ميلاً عن الإسلام بما هو دين وبما هو ثقافة يمكن أن يُعزى إلى الإرث الذي قسم العالم إلى أوروبيين وبرابرة، وأما السبب الآخر وهو أشد صلة مباشرة بالإسلام فيمكننا أن نتتبعه إذا ولينا أبصارنا شطر الماضي: إن الاصطدام العنيف الأول بين أوروبا المتحدة من جانب وبين الإسلام

من الجانب الآخر أي الحروب الصليبية يتفق مع بزوغ فجر المدنية الأوروبية... إن الحروب الصليبية هي التي عينت في المقام الأول والمقام الأهم موقف أوروبا من الإسلام لبضعة قرون تلت، لقد كانت الحروب في ذلك حاسمة لأنها حدثت في أثناء طفولة أوروبة في العهد الذي كانت فيه الخصائص الثقافية الخاصة قد أخذت تعرض نفسها، وكانت لا تزال في طور تشكلها، والشعوب كالأفراد إذا اعتبرنا أن المؤثرات العنيفة التي تحدث في أوائل الطفولة تظل مستمرة ظاهراً وباطناً مدى الحياة التالية، تظل تلك المؤثرات محفورة حفراً عميقاً حتى إنه لا يمكن للتجارب العقلية في الدور المتأخر من الحياة والمتسم بالتفكير أكثر من اتسامه بالعاطفة أن تمحوها إلا بصعوبة، ثم يندر أن تزول آثارها تماماً... إن الشر الذي بعثه الصليبيون... كان قبل كل شيء وفي مقدمة كل شيء شراً ثقافياً. لقد نشأ تسمم العقل الأوروبي عما شوهه قادة الأوروبيين من تعاليم الإسلام ومثله العليا أمام الجموع الجاهلة للغرب، في ذلك الحين استقرت تلك الفكرة المضحكة في عقول الأوروبيين من أن الإسلام دين شهوانية وعنف حيواني، وأنه تمسك بطقوس شكلية وليس تزكية للقلوب وتطهيراً لها، ثم بقيت هذه الفكرة حيث استقرت... البغضاء (الأوروبية للإسلام) قد نمت مع تقدم الزمن ثم استحالت عادة، ولقد كانت هذه البغضاء تغمر الشعور الشعبي كلما ذكرت كلمة مسلم، ولقد دخلت في الأمثال السائرة عندهم حتى نزلت في قلب كل أوربي رجلاً كان أو امرأة، وأغرب من هذا كله أنها ظلت حية بعد جميع أدوار التبدل الثقافي... ثم جاء عهد الإصلاح الديني حيث انقسمت أوروبا شيعاً.. ولكن العداء للإسلام

كان عاماً فيها كلها، ثم جاء بعد ذلك زمن أخذ فيه الشعور الديني يخبو ولكن العداء للإسلام استمر.

وبعد بضعة عقود جاء زمن أخذ فيه علماء الغرب يدرسون الثقافات الأجنبية ويواجهونها بشيء من العطف أما فيما يتعلق بالإسلام فإن الاحتقار التقليدي أخذ يتسلل في شكل تحزب غير معقول إلى بحوثهم العلمية، وبقي هذا الخليج الذي حفره التاريخ بين أوروبا والعالم الإسلامي غير معقود فوقه بجسر، ثم أصبح احتقار الإسلام جزءاً أساسياً من التفكير الأوربي... إن روح الحروب الصليبية ـ في شكل مصغر على كل حال ـ مازالت تتسكع فوق أوروبا، ولا تزال مدنيتها تقف من العالم الإسلامي موقفاً يحمل آثاراً واضحة لذلك الشبح المستميت في القتال»[1].

ويعبر عن المعنى المشار إليه الدكتور مراد هوفمان في كتابه الإسلام عام ٢٠٠٠م، بقوله: «لن يكون من العدل اتهام الثقافة الأورأمريكية... بالعجز الكامل عن أي تسامح مع الأديان بل على العكس فقد يهتم أكثر الناس استثارة ببعض الأديان كالبوذية والثيوسوفية وفي الواقع يستطيع المرء في أوروبا أو الولايات المتحدة أن يتبع مرشده الروحي الهندي أو يمارس سحر الهنود الحمر الشاماني دون خطر أن يفقد عمله أو حياته طالما ليس هناك ما يمس العمل أو المؤسسة السياسية... إلا إذا كان الدين المعني هو الإسلام فالإسلام هو الدين الوحيد الذي لا يشمله التغاضي اللطيف أو التسامح... أصبحت

---

(١) محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق، ترجمة عمر فروخ، ص ٥٠ ـ ٥٨.

إدانة الإسلام جزءاً لا يتجزأ من العقلية الأوروبية... سيكون وهماً خطيراً أن نعتقد تلاشي الروح الصليبية... في أي زمان، اليوم ليس البابا من يدعو للحملة ضد الإسلام، ولكن قد يكون مجلس الأمن بالأمم المتحدة يدعو إلى التدخل لفرض حظر سلاح على دولة مسلمة ضحية العدوان، نعم إذا سبرت غور النفس الأوروبية ولو بخدش سطحي صغير لوجدت تحت الطبقة الرقيقة اللامعة عداء للإسلام، عقدة فينا التي يمكن استدعاؤها في أي وقت، وهذا ما حدث بالضبط في أوروبا في العشرين سنة الماضية»[(١)].

بعد الحدث الإجرامي في ١١/سبتمبر، وقيام الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي بما دُعيَ بالحرب على الإرهاب (ولا يذكر وصفه بالإسلامي دائماً وإنما هو معروف ضمناً)، ظهرت آثار العداء الغربي للإسلام بصورة بارزة ليس من قبل الرجل العادي أو الإعلام أو السياسيين بل من المؤسسات التشريعية والقضائية.

تضمن تقرير جمعية هلسنكي لحقوق الإنسان الصادر في عام ٢٠٠٥م الذي ناقش التميز العنصري والتعصب ضد المسلمين في المملكة المتحدة وفرنسا وألمانيا وإيطاليا والدانمرك وبلجيكا من دول الاتحاد الأوروبي، تضمن أمثلة معبرة للتعصب والتمييز العنصري ضد المسلمين فذكر أن المسلمين «يواجهون في الدول التي شملها التقرير، في أغلب الأحيان، التمييز العنصري في مجالات مثل التوظيف والإسكان والدخول إلى المرافق العامة، وأن المركز الأوربي لمراقبة

---

(١) مراد هوفمان، الإسلام عام ٢٠٠٠، ترجمة عادل المعلم.

التمييز العنصري "وفوبيا" الأجانب وجد الدليل الواضح على أن الأساس الديني حاضر في حالات التمييز العنصري ضد المسلمين في أوروبا، وأيضاً وجد المركز أن المسلمين هم على نحو ملحوظ أكثر ضحايا التمييز العنصري مقارنة بالأقليات الأخرى، ونتيجة لأحداث الحادي عشر من سبتمبر زادت حالة العداء للمسلمين في الاتحاد الأوربي وواجه المسلمون ضغطاً متنامياً في الوقت الذي تصاعدت فيه الحرب على الإرهاب... وأصبح أمراً اعتيادياً وعلى نحو متزايد الربط بين الإسلام والتعصب والإرهاب في الخطابات العامة... وفي إيطاليا والدانمرك صَوَّرَ سياسيون بارزون المسلمين على الملأ كتهديد أمني».

وعبرت الجمعية عن قلقها من أن (تلقي التوجيهات السلبية للتعصب والتمييز العنصري المتنامي ـ خصوصاً وأن الموقف الرسمي يغذي هذه الأفعال ـ بظلها على الجهود الإيجابية التي تهدف لاستيعاب المسلمين في المجتمع).

وذكر التقرير أنه «وفقاً للإحصاءات الرسمية لا يشارك حوالي ٥٠٪ من المسلمين والأقليات الأخرى في سوق العمل... وأظهرت الدراسات مراراً أن ممارسات التوظيف العنصرية كانت معوقاً رئيسياً.. وأن المحاكمات التي جرت خلال السنوات القليلة الماضية تشير إلى أن التمييز العنصري بناء على الانتماءات الدينية هو الشكل الأكثر شيوعاً للتمييز في سوق العمل».

وفي خصوص الإعلام والخطاب السياسي ذكر التقرير «أن حركة سياسية متطرفة في الدنمرك حذرت من غزو المسلمين البلاد وكان ذلك لأول مرة في منتصف الثمانينات».

وذكر التقرير أنه في المملكة المتحدة (واجهت وسائل الإعلام انتقادات بسبب تأجيجها التحيز وفقد الثقة بالمسلمين عبر بث تقارير غير مسؤولة وموتورة، وتصوير الإسلام في أحيان كثيرة بعبارات مثل: «الأصولية»، وفي الوقت الذي حظي فيه المسلمون المتطرفون بتغطية إعلامية مكثفة بذلت جهود محدودة للمقارنة بين وجهات نظر هؤلاء ووجهات نظر الغالبية من المسلمين، وأججت خطابات بعض الممثلين السياسيين التعصب أيضاً ضد المسلمين في البلاد، وعلى وجه الخصوص جعل الحزب القومي البريطاني المسلمين كبش فداء وانخرط في جهود ترمى «إلى حفظ بريطانيا خالية من الإسلام»، وفي "إيطاليا" «تعرضت وسائل الإعلام للانتقادات بسبب مساهمتها في تأجيج المشاعر المعادية للإسلام عبر الانخراط في كتابة التقارير التحريضية والمبالغة في التغطية لأصوات التطرف الإسلامي والربط بين المسلمين عموماً وبين الأصولية الدينية»،"وفي ألمانيا" «واجهت بعض وسائل الإعلام انتقادات بسبب تناولها وجهات نظر الجماعات الأصولية وكأنها تمثل جميع المسلمين وهو ما أسهم في تأجيج التحريض والمواقف السلبية نحو المسلمين»، "وفي بلجيكا" «من بين منظمات أخرى أبدت المنظمة الأوروبية لمحاربة التمييز العنصري والتعصب قلقها من اللهجة العنصرية التي تسود الأوساط السياسية في بلجيكا، ومن أن بعض الأحزاب السياسية تنخرط في دعاية عنصرية صريحة وهو ما أسهم في تغذية المواقف العنصرية».

وفيما يتعلق بسلوك السلطة التنفيذية أشار التقرير إلى أنه في فرنسا «كانت الطلبات التي يتقدم بها المسلمون لبناء أماكن للعبادة

تواجه بالرفض كما ذكرت التقارير على المستوى المحلي في أغلب الأحيان ،وفي أحيان أخرى كانت الإدارات المحلية ترفض مثل هذه الطلبات دون مبرر» كما ذكر التقرير «أن المسلمين واجهوا التمييز العنصري على يد السلطات الرسمية في ألمانيا فيما يتعلق بمسائل مثل افتتاح أماكن العبادة أو فصول التوجيه الديني في المدارس، ووُجِهَت المطالب بتقديم تعليم ديني إسلامي في المدارس الحكومية بالرفض».

وذكر التقرير أنه في فرنسا «لأسباب مختلفة لم يقم سوى عدد محدود من الدعاوى القضائية الخاصة بالتمييز العنصري من قبل المسلمين والأقليات الأخرى، وكان نادراً ما تطبق المحاكم تدابير تجاه التمييز العنصري، وهناك أيضا تقارير تشير إلى أن الشرطة في بعض الحالات رفضت تسجيل شكاوى التمييز العنصري التي تقدم بها مسلمون».

وفي المملكة المتحدة (انتقدت منظمات إسلامية وحقوقية الحكومة البريطانية بسبب أن الحملة ضد الإرهاب استخدمت لصالح وصم الجالية المسلمة في البلاد كافة، وبعد ١١ سبتمبر اعتقل ٦٠٠ شخص بمظلة قانون مكافحة الإرهاب وكانت الأكثرية من المسلمين، وقد أطلق أكثر من نصفهم دون اتهام واتهم نحو ١٠٠ من أولئك الذين اعتقلوا بأنشطة ليست ذات صلة بالإرهاب وأدين فقط ١٥ من هؤلاء بمثل هذه الجرائم، وأظهرت دراسة حديثة لإحدى عشرة حالة من هذه الإدانات أن ثلاثاً منها فقط تخص مسلمين... وقد أكد معهد العلاقات العرقية على التناقض بين نسبة الاعتقالات ونسبة الإدانة في ظل قوانين مكافحة الإرهاب، وكذلك التناقض بين

الاتهام الديني لأولئك الذين يتم اعتقالهم والذين تتم إدانتهم، وهو ما يثير قلقاً شديداً حول الاستخدام المفرط والعنصري لصلاحيات الاعتقال ضد المسلمين، وأيضاً أبدى معهد العلاقات العرقية قلقه من تركيز وسائل الأعلام المكثف في أغلب الأحيان حين تسفر مداهمات الشرطة عن اعتقالات بمظلة قوانين مكافحة الإرهاب، بينما تندر التغطية بمعنى الكلمة عندما يطلق سراح أولئك الذين تم اعتقالهم، ونتيجة ذلك أن يترك لدى العامة انطباع مؤداه أن النظام القضائي الجنائي البريطاني يحاكم الإرهابيين المسلمين بنجاح رغم حقيقة أن أغلب أولئك المسلمين الذين يتم اعتقالهم بناء على ادعاءات بالإرهاب لا يتهمون بأنشطة إرهابية على الإطلاق)، وذكر التقرير أن «الشرطة اعترفت أيضاً بأن الإفراط في استخدام صلاحية التوقيف والتفتيش ضد بعض الجماعات له تأثير سلبي كبير على علاقات الجالية وزادت من مستوى انعدام الثقة في الشرطة».

وفي إيطاليا ذكر التقرير أنه «طبقاً لنشيطين مناهضين للعنصرية فإن الكثير من المسلمين الذين تعرضوا لانتهاكات لم يبلغوا الشرطة بما واجهوه خوفاً من أن لا تؤخذ بجدية بل إن الشرطة في حالات كثيرة أخفقت سواء في التحقيق في الانتهاكات التي كانت علمت بها، أو محاكمة المسؤولين عنه، وقد عبرت مفوضية الأمم المتحدة لمناهضة التمييز العنصري ومنظمات غيرها عن قلقها من أن السلطات في إيطاليا لا تتخذ إجراءات فعالة دائماً لمنع العنف المدفوع عرقياً أو محاسبة المسؤولين عنه، وأشار مناهضو العنصرية أيضاً إلى

أن المسلمين يجدون دوماً صعوبة في الثقة بالسلطات منذ عبر مسؤولون حكوميون كبار مراراً عن مواقف عدائية نحو المسلمين».

أما فيما يتعلق بالسلطة التشريعية والقضائية فقد تضمن التقرير فيما يتعلق بفرنسا أنه «في السنوات الأخيرة ثبت إلى حد كبير أن الفكرة الفرنسية بشأن هوية وطنية واحدة والتفسير الفرنسي لمفهوم الدولة العلمانية لا يتماشى وحقيقة التعددية الثقافية للمجتمع الفرنسي المعاصر، في الوقت نفسه تصاعد التعصب والتمييز العنصري ضد الجالية المسلمة في البلاد» وتضمن التقرير أنه «منذ أواخر الثمانينيات كانت هناك حالات عديدة واجهت فيها فتيات مسلمات الطرد من المدارس بسبب رفضهن خلع الحجاب.. وفي ربيع عام ٢٠٠٤م أصدر قانون جديد يمنع الارتداء للرموز الدينية» «وكان واضحاً أن تحديد حرية المسلمات في لبس الحجاب وهو واجب ديني وليس مجرد رمز كان مقصوداً في الأساس بإصدار القانون الجديد»، وذكر التقرير أن «منظمات حقوق الإنسان انتقدت القانون الجديد لانتهاكه الحرية الدينية» وسجلت جمعية هلسنكي لحقوق الإنسان ملاحظتها بأن «الدولة ليس من صلاحيتها البت في شرعية مظاهر دينية ما، طالما إنها لا تنتهك حقوق الإنسان الأساسية لأشخاص آخرين ولا تعرض الأمن العام أو الصحة أو الأخلاق للخطر».

وعن ألمانيا ذكر التقرير أنه «خلال السنوات القليلة الماضية أصبحت مسألة ارتداء المسلمات الحجاب محل نزاع» وبالرغم من أنه (في عام ٢٠٠٣م) حكمت المحكمة الدستورية الفيدرالية بأن قرار ولاية بادين ـ فورتمبرج بمنع مدرسة مسلمة من ارتداء الحجاب كان

قراراً جائراً وعلى أية حال وبالرغم من أن الاحتجاج بأن تشريع الولاية الموجود في ذلك الوقت لم يكن يسمح بمثل هذا القرار فقد أشارت المحكمة إلى أن من حقوق أي من الولايات منفردة أن تتبنى التشريعات التي تبيح الحظر، وبعد قرار المحكمة الدستورية بدأت العديد من الولايات في إجراءات تبني مثل هذه التشريعات، وانتقدت منظمات حقوقية التشريعات الجديدة لانتهاك الحرية الدينية فضلاً عن مبدأ عدم التمييز بعد أن اتضح أنها تستهدف الحجاب الإسلامي على وجه الخصوص، وفي شهر يونيو عام ٢٠٠٤م وافقت المحكمة الإدارية الفيدرالية على التشريعات الجديدة التي تبنتها بادين ـ فورتمبرج وطبقاً للتشريع الجديد يحظر على المدرسات التعبير عن اعتقاداتهن الأيدلوجية أو الدينية من خلال الملابس التي تعتبر تهديداً لجو الاستقرار في المدرسة أو حياد الدولة، وقد استثنى التشريع التعبير عن القيم التعليمية والثقافية الغربية والمسيحية).

مع أن حادث ١١ سبتمبر وما دعي بالحرب ضد الإرهاب خلق جواً يساعد على ظهور المشاعر المعادية للإسلام إلا أن هذه المشاعر كانت موجودة قبل ذلك.

فمثلاً تضمن تقرير جمعية هلسنكي لحقوق الإنسان «أن التوجه لإشكالية وجود أشخاص من أصل أجنبي في الدانمارك تعود إلى منتصف الثمانينات» - وأنه في الدانمارك - «زاد القلق من أن الخطاب السياسي بشأن الأجانب والأقليات أصبح قاسياً جداً منذ منتصف الثمانينات»،"وفي فرنسا" «وفقاً للرابطة الفرنسية لمكافحة

فوبيا الإسلام فإن مشاكل التعصب ضد المسلمين ساءت تدريجياً في أوائل التسعينات».

وذكر التقرير أن «في المملكة المتحدة وفقاً لدراسة حكومية نشرت قبل عدة أشهر من ١١ سبتمبر فإن ثلثي المنظمات الإسلامية أبلغت عن مواقف وسلوكيات جائرة من قبل الشرطة تجاه المسلمين» وذكر التقرير أن مسحاً أجريَ في إيطاليا أظهر أن ٥٦٪ من الإيطاليين يعتبرون أن قوانين الإسلام «قاسية وبربرية» وأن مسحاً أجريَ في ألمانيا أظهر أن ٤٦٪ من الألمان يرون أن «الإسلام» دين رجعي.

وهذان المسحان وإن كانا أجريا بعد ١١ سبتمبر أي في عام ٢٠٠٣م، إلا أن نتيجتهما لا تختلف عن المسح الذي أجري في الولايات المتحدة عام ١٩٨٠م وأظهر أن ٤٩٪ يعتقدون أن المسلم « قاس وبربري».

وفي يناير من عام ٢٠٠٥م، أصدرت المحكمة العليا في الدانمرك حكماً قضى بأن لأحد الأسواق العامة (سوبر ماركت) الحق في طرد مسلمة من العمل بسبب ارتدائها الحجاب.

وفي إبريل من العام نفسه صدر كتاب رسمي عن السيرة الذاتية للملكة مارجريت الثانية وقد تضمن تصريح الملكة: «إننا نواجه هذه السنوات تحدياً من الإسلام على المستوى العالمي والمستوى المحلي، ويجب أن نواجه هذا التحدي بجدية، لقد أغفلنا هذه المواجهة لمدة طويلة بسبب تسامحنا وكسلنا» «يجب أن نظهر معارضتنا للإسلام ولا نخفيها، وأن نتحمل ـ في بعض الأحيان خطر وصمنا بعدم التسامح، لأن هناك أشياء يجب أن لانظهر تجاهها أي تسامح»، «حينما نكون متسامحين فيجب أن نعرف هل تسامحنا راجع إلى أنه يحقق مصلحتنا

العملية أم أنه راجع فقط إلى مجرد اقتناعنا بالتسامح»، «لقد أدركت لماذا يجد الشباب المسلم المحروم الملاذ في الدين، يجب أن نكافح هذا الميل بتعليمهم اللغة الدانمركية، فهذا هو السبيل لإدماجهم في مجتمعنا، يجب أن لا نكتفي بالتعايش مع المسلمين بل بأن نعيش مندمجين مع بعضنا البعض»[١].

بمناسبة حديث محطة الـ B.B.C عن تصريحات الملكة مارجريت المشار إليها آنفا ذكرت أن الدانمرك في السنوات الأخيرة أصدرت وطبقت سلسلة من الإجراءات والقيود ضد الهجرة .

وعلقت الـTelegraph على التصريحات المشار إليها بأن هذه التصريحات «دمرت سمعة الدانمرك العطرة كفردوس للحرية بالنسبة لأولئك الذين يتطلعون لحياة جديدة في أوروبا الشمالية».

والواقع أنه ربما لم يكن داع لهذه التصريحات ولا للإجراءات الدانمركية ضد الهجرة، لولا وجود حقيقة أن الإسلام صار هو الديانة الثانية في الدانمرك من حيث عدد الأتباع، وبالمثل لم تكن فرنسا قط في حاجة إلى إصدار القانون الذي يقيد استعمال الرموز الدينية في الأماكن العامة لولا حاجتها إلى مبرر سياسي لمنع المسلمات من ارتداء الحجاب.

وكانت الحجة السياسية في حالة فرنسا وحالة الدانمرك والحالات المماثلة وجوب اندماج الأقلية المسلمة في الأغلبية القومية،

---

(١) Telegruph, Co, Uk., April 15/2005, Islam on Line net, News B.B.C. Co. Uk ١٤/٤/٢٠٠٥م April 2005/4/15.

وقبل خمسة قرون جرت محاولة أوروبية لدمج المسلمين الأسبان في الأغلبية المسيحية في أسبانيا وأصدرت قوانين لهذا الغرض تولت محاكم التفتيش تنفيذها، ومن الصدف أن من بين هذه القوانين قانون يحرم على المسلمات ارتداء الحجاب، وفشلت هذه المحاولة التي استمرت قرنا كاملاً في تحقيق هدفها، وانتهى الأمر بطرد المسلمين الأسبان، وأثنى أحد كبار رجال الدين في أسبانيا على الملكة مارجرتا (زوجة الملك فيليب الثالث) بأن «حقدها المقدس الذي تضمره ضد المورو (المسلمين الأسبان) كان العامل الفعال للعمل من أجل الإنجاز الأسباني الكبير» أي طرد المورو الذين استحال إدماجهم بقوة القانون.

إن المشاعر السلبية ضد الإسلام التي عبرت عنها " مارجرت الثانية " ملكة الدنمارك في سيرتها الذاتية ما هي إلا رجع صدىً للمشاعر السلبية ضد الإسلام التي عبرت عنها قولا "مارجرتا " الملكة الإسبانية ـ قبل أربعة قرون ـ ، وهذا يعني أن بعض الأمور الراسخة في الثقافة الغربية، لا تستطيع أن تمحوها القرون.

خلاصة الفصل: إن التسامح الذي لازم تاريخ المسلمين وأماكن سلطانهم تجاه الأقليات المخالفة لهم في الأيديولوجية وقبول الإسلام التعددية الثقافية نظرياً وعملياً يدل على صلة التسامح الوثيقة بطبيعة الإسلام وجوهره.

وبالعكس فإن إجراءات عدم التسامح التي واجهتها وتواجهها الأقليات الإسلامية في الغرب لا تدل بالضرورة على أن الثقافة الغربية لا تعترف بالتسامح قيمة حضارية، وإنما تدل فقط على أن الثقافة الغربية لا

تنجح دائماً في اختبار الالتزام بهذه القيمة الحضارية عندما تواجه المشاعر السلبية للغربيين تجاه الإسلام.

إن المشاعر السلبية تجاه الإسلام هي من القوة والتجذر في الثقافة Culture الغربية بحيث لا يكون من العدل أن تعتبر آثارها في واقع الفكر والسلوك الغربي المعاصر دليلاً على إخفاق الثقافة الغربية في مجال قبول التعددية الثقافية.

من العدل أن نرى المبرر في مقتضيات الطبع البشري ،وفي هذا المعنى يقول جوستاف لوبون: (وقد يسأل القارئ لِمَ ينكر تأثير العرب علماء الوقت الحاضر الذين يقيمون مبدأ حرية الفكر فوق كل اعتبار ديني كما يلوح ؟ لا أرى غير جواب واحد عن هذا السؤال الذي أسأل نفسي به أيضاً وهو أن استقلالنا الفكري لم يكن في غير الظواهر بالحقيقة، وإننا لسنا أحرار الفكر في بعض الموضوعات كما نريد فالمرء عندنا ذو شخصيتين: الشخصية العصرية التي كونتها الدراسات الخاصة والبيئة الخلقية والثقافة، والشخصية القديمة غير الشاعرة التي جمدت وتحجرت بفعل الأجداد، وكانت خلاصة ماض طويل، والشخصية غير الشاعرة وحدها ووحدها فقط، هي التي تتكلم عند أكثر الناس وتمسك فيهم المعتقدات نفسها مسماة بأسماء مختلفة وتملى عليهم آراء هم فيلوح ما تمليه عليهم من الآراء حراً في الظاهر فيحترم، والحق أن أتباع محمد... كانوا عندما لا يرعبوننا بأسلحتهم كما في زمن شارل مارتل والحروب الصليبية، أو يهددون أوروبا بعد فتح القسطنطينية كانوا يذلوننا بأفضلية

حضارتهم الساحقة وأننا لم نتحرر من نفوذهم إلا بالأمس وتراكمت "مبتسراتنا"

الموروثة ضد الإسلام والمسلمين في قرون كثيرة وصارت جزء من مزاجنا وأضحت طبيعة متأصلة فينا تأصل حقد اليهود على النصارى الخفي أحياناً والعميق دائماً، وإذا أضفنا إلى مبتسراتنا الموروثة ضد المسلمين مبتسرنا الموروث الذي زاد مع القرون بفعل ثقافتنا المدرسية البغيضة القائلة: إن اليونان والرومان وحدهم منبع العلوم والآداب في الزمن الماضي، أدركنا بسهولة جحودنا العام لتأثير العرب العظيم في تاريخ حضارة أوروبا، ويتراءى لبعض الفضلاء أن من العار أن يرى أن أوروبا النصرانية مدينة لأولئك الكافرين بخروجها من دور التوحش، فَعَارٌ ظَاهِرٌ كهذا لا يقبل إلا بصعوبة[1].

عندما حدثت أعمال الشغب والعنف في فرنسا التي بدأت في ٢٧ أكتوبر ٢٠٠٥م، وامتدت إلى قرابة ثلاثمائة مدينة وقرية، نسبت إلى الإسلاميين، وبنيت على هذا الأساس تعليقات المعلقين وآراء المحللين بخاصة في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، وتمحورت حولها ضوضاء الإعلام العالمي، حتى الإعلام في العالم العربي والإسلامي، على سبيل المثال نلخص رأي المفكر والفيلسوف الفرنسي آلين فنكلكروت كما ورد في مقال الأستاذ جوزيف سماحة في «البيان» بتاريخ ٢٠٠٥/١١/٢٨م فيما يأتي:

---

(١) جوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، (ص ٥٦٩ ـ ٥٧٠).

إن التمرد الذي حصل ليس له أي سبب اقتصادي أو اجتماعي إنه تمرد ديني إثني فعل عنصري وليس رداً على العنصرية. إنَّ ما جرى هو تعبير عن كراهية للغرب ولفرنسا الجمهورية ،رد فعل متأخر على الماضي الاستعماري الذي تدرسه فرنسا بصفته ماضياً سلبياً يدل أن تقدمه على حقيقته بصفته نقلاً للحضارة إلى المتوحشين، التمرد جزء من الحرب التي يشنها بعض العالم العربي والإسلامي على الغرب وحضارته المسيحية اليهودية، إن الحل الوحيد هو الحل الأمني للمشكلة، إذا كان المهاجرون لا يشعرون بأنهم فرنسيون فما عليهم إلا الرحيل. اهـ

إن أخذ هذه الآراء نموذجاً للتصور الغربي تجاه الإسلام يبرره أن صاحبها أحد مثقفي فرنسا البارزين وأحد نجوم النشر والإعلان المؤثرين في صياغة الرأي العام، وحتى عندما صرح رئيس الاستخبارات الداخلية الفرنسية في ٢٠٠٥/١١/٢٥م أن المتشددين المسلمين غير متورطين في أعمال الشغب المشار إليها، وقال رئيس جهاز «جي. اس. بي» لراديو «آر. بي. ال.» «إن التيار الإسلامي ليس له صلة بالأحداث، وعلينا أن نبحث عن أسباب أخرى، وقال عن الإسلاميين: إنها ليست معركتهم لذلك لم يشاركوا فيها».

بالرغم من هذه الحقيقة المعلنة فقد ظل الإعلام والرأي في الغرب يربط بين تلك الأعمال من أعمال الشغب والعنف، وبين الإسلام .

الفصل السابع

العلاقــات الدولية

(١)

بالرغم من استناد السياسيين الدائم إلى القيم الخلقية، وإلى القانون الدولي في تبرير سلوكهم في العلاقات الدولية المعاصرة فإن الواقع ـ كما هو معروف، وكما تقرره الكتب المدرسية المؤلفة في مادة العلاقات الدولية ـ أن العلاقات الدولية المعاصرة سواء في حالة السلم أم الحرب، تقوم على أساس المصلحة القومية والقوة، ولا تقوم على أساس الأخلاق أو القانون إذا لم يتفق أي منهما مع المصلحة القومية والقوة.

ينقل الأستاذ جوزيف فرانكل في كتابه المدرسي «العلاقات الدولية» عن الدكتور رينولد نيبر قوله: «إن البشر بدلاً من أن يمدوا قواعدهم الأخلاقية لتشمل السياسة الدولية فإنهم ينزعون إلى استخدام السياسة للتنفيس عن نزعاتهم غير الأخلاقية»[١].

وحتى لو سلم بأن للقيم الأخلاقية أثراً على العلاقات الدولية، فإن مشكلة أخرى تواجهنا هي الغموض في تحديد الأخلاق الدولية، يقول جوزيف فرانكل: «إن الذي يجعل الأخلاق الدولية على ما هي عليه من الغموض هو أن معناها لم يحدد قط بوضوح، كما إنه لم يوجد بعد اتفاق بين المفكرين على العلاقة بين قواعد الأخلاق الفردية

---

(١) جوزيف فرانكل، ترجمة غازي القصيبي، العلاقات الدولية، ص ٧١.

وقواعد الأخلاق الدولية. وتذهب إحدى المدارس الفكرية متبعة في ذلك مكيافيلي إلى إنكار الأخلاق الدولية كلية»[١].

ويلاحظ جوزيف فرانكل: «إن أي تحليل واقعي للعلاقات الدولية، لا يسعه أن يتقبل دون مناقشة دعاوي رجال السياسة المكررة في كل البلدان أنهم محكومون بالقيم الأخلاقية، إن من الواضح أن الأخلاق كثيراً ما تُستدعَى وبأسماء مختلفة لا لشيءٍ إلا لإضفاء قدر من الاحترام على المصالح الأنانية للدولة كما أن اللجوء إلى الأخلاق تبرير شائع مريح في يد الطرف الذي يعارض الحقوق القانونية لطرف آخر»[٢].

وفيما يتعلق بالقانون الدولي فكما يلاحظ جوزيف فرانكل: «إن التشابه في الاسم بين القانون الوطني والقانون الدولي لا يعني تماثلاً في طبيعة القانونين، إن القانون الدولي يعمل في محتوى اجتماعي مختلف تماماً، وهو لا ينهض عن اتفاق اجتماعي كالقانون الوطني، ودون سلطة مركزية تضمن تطبيق الجزاء على مخالفة قواعده، والدول تختلف عن الأفراد من حيث إنها لا تعد رعايا للقانون، ذلك لأن القانون الدولي ليس قانوناً فوق الدول... وهذا الوضع لا يتفق وطبيعة النظام القانوني إلى درجة أن بعض رجال القانون ينكرون الطبيعة القانونية للقانون الدولي كلية بسبب افتقاره إلى الخاصية الأساسية للقانون وهي الجزاءات الفعالة»[٣]، ويلاحظ

---

(١) جوزيف فرانكل، ترجمة غازي القصيبي، العلاقات الدولية ، ص ١٦٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٦٩.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٧١.

جوزيف فرانكل أنه «ليس من الغريب أن نجد اختلافاً كبيراً حول تقييم أهمية (القانون الدولي) فبينما يعتبره بعض الناس مجرد قانون صوري يرى آخرون أن رجال القانون بإمكانهم لو أتاح لهم رجال السياسة المجال أن يضعوا مجموعة من القواعد القانونية تكفل السلام على الأرض»[1].

إن الواقع أن المصلحة القومية مع القوة هي ما يحدد دور القانون والأخلاق في العلاقات الدولية وليس العكس.

ويقرر جوزيف فرانكل أن «المصلحة القومية هي المفتاح السياسي في السياسة الخارجية ويرتد هذا المفهوم في جوهره إلى مجموع القيم الوطنية»[2] ولكن فرانكل يلاحظ أنه «إذا كان من الصعب بيان المقصود بالمصلحة الوطنية كفكرة مجردة فإن من المستحيل أن نجد إجماعاً على ما تعنيه في قضية معينة، إن الجدل المتكرر حول السياسة الخارجية يرتكز على التفسيرات المختلفة للمصلحة الوطنية»[3]، وبما أن مفهوم المصلحة الوطنية يرتد في جوهره إلى مجموع القيم الوطنية، فكما يلاحظ فرانكل: «إن النظم القيمية يعوزها اليقين عامة، بل إنها أحياناً تتضمن قيماً متضاربة، وقد تتعقد الأمور أكثر من ذلك، وقد يستهدف الساسة التضليل من وراء

---

(١) جوزيف فرانكل، ترجمة غازي القصيبي، العلاقات الدولية ، ص ١٧٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥١.

(٣) المصدر نفسه، ص ٥٢.

تصرفاتهم بل إنهم أحياناً طبقاً لنظرية فرويد لا يعرفون بالضبط حقيقة الدوافع التي تسيرهم»[١].

ومن ناحية أخرى يقرر جوزيف فرانكل أن «مشكلة القوة تدخل جميع أنواع العلاقات الدولية، ويدور عالم السياسة كله حول ممارسة القوة والبحث عنها، غير أن القوة في السياسة الدولية أوضح بكثير وأقل قيوداً من القوة في السياسة الداخلية، ولهذا فكثيراً ما تسمى السياسة الدولية بسياسة القوة، ولقد أدى الدور المهم الذي تؤديه القوة في العلاقات الدولية إلى نشوء مدرسة فكرية تفسر العلاقات الدولية على ضوء مفهوم القوة... من المستحيل قط إزالة القوة، والمشكلة التي تواجهنا ليست في كيفية إزالة القوة ولكن في كيفية السيطرة عليها وإبقائها ضمن القنوات المشروعة»[٢].

من الاقتباسات السابقة يمكن استخلاص ما يأتي:

أن هناك خصيصتين تطبعان منهج العلاقات الدولية في الحضارة المعاصرة (الحضارة الغربية) :

أ. هشاشة القوة الإلزامية للقواعد القانونية المفروض أن تحكم العلاقات الدولية.

ب.هشاشة الأساس الأخلاقي الذي يرتكز عليه المنهج.

---

(١) المصدر نفسه، ص ٥٢.

(٢) جوزيف فرانكل، ترجمة غازي القصيبي، العلاقات الدولية ، ص ٩٣ ـ ٩٤.

لذا فإن من الطبيعي أن تكون العلاقات الدولية مؤسسة في هذا المنهج حقيقةً وواقعاً، على المصلحة الوطنية والقوة.

على أنَّا رأينا أن المصلحة الوطنية الحقيقية يصعب تعيينها وأنه ليس من الضروري ـ واقعاً ـ أن تحكم بمعايير موضوعية، وأنها قابلة بصفة فائقة للمرونة والتكييف في يد صانع القرار، وأن القوة تحكم تعيين المصلحة الوطنية أكثر مما تحكم المصلحة الوطنية سلوك القوة.

وإذا استحضرنا هذه الأمور في الذهن أمكننا تقييم مدى سلامة وتحضر وإنسانية منهج الحضارة الغربية في العلاقات الدولية، ومدى صلاحية هذا المنهج لإبعاد شبح الفناء والدمار الذي يهدد البشرية في ظل التسابق والتسارع بين الدول في إنتاج وحيازة تقنية الموت.

إن المبدأ الذي يرتكز عليه منهج الحضارة الغربية في العلاقات الدولية لا يختلف عن المبدأ الذي يحكم سلوك قاطع الطريق، أو عصابات الجريمة المنظمة، بل سلوك الحيوانات في الغابة، يقول جوزيف فرانكل: «إن محاولة تطبيق القواعد التي تحكم تصرفات الأفراد على تصرفات الدول محاولة فاشلة.. لقد نبه كثير من مفكري القارة الأوروبية ـ منذ ميكيافيلي ـ إلى ذلك التباين بين طبيعة البيئتين الداخلية والدولية»[١]، «الحرب بين العصابات تزودنا بمثل ذي دلالة، العصابات شأنها في هذه الحالة شأن الدول تفتقر إلى

(١) جوزيف فرانكل، ترجمة غازي القصيبي، العلاقات الدولية ، ص ١٣.

وجود أنظمة قانونية قابلة للتطبيق»[١]، «بل إن هناك ما يشبه العلاقات الدولية في السلوك الاجتماعي للحيوانات.. إن اعتبارات البقاء كضمان الطعام وحماية أماكن التناسل هي التي تحكم تجمعات الحيوانات، وكثيراً ما تثور نزاعات ضارية بين أبناء الفصيلة الواحدة حول الاستئثار بمنطقة ما، وإبعاد الحيوانات الغريبة التي تحاول دخولها»[٢].

إن منهج الحضارة المعاصرة في العلاقات الدولية كان دائماً موضع قلق المفكرين الغربيين.

في السنوات الأخيرة لحياته كتب ألبرت أنشتاين:

«لقد ربحنا الحرب ولكن خسرنا السلام..، لقد وعد العالم ـ بعد الحرب ـ بالتحرر من الخوف، ولكن الخوف ـ بعد انتهائها ـ زاد في الواقع، لقد وعد العالم بالحرية والعدل ولكنا لا نزال نرى قوى الحرية تصب النار وتقصف بالقنابل شعوباً لا لشيء إلا لأنها تطالب بالحرية والعدل، وتدعم بقوة السلاح الأحزاب والأفراد الذين يحققون المصالح الأنانية لتلك القوى»[٣] «لقد أوجدت التقنية وسائل للتدمير جديدة وفعالة، وهذه الوسائل حين تقع في أيدي أمم تدّعي أن لها الحق في الحرية المطلقة للعمل تصبح تهديداً محدقاً بفناء الجنس البشري»[٤].

ويقول الفيلسوف الفرنسي جاك ماريتان: «لقد أفصح عالم الإنسان الحاضر عن الشر وفاض به حتى حطم ثقتنا، كم جريمة شهدناها لا يعوضها أي عقاب عادل... لقد اتجه العلم والتقدم نحو

---

(١)المصدر نفسه، ص ٩١.

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٥.

(٣) A. Einstin .out of later yeras. pp.200-201 . p.93

(٤) Ibdi, .p.136

دمارنا»[١]..«إن الروح الوثنية التي تشربتها حضارتنا ساقت الإنسان إلى أن يجعل هدفه القوة والقدرة على الكراهية في حين أن المثل السياسي الأعلى يجب أن يكون العدل»[٢]، «إن وضع المصلحة القومية فوق كل شيء وسيلة مؤكدة لفقد كل شيء، وإن العالم الحر لا يمكن تصوره إلا بالاعتراف بأن الصدق هو التعبير عمّا هو واقع، والصواب هو التعبير عما هو عادل، وليس هو التعبير عما هو نافع في وقت معين لمصلحة مجموعة بشرية معينة»[٣].

(٢)

يختلف منهج الإسلام في العلاقات الدولية عن منهج الحضارة المعاصرة اختلافاً كلياً، إذ يرفض الإسلام من البداية أن تبنى العلاقات الدولية على المصلحة الوطنية أو القوة.

قال تعالى: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [النحل: ٩١ -٩٢].

---

(١) J. Maritain. The Range of Reason.p.183

(٢) Ibdi, p.195

(٣) Ibdi, p. 183

الإسلام يفرض أن تُبنى العلاقات الدولية على العدل وعلى القوة الإلزامية للاتفاق، ومعروف أن الاتفاقات بين الدول هي المصدر الرئيس للقانون الدولي.

والعدل ـ في الإسلام ـ بخلاف ما هو واقع في الحضارة المعاصرة ـ قيمة مطلقة ذات معيار واحد، وقد عني القرآن بتقرير العدل بالأمر به ومدح المتصفين به والنهي عن الظلم وذم مرتكبيه، في أكثر من ثلاثمائة وخمسين موضعاً، وذلك في مثل الآية الكريمة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[المائدة: ٨]. قال المفسرون: إنها تعني لا يحملكم بغض قوم يقاتلونكم ويتظاهرون عليكم بالعدوان أن لا تعاملوهم بالعدل، قال ابن كثير "والله تعالى يأمر بالعدل لكل أحد في كل وقت وفي كل حال"[١].

العدل هو الحد الأدنى في بناء علاقة المسلم بغيره ولكن الإسلام يدعو المسلم بعد ذلك إلى درجات أسمى، فإذا كان العدل يعني المعاملة بالمثل فالمسلم مدعو إلى العفو والبر والإحسان.

وكما ينطبق هذا المبدأ على العلاقات الدولية في حالة السلم ينطبق عليها أيضاً في حالة الحرب.

(١) انظر تفسير ابن كثير (٣/٣٦٥).

في حالة الحرب يلاحظ في البداية من نصوص القرآن دلالتها على أن أشنع عمل للإنسان في علاقته مع غيره: سفك الدم والفساد في الأرض وإرادة العلو فيها.

فالأول عدوان على حياة الإنسان **والثاني** عدوان على مابه قوام حياة الإنسان، **والثالث** عدوان على حرية الإنسان.

وقد ورد التشنيع على هذه الصور الثلاث من السلوك البشري في أكثر من مائة وعشرين موضعاً من القرآن مثل قوله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠]، ومثل قوله: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

في الإسلام لم يشرع القتل في حالات القصاص والحدود والجهاد إلا لغرض مكافحة تلك الصور الثلاث من صور الشر، وبقدر ما يحقق هذا الغرض، وقد دل القرآن صراحة على هذا المعنى قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ﴾ [المائدة: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٣٩ -

٤٠]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾[البقرة:٢٥١].

(٣)

الجهـــاد

يطلق مصطلح الجهاد في الإسلام على ثلاثة عشر معنى:

أولها وأهمها وأحقها باسم الجهاد، جهاد النفس لحملها على الالتزام بشرع الله، كما جاء في الحديث الشريف «وأفضل الجهاد من جاهد نفسه في الله»(١).

ومن معاني الجهاد ما جاء به الحديث الشريف الآخر: «وأفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر»(٢).

ومن معاني الجهاد قتال المسلمين للمحاربين سواء من غير المسلمين أم من بغاة المسلمين، والجهاد بهذا المعنى الأخير وإن تضمن القتال فإنه يختلف اختلافاً جذرياً عن الحروب الأخرى في الدافع إلى القتال، والغاية منه، وفي القوانين التي تحكمه.

كل الدول الحديثة دون استثناء، وحتى الدول المعترف لها بالحياد كسويسرا تبذل جزءاً كبيراً من ميزانيتها، ونصيباً أعظم من

---

(١) صحيح الجامع الصغير، برقم (٢٠٠٩) وصححه الألباني.

(٢) رواه أبو داوود، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي ،برقم (٤٣٤٤)، وابن ماجه ،كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، برقم (٤١١) وصححه الألباني.

جهودها في تصنيع أو حيازة وسائل الموت والتدمير، وفي التدريب على القتل والإفناء.

والمصلحة الأنانية للدولة سواء كانت مصلحة حقيقية أم زائفة هي مع القوة ما يشكل الدافع الرئيس للحرب، ولا يمنع الدولة الحديثة من شن الحرب على دولة أخرى أن تكون هذه الأخيرة مسالمة للأولى أو عاجزة عن تهديدها، وفي الممارسة العملية للحرب لا تلتزم الدولة المحاربة بأي قانون أو خلق، ولا تشكل الضرورة الحربية تحديداً لسلوكها الحربي.

بخلاف ذلك فإن الجهاد الحقيق بهذا الاسم والذي هو ذروة سنام الإسلام، والذي هو فرض عين أو فرض كفاية ـ حسب الأحوال ـ على المسلم القادر عليه ـ والذي وعد المشترك فيه بالنصر أو الشهادة ،قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١١١].

الجهاد الموصوف بما سبق هو ما تحكمه ثلاثة مبادئ أساسية تضمها مجتمعة الآية الكريمة: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة:١٩٠].

(**المبدأ الأول**) الدافع الأخلاقي والغاية النبيلة بأن يكون القتال في سبيل الله فالقتال لمصلحة أنانية لفرد أو جماعة، أو بدافع الحقد

والانتقام، أو استجابة لعاطفة العداوة والبغضاء سواء كان المقاتل مسلماً أم غير مسلم لا يكون جهاداً ، ولا يترتب عليه جزاء المجاهد ولا تتناوله أحكام الجهاد.

ولكن متى يكون الجهاد في سبيل الله ؟

لقد تضمن القرآن صوراً يمكن الاهتداء بها لتحديد ما هو في سبيل الله وما يوجد به شرط الجهاد وتشمل هذه الصور:

(أ) رد العدوان:

كما في قوله تعالى: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٩]، وقوله: ﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ﴾ [البقرة: ١٩١].

(ب) الدفاع ضد الظلم وحماية المظلومين:

كما في قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ [الحج: ٣٩ -٤٠]، وقوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩].

(ج) الدفاع ضد الإفساد في الأرض:

كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ ﴾ [المائدة: ٣٣].

(د) القتال لحماية حق الإنسان في اختيار أن يكون الله إلهه لا إله له سواه:

كما في قوله تعالى: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ ﴾ [البقرة: ٢١٧]، قال القرطبي في تفسير قوله تعالى ﴿ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ ﴾ [البقرة ١٩١]: "قال الجمهور: معنى الفتنة هنا فتنتهم المسلمين عن دينهم حتى يهلكوا، أي أن ذلك اشد اجتراماً من قتلكم في الشهر الحرام"[١].

وقال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ ﴾ [البقرة:١٩٣]، أخرج البخاري في تفسير هذه الآية عن نافع أن رجلاً سأل ابن عمر رضي الله عنه فقال يا أبا عبدالرحمن ألا تسمع ما ذكر الله في كتابه: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ ﴾ قال فعلنا على عهد رسول الله ﷺ

(١) القرطبي ،الجامع لأحكام القرآن ،(٣/٥٠).

وكان الإسلام قليلاً فكان الرجل يفتن عن دينه إما قتلوه وإما يعذبونه **حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة**[١].

المبدأ الثاني: أن يكون قتال المسلمين ضد من يقاتلهم:

قال تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنفال:٦١].

وقال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣]. قال الطبري عن مجاهد: «فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين» يقول: لا تقاتلوا إلا من يقاتلونكم.

وقال الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٠]، عن سعيد بن عبدالعزيز قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطاة: إني وجدت آية في كتاب الله: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]، أي لا تقاتل من لا يقاتلك، ورد الطبري على من قال بنسخ الآية بقوله: وأولى هذين القولين بالصواب القول الذي قاله عمر بن عبدالعزيز، لأن دعوى المدّعي نسخ آية يحتمل أن تكون غير منسوخة، بغير دلالة على صحة دعواه تحكم والتحكم لا يعجز عنه أحد.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة، برقم (٤٥١٤).

وقال تعالى: ﴿ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ٩٠]، قال ابن كثير: أي فليس لكم أن تقاتلوهم ما دامت حالهم كذلك.

وقال تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة: ٨].

وهذا المبدأ تطبيق لقاعدة المعاملة بالمثل الحاكمة للحد الأقصى المسموح به للعنف في معاملة المسلم لغيره .

المبدأ الثالث: عدم تجاوز ضرورات الحرب، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة:١٩٠].

وهذا المبدأ قيد على قاعدة (المعاملة بالمثل) فلا خيار للمسلم المجاهد في عدم الالتزام بالمعايير الخلقية في معاملة العدو المحارب وإن كان العدو لا يلتزم بها، ولا خيار للمسلم المجاهد في عدم الوقوف عند حدود الله وإن كان عدوه قد تجاوزها، فإذا مثل أعداء المسلمين بقتلى المسلمين فلا يجوز للمسلمين معاملتهم بالمثل، وإذا قتل الأعداء نساء المسلمين أو صبيانهم أو غير المقاتلين منهم فلا يجوز للمسلمين أن يقتلوا نساء الأعداء أو صبيانهم أو غير المقاتلين منهم.

وقد أفاض المفسرون عند تفسيرهم للآية الكريمة: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠]، في ذكر ما ورد من النصوص عن النبي ﷺ وأصحابه تطبيقاً لهذا النص الكريم. فروى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير الآية

الكريمة: يقول: لا تقتلوا النساء ولا الصبيان ولا الشيخ الكبير ولا من ألقى إليكم السلم وكف يده [عن قتالكم] فإن فعلتم ذلك فقد اعتديتم) [(١)]، وقال الإمام القرطبي في تفسير الآية الكريمة: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ﴾ [المائدة: ٨]: "ودلت الآية أيضا على أن كفر الكافر لا يمنع من العدل عليه ، وأن يقتصر بهم على المستحق من القتال والاسترقاق ـ وأن المثلة بهم غير جائزة وإن قتلوا نساءنا وأطفالنا وغمونا بذلك ـ فليس لنا أن نقتلهم بمثلة قصدا لإيصال الغم والحزن إليهم" [(٢)].

وبصرف النظر عن أن المسلمين بعد العصور الأولى أخلّوا بعض الأحيان بالمبدأين الأول والثاني لاسيما في الحروب بين المسلمين وإخوانهم من المسلمين، فإن تاريخ الإسلام يدل على أنهم طبقوا دائماً المبدأ الثالث دون استثناء.

وعلى كل حال فإن الحروب التي لم يلتزم فيها بالمبادئ الشرعية للجهاد لم تعتبر في أي وقت جهاداً لا من قبل المؤرخين ولا من قبل الفقهاء.

وقد يُسمي المحاربون المسلمون الذي لا يلتزمون بمبادئ الجهاد وأحكامه أنفسهم (مجاهدين)، ولكن هذه التسمية لا تغير الحقيقة بل قد تثير سخرية المسلم العادي، على سبيل المثال كان الأفغان المشاركون للتحالف الدولي في حرب أفغانستان في خريف عام ٢٠٠١

---

(١) الطبري، جامع البيان، (٥٦٣/٣).

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (١١٠/٦).

م يسمون أنفسهم «مجاهدين» ويسمون قتالهم في صف التحالف الدولي «جهاداً». ولم يكن حتى الإعلام الغربي يقبل منهم هذه التسمية وإن كان قد قبلها في حرب المقاومة الأفغانية للغزو الروسي قبل ذلك.

في ضوء ما سبق فإنه بمقارنة الحروب المعاصرة بالجهاد فإن من الصعب أن نجد منها ما يماثل الجهاد، في نبل الدافع والغاية، وتحكيم قواعد العدل، ورعاية الاعتبارات الإنسانية.

بل ليس من الصعب أن نحكم بأنه لا توجد حرب نبيلة وعادلة ومراعية للاعتبارات الخلقية والإنسانية إلا الجهاد.

بل عندما نلاحظ الفرق بين طبيعة الجهاد وطبيعة الحروب المعاصرة بما تلقيه كلمة حرب من ظلال وإيحاءات تشارك في صياغة معنى ومضمون هذه الكلمة، فإنه يكون من غير الملائم اعتبار القتال في الجهاد حرباً بمعنى ومضمون الحرب المعاصرة.

(٤)

إذا استحضر القارئ أن القتال هو ذروة العنف البشري، وأبرز مظاهر العدوانية وعدم التسامح، وإذا أدرك أن الإسلام لا يبيح من صور القتال إلا الجهاد محكوماً بالمبادئ المشار إليها فيما سبق ،استطاع أن يقدر مدى المسافة التي تفصل بين الإسلام ديناً ومنهجاً للحياة وبين الحرب وصنوف العنف الأخرى مذاهب وممارسات للبشر في الواقع المعاصر.

وإذا استحضر القارئ معالم المنهج الإسلامي في العلاقات بين الدول، وقارنه بالمنهج المعترف به والمطبق فعلا في الوقت المحاضر، استطاع أن يقدر حكمة الإسلام في بناء منهجه على العدل قيمة مطلقة ذات معيار واحد ثابت مهما تغيرت الظروف والأحوال، وعلى الوفاء بالعقود قوة ملزمة تبنى عليها العلاقات بين الدول.

من السهل أن يدرك القارئ مدى الضرورة أن تأخذ البشرية بالمنهاج الإسلامي إذا أرادت أن تبعد شبح الخطر المحدق بها والذي يهددها بالفناء، لاسيما عند ملاحظة الحقيقة التي عبر عنها المفكر الأمريكي موريس كلارك بقوله: «إن القوة بغير هدف إنساني أصبحت وثناً يعبد يقود حضارتنا إلى حافة الفوضى والدمار وإنه لا معنى أن نأمل في عالم أسلحة الدمار الشامل بقيام عالم آمن تسوده الحرية والديمقراطية، وإنه لا بد من تنمية قدراتنا على التفكير السليم والعمل البناء، إذ إن ذلك هو فرصتنا الوحيدة للكفاح بالرغم من سيف داموكليز المسلط على رقابنا»[1]، وعبر عنها الفيلسوف البريطاني بر تراندرسل بقوله: «إن العالم يواجه كارثة محدقة، ويتساءل في حيرة لماذا لا توجد فرصة للإفلات من مصير مؤسف لا يرغب فيه إنسان؟ إن السبب الرئيس في ذلك أننا لم نهيئ عقولنا للتعامل الملائم مع وسائلنا التقنية، وما زلنا نسمح لأنفسنا بطرق للتفكير ربما كانت تتلاءم مع عصر أكثر بساطة في وسائله.

---

(١) J. M. Clark. Alternative Seldom. PR. 6-7. 155,156

فإذا أردنا أن نحيا حياة سعيدة بوسائل التقنية الحديثة التي يمكن أن تمنحنا مستوى من السعادة أعلى من ذي قبل، فلا مناص لنا من نبذ بعض الآراء والاستعاضة عنها بغيرها، فنستعيض بالمساواة عن حب السيطرة، وبالتعاون عن التغالب، ونستعيض بالعدالة عن حب الغلبة وشهوة الانتقام»[١].

(٥)

السؤال الذي يتبادر إلى الذهن: هل منهج الإسلام في العلاقات الدولية واقعي؟

إن أي شخص يعيش في هذا العصر، لابد أن يرد على ذهنه لأول وهلة أن المنهج الإسلامي في العلاقات الدولية منهج مثالي غير قابل للتطبيق في عالم الواقع.

ولكن عندما نستعيد أحداث التاريخ نرى أن هذا المنهج طبق قبل أربعة عشر قرناً، وبالرغم من أنه طبق من جانب واحد، ولم يكن ممكناً أن تلتزم به إلا دولة الإسلام، فإن ذلك لم يحل بين هذه الدولة وبين أن يمتد نفوذها وسلطانها في خلال ثلاثين سنة بحيث يغطي سلطانها جزءاً كبيراً من المعمورة ويبلغ في امتداده أكبر مما وصلت إليه واحدة من أعظم إمبراطوريات التاريخ (الإمبراطورية الرومانية) في خلال ألف سنة.

---

(١) B. Russell. New Hope for a Shanging World. Pp.159-160

وبالرغم من أن تلك الدولة الإسلامية ـ مع عدم تكافؤ القوى، واضطرارها أن تقاتل في وقت واحد في جبهتين أكبر قوتين في العالم في ذلك الوقت، لم تتمكن من الانتصار العسكري والسياسي فحسب بل أمكنها تغيير حياة الشعوب بصورة جذرية وشاملة حيث تحولت تلك الشعوب ـ خلال مدة قصيرة ـ إلى الإسلام، وقامت حضارة إنسانية من أروع ما شهده التاريخ من حضارات.

وحتى الآن لا يزال المؤرخون في حيرة لتفسير سر هذه الظاهرة المدهشة التي تستعصى على التفسير الذي تعوده الناس لأحداث التاريخ.

ولكن هذه الحيرة لا ينبغي أن تواجه المسلمين، الذين يؤمنون بالقانون الإلهي: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ [محمد: ٧]، وليس نصرنا لله سوى التزامنا بالمنهج الذي رسمه لنا في علاقتنا به، وعلاقاتنا بخلقه ومن أبرز ملامح هذا المنهج في علاقة الإنسان بالإنسان العدل والوفاء بالعهد.

(٦)

مثال تطبيقي من التاريخ

وللمقارنة بين آثار تطبيق المنهج الإسلامي وغيره على سلوك الإنسان في حالة الحرب والغزو، يمكن ذكر مثال مدينة تعرضت للغزو والفتح عدة مرات وهي (مدينة القدس).

ففي عام ٦١٥ ميلادية وأثناء الحرب بين الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية، غزا الفرس (القدس) وحاصروها، ثم استولوا عليها

فكيف تم ذلك؟ سجلت كتب التاريخ أن المدينة أحرقت ونهبت، وجرت دماء السكان في مذابح مروعة وأحرقت الكنائس، وأهين المكان الذي يعتقد النصارى أن المسيح ولد فيه، وحمل الفرس معهم إلى بلادهم النفائس والمقدسات غنائم حرب، ومن بينها الصليب المسمَّى True Cross الذي يعتقد النصارى أن المسيح صلب عليه.

وخلال بضع سنين تغير مجرى الحرب بين الإمبراطوريتين وغلب الروم البيزنطيون الفرس وحاصروا القدس ثم دخلوها فأحرقوا ونهبوا وقتلوا من كان فيها من الفرس واليهود الذين كانوا ساعدوا الفرس في الجولة الأولى نتيجة لعدائهم للنصارى.

وبعد حوالي عشر سنوات حاصر المسلمون القدس بعد انتصارهم على الروم في وقعة اليرموك، وبعد هزيمتهم لجيش أرطبون، ثم دخلوها فلم يقتل إنسان ولم ينهب بيت وأبرم المسلمون مع السكان ما عرف بالعهدة العمرية، والذي يقرأ الآن هذه العهدة دون علم بظروف إبرامها لا يمكن أن يتصور أنها معاهدة تمت بين غاز منتصر، ومغزو مهزوم. فتكون بذلك مثالا نادراً لتسامح المنتصر.

وبعد ٤٦٤ سنة حاصر الصليبيون القدس ثم دخلوها فقتلوا السكان المسلمين رجالاً ونساء وأطفالاً ونهبوا ودمروا وارتكبوا من الفظائع ما سجله المؤرخون الأوربيون في ذلك الوقت وبعده.

وبعد مرور أقل من قرن رد الله الكرة للمسلمين وحاصر صلاح الدين الأيوبي وجيشه المسلمون القدس ثم دخلوها فتكررت صورة سلوك الفاتحين المسلمين وشهدت كتب التاريخ الأوربية في ذلك الوقت وبعده، بما أظهره المسلمون من تسامح وعدل ورحمة.

عندما أهلَّ القرن العشرين كانت القدس مدينة مفتوحة، السيادة الحكومية فيها للمسلمين يساكنهم عدد من المسيحيين من السكان الأصليين والمهاجرين، وعلى أرض فلسطين كلها عدد لا يزيد عن خمسة وعشرين ألفا من اليهود وجزء كبير منهم قدم نتيجة للحركة الصهيونية الناشئة في أوروبا.

وقبل انتصاف القرن العشرين كان اليهود ـ الغزاة القادمون ـ من أوروبا ومن أجزاء أخرى من العالم قد بلغوا ملايين وأقاموا دولتهم، ودخلوا القدس وحلوا محل السكان الأصليين الذين تحولوا إلى لاجئين في أجزاء من فلسطين وخارجها.

وكان ذلك في أعقاب عمليات إرهابية فظيعة نفذتها عصابات الهاجانا وارغون وشتيرن وغيرها من العصابات الإرهابية اليهودية.

لقد تضمنت تقارير منظمة الصليب الأحمر الدولي وغيرها صوراً من الفظائع الإرهابية المرتكبة، مثل: مجزرة دير ياسين من أعمال القدس،التي وقعت قبل فجر الجمعة في ١٠/ابريل ١٩٤٨، حيث كانت العصابات بقيادة عصابة إرجون تعمد قصداً إلى قتل النساء والأطفال مستعملة أحياناً السكاكين والخناجر لبث الرعب في السكان وحملهم على ترك بلادهم ليحل محلهم الغزاة اليهود وقد وصف ضابط المخابرات في الهاجانا مايير بائيل في تقريره الذي كتبه عن مجزرة دير ياسين وكان شاهد عيان وصف المجزرة بقوله: «إن الجنود كانوا يذهبون من بيت إلى بيت يرمون وينهبون وينهبون ويرمون وكانت تسمع من داخل البيوت صرخات العرب عجائز ونساء وأطفالاً

كان الجنود كأنما كانوا مجذوبين مسممين عقلياً في قمة الإثارة»[١].

وقال ضابط عصابة إرجون الإرهابية التي نفذت المجزرة، يهوشوا جدرو دنشك «أخذنا أسرى، ولكننا قبل الانسحاب قررنا تصفيتهم كما قمنا بتصفية الجرحى وقتلنا النساء اللاتي لم يسرعن بالوصول لمنطقة تجميع الأسرى»[٢].

كانت المجزرة من الفظاعة بحيث انتقدها بن غوريون علناً بالرغم من أن هاجانا وافقت على العملية[٣] وأمدت القتلة بالسلاح[٤]، وقد وصف مناحيم بيجن قائد عصابة إرجون (I.Z.L) الذين انتقدوا المجزرة بأنهم منافقون ضيقو الأفق وكاذبون[٥]، وبعد انتهاء المجزرة أرسل بيجن رسالة تهنئة لجنوده قال فيها: «اقبلوا تهنئتي عن العمل الرائع الذي قمتم به، أبلغوا تقديري لكل الضباط والجنود، كلنا فخورون بالقيادة الممتازة وروح القتال العالية في هذه المعركة الكبيرة، قولوا للجنود لقد صنعتم تاريخاً لإسرائيل بشنكم الهجوم والانتصار، استمروا في مثل هذا العمل حتى الانتصار الأخير كما في

---

(١) Eric Silner, Begin Biography, 1984, p.94

(٢) Ibid, p.93

(٣) Ibid, p.91

(٤) Ibid, p.92

(٥) Ibid, p.88

دير ياسين في كل مكان سوف نهاجم ونسحق العدو، يا إلهي يا إلهي لقد اخترتنا لنحقق الانتصار»[١].

وبعد ثلاثة عقود من الزمن منح بيجن جائزة نوبل للسلام وذلك قبل مدة قصيرة من قيامه بحرب لبنان.

(٧)

وقد لفتت هذه المفارقة في السلوك الحربي بين المسلمين وغيرهم انتباه عدد من الكتّاب الغربيين ومن ذلك:

(أ) ARTHUS GILMAN إذ يقول: «بالمقارنة على سبيل المثال ـ بفظاعات الصليبيين حينما سقطت القدس في أيديهم عام ١٠٩٩م حيث قتلوا سبعين ألف مسلم رجالاً ونساء وأطفالاً فإن انتصار محمد كان دائماً محكوماً بأخلاقيات الدين لا بالانتهازية السياسية»[٢].

(ب) وDERMENGHEM حيث يقول: لقد نجحوا (المسلمون) لأنهم كانوا فعلاً يستحقون النجاح، لقد انتصر الإسلام لأنه قدم رسالة يحتاج إليها العالم الغربي، لقد تحمل المسلمون في البداية الاضطهاد دون مقاومة وبعد ذلك حينما قاوموا وانتصروا أبدوا من ضروب التسامح ما هو جدير بالاعتبار... لقد منح اليهود والنصارى بدفعهم الجزية الحماية الكاملة، ومنحت لهم الحرية في ممارسة معتقداتهم، واعتبروا جزء من نسيج المجتمع، لقد قال محمد ﷺ:

---

(١) Ibid, p.88

(٢) Arthus Gilman, Saracens, pR. 184-185

من آذى يهودياً أو نصرانياً كنت خصمه، وفاض القرآن والحديث بالتوجيهات إلى التسامح، ولقد طبق الفاتحون المسلمون الأولون هذه التوجيهات بدقة، عندما دخل عمر القدس أصدر أمره للمسلمين بأن لا يسببوا أي إزعاج للمسيحيين أو لكنائسهم، وعندما دعاه البطريق للصلاة في كنيسة القيامة امتنع وعلل امتناعه بخشيته أن يتخذ المسلمون صلاته في الكنيسة سابقة فيغلبوا النصارى على الكنيسة، يجب أن نعترف بأن العكس حصل فعلاً عندما دخل الصليبيون القدس، حيث تقدموا يخوضون في نهر من الدم، مصممين على أن يقطعوا رقاب جميع المسلمين لقد قال روبرتسون (المؤرخ الإنجليزي) إن أتباع محمد ،هم المتدينون الوحيدون الذين مزجوا التسامح بالحماس الديني[1].

(ت) R.V.C.BODLEY حيث يقول «عندما غزا الصليبيون القدس في عام ١٠٩٩ تركوا الموت والخراب حيثما مروا ولكن عندما هزم صلاح الدين الصليبيين، لم يتخذ أي إجراء انتقامي، وكذلك لم يدمر المسلمون البلدان التي غزوها كما فعل المحاربون من أصحاب الديانات الأخرى، حيثما مر المسلمون خلفوا شيئاً أفضل مما كان في السابق كانوا مثل السحاب المنهمر أخصبوا الأرض التي كان الآخرون خلفوا فيها الجدب والخراب»[2].

---

(١) Dermenghem, the live of Mahomet, 1930, p.330-331

(٢) R.V. C. Badly. The Messengers, 1954, p.136-137

(ث) قال ALCSANDER POWELE «في انتصارات المسلمين الحربية أظهروا درجة من التسامح أخجلت كثيراً من الشعوب المسيحية»(١).

(ج) B.SMITH حيث يقول: «عندما فتحت القدس في عهد الخليفة عمر بعد حصار طويل، لم يدمر أي مبنى إلا ما اقتضته طبيعة الحصار، ولم يُرق أي دم إلا في ساحة المعركة، ودخل عمر المدينة في صحبة البطريق حيث كانت تجري بينهما محادثة ودية عن تاريخ المدينة، وعندما حان وقت الصلاة دعاه البطريق للصلاة في كنيسة القيامة فامتنع خوفاً من أن يعتبرها المسلمون سابقة فيدعوا الحق في الصلاة في الكنيسة فيدعو ذلك إلى الإخلال بحرية النصارى في العبادة تلك الحرية التي كان يحرص على ضمانها، في عام ١٠٩٩ سقطت القدس أمام جيوش الصليبيين بعد حصار قصير المدة فأخذت المدينة بعاصفة من الفظاعة، وخلال ثلاثة أيام كان القتل يتم بدون تفريق بين رجل أو امرأة أو طفل، ذبح سبعون ألفاً من المسلمين، منهم عشرة آلاف في مسجد عمر نفسه»(٢).

(ح) وجوستاف لوبون حيث يقول: «ويثبت لنا سلوك عمر بن الخطاب رضي الله عنه في مدينة القدس مقدار الرفق العظيم الذي كان يعامل به

---

(١) Alexander Poull, Struggle of Power in Moslim Asia, p. 48

(٢) B. Smith, Mohammad and Mohammadanism, edn. 1874, p. 249

العرب الفاتحون الأمم المغلوبة، والذي ناقضه ما اقترفه الصليبيون في القدس بعد بضعة قرون مناقضة تامة فلم يرد عمر أن يدخل معه القدس غير عدد قليل من أصحابه وطلب من البطريق أن يرافقه في زيارته لجميع الأماكن المقدسة وأعطى الآهلين الأمان وقطع لهم عهداً باحترام كنائسهم وأموالهم وبتحريم العبادة على المسلمين في بيعهم»[1]، «وكان سلوك الصليبيين حين دخلوا القدس غير سلوك الخليفة الكريم عمر بن الخطاب رضي الله عنه نحو النصارى حين دخلها منذ بضعة قرون، قال كاهن مدينة لوبوى ريمو ند داجيل: حدث ما هو عجيب من العرب عندما استولى قومنا على أسوار القدس وبروجها فقد قطعت رؤوس بعضهم وبقرت بطون بعضهم وحرق بعضهم بالنار فكان ذلك بعد عذاب عظيم، وكان لا يرى في شوارع القدس وميادينها سوى أكداس من رءوس العرب وأيديهم وأرجلهم. وروى ذلك الكاهن الحليم خبر ذبح عشرة آلاف مسلم في مسجد عمر فعرض الوصف اللطيف الآتي: لقد أفرط قومنا في سفك الدماء في هيكل سليمان وكانت جثث القتلى تعوم في الساحة هنا وهناك.. وكان الجنود الذين أحدثوا تلك الملحمة لا يطيقون رائحة البخار المنبعثة من ذلك إلا بمشقة. ولم يكتف الفرسان الصليبيون الأتقياء بذلك فعقدوا مؤتمراً أجمعوا فيه على إبادة جميع سكان القدس

---

(١) جوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، ص ١٣٥.

من المسلمين واليهود وخوارج النصارى فأفنوهم عن بكرة أبيهم في ثمانية أيام لم يستثنوا منهم امرأة ولا ولداً ولا شيخاً»[١].

«وتم طرد الصليبيين من القدس على يد صلاح الدين الأيوبي الشهير، .. وغلب ملك القدس الأسيف غى دولينزنان وأسره واسترد القدس في سنة ١١٨٧م ولم يشأ السلطان صلاح الدين أن يفعل بالصليبيين مثل ما فعل الصليبييون الأولون من ضروب التوحش فيبيد النصارى عن بكرة أبيهم فقد اكتفى بفرض جزية طفيفة عليهم مانعاً سلب شيءٍ منهم»[٢].

«ظلت القيادة للحملة الصليبية الثالثة ١١٨٩ -١١٩٢م في يد قلب الأسد ريكار دوس الذي اقترف جرائم وحشية كالتي اقترفها رجال الحملة الصليبية الأولى، وكان أول ما بدأ به ريكاردوس هو قتله أمام معسكر المسلمين ثلاثة آلاف أسير سلموا أنفسهم إليه بعد ما قطع لهم عهداً بحقن دمائهم، ثم أطلق لنفسه العنان في أعمال القتل والسلب. وليس من الصعب أن يتمثل المرء درجة تأثير تلك الكبائر في صلاح الدين النبيل الذي رحم نصارى القدس ولم يمسهم بأذى، والذي أمد فيليب أوجست وقلب الأسد ريكاردوس بالأزواد والمرطبات في أثناء مرضهما فقد أبصر الهوة العميقة بين تفكير الرجل المتمدن وعواطفه وتفكير الرجل المتوحش ونزواته،

---

(١) جوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر ، ص ٣٢٦ ـ ٣٢٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٢٩.

وأدرك أنه لايجوز أن يعامل أولئك الحمقى بغير ما تعامل به الوحوش الضارية»[١].

لم تكن الأديان المجوسية والنصرانية واليهودية هي مبعث العدوانية التي أظهرها الغزاة من أتباع هذه الديانات للمدينة المقدسة على نحو ما سبق، وإنما مبعثها الطبيعة البشرية التي أخفقت الأديان المذكورة في ترويضها ،في حين نجح الإسلام في ترويض هذه الطبيعة لدى جيش عمر وجيش صلاح الدين، ولم تكن المجازر التي ارتكبت ضد الفلسطينيين في عام ١٠٩٩ تختلف في نوعيتها عن المجازر التي ارتكبت ضدهم في عامي ١٩٤٧ -١٩٤٨، ولم تكن الأعمال الوحشية التي ارتكبت في مدينة القدس في القرن الحادي عشر تختلف في الطبيعة والباعث عن الأعمال التي ارتكبت في القرن العشرين في درسدن الألمانية أو ناجازاكي اليابانية أو ماى لى الفيتنامية، لم تختلف عن قصف المروحيات لأسرى مقيدين أو يصلون في قلعة قانجي الأفغانية، الإنسان هو الإنسان سواء كان خارجاً من ظلمات القرون الوسطى في أوروبا، أم متخرجاً من جامعة M.I.T في الولايات المتحدة الأمريكية.

المسافة بين التحضر والوحشية قصيرة يسهل على الإنسان أن يتخطاها ما لم يتربَّ في ظل ثقافة قادرة على أن تروض الطبيعة العدوانية في داخله.

---

[١] جوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر ، ص ٣٣٠.

ولن تكون الثقافة قادرة على ذلك إلا إذا كان التسامح والنفور من الظلم والعدوان جزءً من طبيعتها.

لقد ملك الإسلام هذه القدرة التي وصفها النبي ﷺ ، بقوله "بعثت بالحنيفية السمحة"[1].



(1) سبق تخريجه.

الفصل الثامن

الثقافة الغربية ـ والتسامح
الولايات المتحدة الأمريكية نموذجاً

قبل عشرين عاماً زار أحد أصدقائي الولايات المتحدة لأول مرة وعندما رجع سألته أي شيء لفت انتباهك في أمريكا أكثر من غيره، ولأن صديقي كان من عوام الناس محدود الثقافة جداً، فقد كنت أنتظر أن يكون جوابه: ناطحات السحاب أو الطرق والجسور العظيمة أو الأسواق الكبيرة أو ما شابهها من الأعمال المادية الظاهرة، ولكنه لدهشتي أجاب: الإنسان هناك له كرامة.

يصف الأمريكي أمريكا ـ وفي هذا الوصف قدر كبير من الحقيقة ـ بأنها «منارة الحرية الأعظم إشعاعاً والأسطع نوراً»[(١)]، وأنها البلد الذي تتحقق فيه «مطالب الكرامة الإنسانية وحكم القانون وتقييد سلطة الدولة، واحترام المرأة، واحترام الملكية الخاصة وحرية الكلام، والعدل والمساواة أمام القانون والتسامح الديني»[(٢)].

الولايات المتحدة من أكثر المجتمعات تنوعاً فهي بلد المهاجرين[(٣)] وبوتقة صهر الأجناس وذلك يجعلها مؤهلة لقبول التعددية الثقافية، وقابلية التعايش بين الثقافات المختلفة.

---

(١) مقتبس من خطاب الرئيس الأمريكي للشعب عشية ١١ سبتمبر ٢٠٠١م.

(٢) مقتبس من خطاب الرئيس الأمريكي للشعب عشية ٢٩ يناير ٢٠٠٢م.

(٣) New Encyclopaedia Britarnnica V, 29, p.191

سيادة الحرية في هذه البلاد وتكافؤ الفرص، والعمل الدؤوب مكّن لها من أن تكون عملاقاً اقتصادياً وأن تقدم للبشرية إنجازات مهمة في مجالات متعددة كالتقنية والعلوم والطب.

في عام ١٦٤٩ أجازت ولاية ماريلاند (إحدى الولايات الثلاث عشر الأساسية) قانون حرية العبادة أول قانون للتسامح الديني في أمريكا الشمالية وبصرف النظر عن أن هذا القانون كان محصوراً في نطاق عقيدة التثليث المسيحية(١) إلا أنه كان قانوناً رائداً في عالم الغرب للحرية الدينية(٢).

وأنجز الآباء المؤسسون إعلان الاستقلال والدستور ووثيقة الحقوق وكان لهذه الإنجازات الرائدة أعظم الأثر في تطور الحياة السياسية والاجتماعية في عالم الغرب وفي صياغة الثقافة الغربية.

على سبيل المثال تضمن إعلان الاستقلال: «نحن نعتبر أن الناس جميعاً خلقوا متساوين وأن خالقهم حباهم حقوقاً لا يجوز الافتئات عليها: حق الحياة وحق الحرية وحق السعي وراء السعادة».

سُمي المهاجرون الأولون (الحجاج) إشارة للطابع الديني الملتصق بتصوراتهم وحياتهم، وفي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر هاجر للولايات المتحدة ستون مليوناً من أوروبا هرباً من الاضطهاد الديني والسياسي أو الصعوبات الاقتصادية(٣).

---

(١) Ibid, p.293

(٢) قارن الفصل السادس من هذا الكتاب.

(٣) New Encyclopaedia Britannica v, 29, p.191

فكان من الطبيعي أن يكون لنداء الحرية الدينية، والحرية السياسية صدى في الثقافة الأمريكية، وأن يكون الدين جزءاً من مكونات هذه الثقافة ولم يكن غريباً أن تظهر مسوحات متعددة لجالوب، في السنوات الأخيرة أن ٩٤٪ من الشعب الأمريكي يؤمنون بالله وأن ٩٠٪ يصلون وأن ٧١٪ يؤمنون بالحياة بعد الموت(١)، يدين ٥٢٪ من السكان بالبروتستانتية و٢٧٪ بالكاثوليكية و٣٪ بالأرثوذكسية، أي أن الغالبية العظمى من السكان مسيحيون، ويتلقى ١٢٪ من الطلاب الأمريكيين التعليم في مدارس دينية مسيحية(٢).

وإذا كان التسامح يمد جذوره في تربة الرحمة والعفو فإن معاني الرحمة والعفو ذات صلة وثيقة بالمسيحية لاسيما في صورتها الأصلية أي الديانة التي جاء بها عيسى عليه السلام.

جاء في إنجيل لوقا منسوباً للمسيح: (أحبوا أعداءكم) وصرح القرآن بأن الله جعل في قلوب أتباع المسيح بن مريم رأفة ورحمة، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ [الحديد: ٢٧].

وفي المقارنة بين النصرانية واليهود جاءت الآية الكريمة: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ

---

(١) Patrick Glymm, God, The Evidence, 1997, p.171

(٢) Merit Student Eneyclopedia, 1981, v. 18, p.543

أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴾ [المائدة: ٨٢].

لهذا لم يكن غريباً شيوع التطوع للعمل الإنساني بالمال والعمل لدى شعب الولايات المتحدة بصورة قد لا يوجد لها مثيل في غيرها من بلدان العالم الغربي.

تظهر الاستطلاعات أن واحداً من اثنين من الشعب الأمريكي كان له مشاركة في التطوع للعمل الإنساني.

في عام ١٩٥٤م أصدرت المحكمة العليا في الولايات المتحدة حكماً بأن التمييز العنصري مخالف للدستور وبعد عشر سنوات أي في عام ١٩٦٤م صدر قانون الحقوق المدنية يلغي التمييز العنصري(١).

وبهذا القانون تخلصت الولايات المتحدة رسمياً من وصمة التمييز العنصري سابقة بذلك جنوب أفريقيا وروديسيا الشمالية وإسرائيل.

في عام ١٩٧٢ تبنى الكونجرس بدعم من الرئيس اقتراحاً بتعديل للدستور يضمن حق المساواة للمرأة، أطلق عليه E.R.A ولكن هذا الاقتراح أخفق في الحصول على موافقة عدد ملحوظ من الولايات(٢).

لما سبق لا يكون مجانباً للصواب القول بأن القيم الكونية التي تعترف بها فطرة الإنسان مثل العدل والحرية وكرامة الإنسان وتمجيد الرحمة والعفو والتسامح من مكونات الثقافة الأمريكية.

على أن للقمر وجها آخر..

---

(١) New Encyclopaedia Britannica, v.29, p.262

(٢) Ibid, p.264

ولعل أوضح تعبير عن هذا الوجه الآخر ما ورد في خطاب الرئيس الأمريكي كلنتون في جامعة كاليفورنيا سان دييجو في ١٤ يونيه ١٩٩٧م حيث يقول: «لقد ولدنا مع إعلان الاستقلال الذي أكد أننا خلقنا متساوين، ومع الدستور الذي حافظ على نظام الرق لقد خضنا الحرب الأهلية الدموية لنلغي الرق، ولكننا بقينا غير متساوين بالقانون لفترة قرن كامل تالٍ، لقد توسعنا في القارة باسم الحرية ولكن كنا بهذا التوسع ندفع السكان الأصليين ونخرجهم من بلادهم، إننا نرحب بالمهاجرين ولكن كانت كل موجة من موجات الهجرة تشعر بلسعات التمييز العنصري»[١].

وجاء في البيان الذي صدر عن معهد القيم الأمريكية في فبراير ٢٠٠٢م ووقعه ستون من المثقفين الأمريكيين وعبروا فيه عن تأييدهم لحرب التحالف الدولي بقيادة الولايات المتحدة ضد أفغانستان: «نعترف أن أمتنا في بعض الأحيان قد تصرفت بالاستكبار والجهل تجاه مجتمعات أخرى، وفي بعض الأحيان مارست سياسات مضللة وغير عادلة ونحن كأمة فشلنا في أحيان أكثر مما ينبغي في التعايش مع قيمنا... نعترف مرة أخرى ببعد المسافة بين مثالياتنا وتصرفاتنا».

في عام ١٤٨٢م أصدر ملك إنجلترا هنري السابع عهداً لجون كابوت قبل بدء رحلاته تعطيه الحق بأن «يغزو ويحتل تحت اسم الملك ورايته أي مدينة أو قلعة أو جزيرة أو أرض في أي مكان يكتشفه في شرق أو غرب أو شمال البحر من بلدان الحيثيين والكفار في أي جزء

---

(١) Z. Sardar & M.W. Davies, Why do people hate America? U.K. 2002, p.59

من العالم لا يكون حتى ذلك الوقت معروفاً للنصارى ويعطيه الحق في أن يغزو ويحتل ويحوز كل مكان من هذا النوع شريطة أن يدفع للملك خمس ما يكسبه في كل رحلة»[(١)].

وكانت هذه البداية للغزو الأنجلو سكسوني لما عرف فيما بعد الولايات المتحدة، ومع المحاربين الغزاة وصلت إلى هذه الأرض جحافل من المهاجرين الأنجلو سكسون البروتستانت وصل عددهم في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ستين مليوناً.

وكان هؤلاء الغزاة والمهاجرون يرون أنهم لكي يتمكنوا من سكن تلك المنطقة من العالم الجديد واستغلالها لابد لهم من طرد السكان الأصليين، الأمر الذي أدّى إلى قيام الحرب بين الفريقين وانتهى بإبادة السكان الأصليين الذين سموا الهنود الحمر، فبعدما كان عدد الهنود الحمر في هذه المنطقة قبل مجيء الأوربيين عشرين مليون إنسان، كان من بقي منهم بعد انتهاء حرب الأوربيين للهنود الحمر بمذبحة ووندني في عام ١٨٩٠م، مائتين وخمسين ألف إنسان[(٢)].

ظل العنصر الغالب في السكان الأنجلو سكسون البروتستانت الذين أطلق عليهم في ما بعد اصطلاح WASP وقد جلب هؤلاء معهم ثقافتهم إلى أمريكا الشمالية فسادت قيمها الخيرة والشريرة الأرض وكونت الثقافة الأمريكية، وإن كانت قد دخلت هذه الثقافة

---

(١) Ibid, p.144.

(٢) Ibid, p.158

عناصر من الجماعات الأخرى القادمة لأرض الولايات المتحدة اختياراً أو اضطراراً.

وإذ تزامن الغزو الأوربي لأمريكا مع الاستعمار الأوربي لأفريقيا فقد جلب المستعمرون ملايين من الأفارقة قام بهم نظام الرق في البلاد، وكما استولى البيض على أرض الهنود واستغلوها، فقد استغلوا عمل الرقيق، وبنيت بذلك الولايات المتحدة الأمريكية وارتكبت من أجل ذلك وفي ظله الفظاعات الإنسانية المعروفة في تاريخ الولايات المتحدة ضد الهنود الحمر، والأفارقة السود.

لقد أمر أبو الجمهورية الرئيس جورج واشنطن الجنرال جون سوليفان بأن «يحيل مساكن هنود الأوركوا إلى خراب وأن لا يصغي إلى نداء السلام حتى تمحى قراهم ومدنهم وآثارهم من وجه الأرض، ووصف طرد الهنود من أوطانهم بقوة السلاح بأنه لا يختلف عن طرد الوحوش المفترسة من غاباتها»[١].

وحتى توماس جفرسون كاتب وثيقة الاستقلال كان حكمه على الهنود الحمر الذين يقاومون التوسع «سنفنيهم ونمحو آثارهم من الأرض إننا مجبرون على قتل هؤلاء الوحوش أو طردهم مع وحوش الغابات»[٢].

---

(١) منير العكش، أمريكا والإبادات الجماعية (حق التضحية بالآخر)، بيروت ٢٠٠٢م، ص ٤٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٣.

ووصف الرئيس تيودور روزفلت مذبحة سان كريك التي جرت بعد ذلك بأكثر من قرن بأنها «عمل أخلاقي مفيد وقال: إن إبادة الأعراق المنحطة ضرورة حتمية لا مفر منها»[١].

وذكر جون تولاند في كتابه عن (هتلر) أن هتلر كان يبدى إعجابه بنجاح الإبادة الجماعية للهنود الحمر ويعتبرها من التجارب الرائدة التي يحبذها في خططه وبرامجه[٢]، وكما قال جيمس بولدن عضو الكونجرس في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر: «قدر الهندي الذي يواجه الأنجلو سكسوني مثل قدر الكنعاني الذي يواجه الإسرائيلي إنه الموت»[٣]، كان التوسع يقتضي باستمرار - وحتى انتهاء حرب الهنود الحمر طرد السكان الأصليين والاستيلاء على أراضيهم، وكما يقول سناتور هارت بنتون في خطابه أمام مجلس الشيوخ ١٨٤٦: «إن قدر أمريكا الأبدي هو الغزو والتوسع، إنها مثل عصا هارون التي صارت أفعى وابتلعت كل الحبال، هكذا ستغزو أمريكا الأراضي وتضمها إليها أرضاً بعد أرض ذلك هو (مصيرها الواضح Manifest Destiny) أعطها الوقت وستجدها تبتلع كل بضع سنوات مفازات بوسع معظم ممالك أوروبا»[٤].

---

(١) المصدر نفسه، ص ٧٩.

(٢) منير العكش، أمريكا والإبادات الجماعية (حق التضحية بالآخر)، ص ١٠١.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٢٣.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٠٥.

ولقد ظل تصوير السكان الأصليين بأنهم همج متوحشون عدوانيون جنس منحط، النغمة السائدة في الأعمال الأدبية الأمريكية، وفي أفلام هوليود، وفي وسائل الدعاية والإعلام، وفي الوقت نفسه يصور الغزاة بما ورد في عبارات سناتور ألبرت بيفرج «إن اللّه اصطفى الأمة الأمريكية من بين كل الأمم والشعوب وفضلها عليهم وجعلها شعبه المختار وذلك من أجل قيادة العالم وتخليصه من شروره»[1].

لقد تعرضت ثقافة السكان الأصليين لحملة تشويه لازمت حرب الإبادة وكانت سلاحاً من أسلحتها. لم يكتف التاريخ المنتصر بأن أطلق على غزاوته اسم حرب الهنود بل إنه أسقط كل فظاعاته الدموية على الهنود مثل عادة سلخ الرؤوس والتمثيل بالجثث[2] مما حمل أحد السكان الأصليين مارجو ثندر بيرد أن يكتب: «هاهم الآن بعد أن أفنوا شعوبنا يريدون أن يشوهوا الروح الهندية، وأن يزيلوا أغلى ما نعتز به، يريدون أن يمحوا تاريخنا ويعبثوا بتقاليدنا الروحية، يريدون أن يعيدوا كتابة ذلك من جديد وأن يخلقوه خلقاً آخر»[3].

والحق أن بعض كتب التاريخ تقدم صورة أخرى للسكان الأصليين فمثلاً كتب العالم الطبيعي CADWALLEDAR COLDEN في كتابه The History Of Five Indian Navons : «إنهم يعيشون في ظل اتحاد قائم بين هذه الأمم الهندية

(١) المصدر نفسه، ص١٤٩ .

(٢) منير العكش، أمريكا والإبادات الجماعية (حق التضحية بالآخر)، ص ٦٩.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٢٥.

الخمس منذ مئات السنين... كل أمة في هذا الاتحاد جمهورية لا مركزية مستقلة يقودها زعماء محنكون في السياسة.. يستمدون سلطانهم من حكمتهم ونزاهتهم ومن مبايعة أفراد الأمة لهم، لا يعرفون العنف والإكراه في التعامل مع أبناء أمتهم فالمحسن يثاب بالتكريم والاحترام والتبجيل والمسيء يعاقب بالازدراء ووصمة العار، إنك ترى هؤلاء الزعماء خدماً لشعبهم على نقيض الحال مع ملوك عالمنا القديم وحواشيهم، وتراهم أفقر الناس لأن عليهم ساعة اختيارهم أن يهبوا ما لديهم لعامة الناس، وأن لا يحتفظوا لأنفسهم بشيء من الهدايا الرسمية أو من غنائم الحروب، أما إذا زلت أنفسهم وخانوا هذه الفضائل فإن شعبهم لهم بالمرصاد، سرعان ما ينحيهم عن مناصبهم ويحتقرهم ويزدريهم»[1] ويستشهد كولدن بكلمات المؤرخ الفرنسي MONSIEUR DE LA POTERIE: «إننا حينما نتحدث في فرنسا عن الأمم الهندية فإن الصورة الأولى التي تتبادر إلى أذهان السامعين هي صورة البرابرة المتوحشين، ولكن الواقع مختلف تماماً فهم على مستوى رفيع جداً من السياسة والتشريع لم تعرفه فرنسا قط»[2].

في كتابه Indian Givers تحدث عالم الإنسانيات JACK WETHER FORD عن فضل الهنود الحمر على الحضارة الإنسانية وما يدين لهم به عالم اليوم في ميادين الزراعة

(١) المصدر نفسه، ص ١٧٦

(٢) منير العكش، أمريكا والإبادات الجماعية (حق التضحية بالآخر)، ص ١٧٦.

والصناعة والتشريع والطب والعمران وغير ذلك مما جحده التاريخ المنتصر[1].

لقد امتزج في ثقافة «الواسب» الميول الدينية بشعور التفوق الثقافي والعرقي، وامتزج الإيمان بالديمقراطية والحرية والعدل والصدق بالإرث الروماني وما يعبر عنه من النظرة الدونية للشعوب الأخرى، و ترسخت عقيدة الحق في التوسع والغلبة، وشاعت في هذه الثقافة بعض الشعارات مثل شعار «المصير الواضح» Manifest Destiny حتى صار لها وزن عقدي.

ولم يكن غريباً في ظل هذه الثقافة أن تولد الحركة المحافظة التي سميت فيما بعد بالأصولية Fundamintalism، هذه الحركة التي توجد جذورها في الحركة الألفية التي ظهرت في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن التاسع عشر، وقد أكد نمو الحركة الأصولية مواجهتها للتحديات الناشئة عن المد المتنامي للمهاجرين الكاثوليك، وشيوع أفكار النقد الليبرالي للكتاب المقدس في الثمانينيات والتسعينيات من القرن التاسع عشر، وبعد الحرب العالمية الثانية عزز التحدي الشيوعي هذه الحركة[2]، ولكن حتى بعد انهيار الاتحاد السوفييتي ظلت الحركة تنمو وتزيد حتى قيل إن المذهب الديني الذي يسندها هو الأسرع انتشاراً في الولايات المتحدة الأمريكية.

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٧٩.

(٢) New Encyclopaedia Britannica, Fundamantalism .

وفي عام ١٩٩٦م أظهر المسح الديني والسياسي الذي أجرته جامعة أكرون أن ٣١٪ من البالغين المسيحيين الأمريكان يؤمنون ـ أو يؤمنون بقوة ـ بحرب أرمجيدون(١).

وقد أظهرت دراسة أجريت في عام ١٩٧٩م على سبعين من ألمع الكتَّاب الأمريكيين المعاصرين أن حوالي ٢٥٪ منهم من المحافظين الجدد(٢).

ويتجاوز تأثير هؤلاء على الرأي العام نسبتهم نظراً لتميّزهم بالحماس لنشر أفكارهم.

ويلخص CLARKE و HALPER الخطوط الرئيسة لتفكير المحافظين الجدد في ثلاثة أمور:

١) الاعتقاد المبني على أساس ديني؛ أن المقياس الصحيح للخلق السياسي هو مدى الرغبة والعزم في مكافحة الخير (الذي يمثلونه) للشر.
٢) التأكيد على أن ما يجب أن تعتمد عليه العلاقات بين الدول هو القوة العسكرية والعزيمة على استعمالها.
٣) التركيز في البداية على الشرق الأوسط والإسلام العالمي كتهديد أساسي لمصالح أمريكا في الخارج(٣).

ولم يكن غريباً في ظل ثقافة الواسب التي ظلت رافداً مهماً للثقافة الأمريكية بوجه عام أن تظل الولايات المتحدة بعد انتهاء حروب

---

(١) Crace Halsell, Forcing God's Hand, 2003, p.5, 19.
(٢) S. HalPer & S. Clarke, America Alone, p.46.
(٣) Ibid, pp. 10-11

التوسع في الداخل عاجزة عن مقاومة الدافع للحركات العدوانية ضد الدول الأخرى.

وقد نشر ZOLTAN GROSSMAN قائمة بالتدخلات العسكرية للولايات المتحدة في الخارج خلال قرن تضمنت القائمة ١٣٧ تدخلاً تغطي فترة ١١١ عاماً، من عام ١٨٩٠م حتى عام ٢٠٠١م أي بمعدل 1.23 مرة في السنة ارتفع هذا المعدل إلى 1.29 خلال الحرب الباردة ثم ارتفع إلى معدل 2.0 بعد سقوط جدار برلين(١).

وفي خلال ٨٠ عاماً وقعت الولايات المتحدة عقوبات اقتصادية على البلدان الأخرى ١٢٠ مرة منها ١٠٤ مرات بعد انتهاء الحرب الباردة، وفي سنة ١٩٩٨م وحدها كانت الولايات المتحدة توقع العقوبات الاقتصادية على ٧٥ دولة تشمل ٥٢٪ من سكان العالم(٢).

وإلى جانب ذلك كله كانت الولايات المتحدة وحدها مع إسرائيل وفي بعض الأحيان دولة أخرى تصوت ضد قرارات الأمم المتحدة المتعلقة بحقوق الإنسان، أو السلام، أو نزع الأسلحة النووية، أو العدالة الاقتصادية، أو المقاومة ضد التمييز العنصري في جنوب أفريقيا، أو انتهاك إسرائيل للقانون الدولي أو ما شابه ذلك، وقد أحصى WILIAM BLUM مائة وخمسين حالة من هذا القبيل في الفترة بين ١٩٨٤ -١٩٨٧(٣).

---

(١) Z. Sardar & M. W. Davies, Why Do People Hate America? U.K. 2002, p.68

(٢) Ibid, p.79

(٣) Ibid, p.69

إن عجز الثقافة الأمريكية عن كبح الميل البشري الغريزي للعدوان ظهر في الإسراف في إنتاج وتخزين أدوات القتل والتدمير.

قبل عقود شيَّعَت الولايات المتحدة عشرين قبراً من الخرسانة المسلحة تحتوي على فائض من الغازات السامة، لكي تودع أعماق المحيط، بعد أن اكتشف الجيش الأمريكي أن هذه الكميات تزيد عن حاجته، ولكن الجيش استمر في تطوير الأسلحة الكيماوية والبيولوجية كمّاً ونوعاً، وتملك الولايات المتحدة حالياً ثلاثين ألف طن من الأسلحة الكيماوية[١] كما تملك أعظم مخزون في العالم وأدقّه تقنية من الأسلحة البايولوجية مثل الجدري وحمى الجمرة الخبيثة.

في نهاية عام ٢٠٠٤م بلغ إنفاقها العسكري قدر ما تنفقه دول العالم مجتمعة كما يظهر ذلك تقرير المعهد الدولي لأبحاث السلام الصادر في ٢٠٠٥/٦/٧م.

يخزن الجيش الأمريكي ٨,٠٠٠ رأس نووي يبلغ معدل القوة التدميرية لكل رأس عشرين ضعف قنبلة هيروشيما كل هذه الرؤوس نشطة وجاهزة للتشغيل وضعت ٢,٠٠٠ منها على قائمة إنذار دقيق دقة الشعرة جاهزة للإطلاق خلال خمس عشرة دقيقة[٢].

ويزيد في خطورة الأمر الإمكانات المتاحة والاحتمالات القريبة لاستخدام هذه القوة المدمرة وقتل الأبرياء، لقد استخدمت فعلاً في

(١) Ibid, p.113

(٢) روبرت مكنمارا، واقتربت الساعة، فورن بوليسي (النسخة العربية) مايو - يونيو ٢٠٠٥م.

عام ١٩٤٥م، وأظهرت الوثائق المفرج عنها أنها كانت على حافة الاستعمال خلال الحرب الباردة في مناسبتين[1].

ويصور روبرت مكنمارا وزير الدفاع الأمريكي السابق إمكانية استخدام هذه القوة بقوله: «كيف ستستخدم هذه الأسلحة ؟ لم تصادق الولايات المتحدة قط على سياسة عدم الاستخدام أولاً، ليس أثناء السنوات السبع التي قضيتها بصفتي وزيراً للدفاع، ولا بعد ذلك الوقت، لقد كنا وما زلنا مستعدين للبدء باستخدام الأسلحة النووية وبقرار من شخص واحد ضد عدو نووي أو غير نووي، في أي وقت نعتقد فيه أن من مصلحتنا القيام بذلك.. إن الأخطاء تكلف أرواحاً.. لكن لو كانت الأخطاء ستؤثر على الأخطار المتعلقة باستخدام الأسلحة النووية فلن يكون هناك منحنىً بياني لها ،فستكون النتيجة دمار أمم، إن المزيج غير التام للخطأ البشري والأسلحة النووية يحمل خطراً جدياً جداً بفاجعة نووية.. إن التصريح بأن أسلحتنا النووية لا تستهدف السكان أنفسهم كان وما زال مضللاً تماماً، من حيث ما يدعى بالضرر الجانبي للضربات النووية الكبرى ستتضمن موت الضحايا الأبرياء.. إنني أعرف من خلال خبرتي المباشرة أن سياسة الولايات المتحدة النووية اليوم تخلق مخاطر غير مقبولة للأمم الأخرى ولأمتنا.. سألخص سياسة الولايات المتحدة النووية الحالية بأنها غير

(١) روبرت مكنمارا، واقتربت الساعة، فورن بوليسي (النسخة العربية) مايو ـ يونيو ٢٠٠٥م.

أخلاقية ولا شرعية وغير ضرورية من الناحية العسكرية وخطيرة بشكل مرعب»[١].

لقد كانت حرب أفغانستان في عام ٢٠٠١م فرصة عملية لقياس المساحة التي تتيحها المكونات المختلفة والمتعارضة في الثقافة الأمريكية (والثقافة الغربية بوجه عام) لاتجاهات التسامح أو العدوان لقد حشدت الولايات المتحدة تحالفاً دولياً مكوناً من أربعين دولة لشن حرب ربما كانت من أغرب الحروب حتى لكأنما خرجت من مسرح اللامعقول.

وتمثل ردود الفعل في الولايات المتحدة تجاه هذه الحرب طبيعة الثقافة السائدة.

لقد أيدت غالبية الشعب هذه الحرب، وكاد تأييد الكونجرس لها أن يكون إجماعاً، وصدر بيان عن ستين من ألمع الكتّاب والمفكرين ينسبون إلى فئات دينية وثقافية مختلفة يقررون أنها (حرب عادلة)، وأن الشروع فيها «ليس جائزاً فحسب بل هو واجب أخلاقي» ومع تسليم البيان بأنه «لا تشرع الحرب في مواجهة الخطر القليل أو المشكوك فيه ولا في مواجهة الخطر الذي يمكن إزالته بطريقة المفاوضة أو غيرها من الطرق السليمة» فقد صرح بأنه: «عندما يكون الخطر على حياة الأبرياء خطراً حقيقياً يقينياً فحينئذ يكون اللجوء إلى استخدام القوة مبرراً أخلاقياً» وأن هذه الحرب ينطبق عليها الوصف المذكور ضد عدو يعتنق «فلسفة تنكر الاحترام المتساوي

---

(١) روبرت مكنمارا، واقتربت الساعة، فورن بوليسي.

لجميع الناس وبهذا الاتجاه تغدر ـ بالدين وترفض أساس الحياة الحضارية واحتمال تعايش الأمم بسلام وأخطر من ذلك أنه ربما تكون في متناولهم أسلحة كيماوية وبيولوجية ونووية والاستعداد لاستعمالها»، «نقول بصوت واحد وبجدية إن الفوز في هذه الحرب أمر ضروري لأمتنا وحلفائها ولكنا نعتقد أيضاً أننا نقاتل من أجل الدفاع عن المبادئ الأساسية التي تشمل حقوق الإنسان واحترامه والتي هي أكثر أمل لمستقبل البشرية».

وفي الجانب المقابل صدر بيان وقعه مائة وثمانية وعشرون كاتباً ومفكراً ينتسبون إلى فئات دينية وثقافية مختلفة، وتضمن هذا البيان: «نشعر نحن بوصفنا مواطنين أمريكيين بمسؤولية خاصة تحملنا على معارضة هذه الهبة المجنونة للحرب.. شنت الولايات المتحدة فيما يفترض أنه دفاع عن النفس حرباً على أفغانستان، وهذه الحرب لم يخطط لها بصورة خاصة على أنها رد فعل للأحداث التي وقعت في الحادي عشر من سبتمبر، بل الأمر على عكس ذلك إن ذلك بدقة ما كانت الولايات المتحدة قد أعدت له مسبقاً وخططت له من قبل كما يتضح ذلك من وثائق وزارة الدفاع الأمريكية... لكون الولايات المتحدة قوة عظمى فهي تشجع أتباعها من المحتفلين بالقوة الذين يحضون قادة الأمة السياسيين على الذهاب إلى ما هو أبعد فأبعد في استعمال قوتهم العسكرية الهائلة لفرض ما يريدونه على عالم متمنع، وهذا النهج قديم.. وهو يعني أن الخصال الطيبة التي يتصف بها القوي يجب أن تنشر لتفرض على الضعفاء عن طريق استعمال القوة... ولا يعي معظم المواطنين الأمريكيين أنه لا صلة بين آثار القوة الأمريكية في الخارج

وبين القيم التي يحتفل بها في الداخل بل إن هذه القوة غالباً ما تستعمل لحرمان الشعوب الأخرى من فرص محاولة التمتع بها إن هي حاولت ذلك... وأكثر الاحتمال في الواقع أن تكون الحروب الخارجية مصدراً لزعزعة القيم المحلية التي يقدسها المواطنون المدنيُّون في الداخل أكثر من كونها وسيلة لحماية تلك القيم ونشرها..

إن حق الدفاع عن النفس يجب أن يكون حقاً إنسانياً مشتركاً ذلك أن للإنسانية بمجموعها الحق في الحياة... لقد برهنت الولايات المتحدة وباستمرار على عدم مبالاتها بالموت الذي يتعرض له غير المحاربين والدمار الذي تخلفه جهودها التي تزعم أنها تصلح بها العالم، إن التضامن مع ضحايا القوة العسكرية هو السبيل الوحيد الذي يمكننا نحن مواطني البلدان الغنية أن ندافع عن أي قيمة من القيم الكونية التي ندّعي أننا نتمتع بها».

وفي بيان آخر وقعه أكثر من سبعين من المثقفين الأمريكيين جاء فيه: «الغرض من هذا البيان أن يسمع العالم أن المواطنين الأمريكيين لم يصمتوا حين أعلنت حكومتهم حرباً مفتوحة على العالم وسنت بعض التشريعات القمعية العنيفة الجديدة، إننا نعتقد أن للشعوب والدول الحق في تحديد مسارها ومصائرها ولها الحق في انتهاج ذلك بصورة حرة بعيداً عن إكراهات القوة العسكرية التي تمارسها القوى الكبرى، ونعتقد أنه يجب أن يتمتع كل الذين تحفظت عليهم حكومة الولايات المتحدة وحاكمتهم بالحقوق نفسها التي تضمن محاكمة عادلة». «هناك مسار مهلك للأحداث التي وقعت في الأشهر الماضية ويجب أن يعرف هذا المسار على حقيقته ويوقف في وجهه»، «نحن نعتقد أنه يجب على أصحاب الضمائر الحية أن يتحملوا

مسؤولية حكومتهم لهذا نحن ندعو الأمريكيين جميعاً إلى أن يعارضوا الحرب والقمع اللذين تشنهما (حكومتنا) على العالم، إن هذه الحرب ظالمة وغير أخلاقية وغير قانونية لقد اخترنا هنا أن نتضامن مع شعوب العالم».

«إننا نقول ليس باسمنا، إننا نرفض أن نكون طرفاً في هذه الحروب ونبرأ من أي استنتاج مفاده أنها شنت باسمنا أو من أجل مصلحتنا، إننا نمد أيدينا إلى أولئك الذين يقاسون من هذه السياسات في أنحاء العالم كله».

المثقفون الأمريكيون سواء الذين أيدوا الحرب على أفغانستان أم الذين عارضوها كلاهما أتيحت له المعلومات نفسها عن طبيعة الحرب، وكلاهما يستعمل المنهج المنطقي نفسه في الاستنتاج، وإذاً فلابد أن يكون مصدر التناقض في حكمهما من تأثير الجوانب المختلفة للثقافة الأمريكية.

الثقافة الأمريكية هي التي أوحت للوالدين OZLAN AND PHILLS RODRINGS بأن يكتبا للرئيس عندما بدأ قصف أفغانستان: «إن رد فعلك على الهجوم لا يجعلنا نشعر شعوراً أفضل تجاه موت ابننا بل يجعلنا نشعر أن حكومتنا استخدمت ذكرى ابننا لتبرير المعاناة والآلام التي تسببها لآباء وأمهات آخرين في بلاد أخرى»، وهذه الثقافة نفسها هي التي سمحت للرجل العسكري الأمريكي أن يلقى على أفغانستان ٧٠,٠٠٠٠ من القنابل العنقودية التي ستظل لأجيال تقتل أبرياء، أو أن يقصف حفل عرس بناء على خبر ظهر كذبه فيما بعد - يفيد أن أحد أو بعض المحاربين من العدو الأفغاني سوف يحضر العرس.

الثقافة واحدة ولكن يختلف تأثيرها باختلاف الشخص وهل هو من أفراد الشعب العاديين أم من النخبة السياسيين أو العسكريين أو المثقفين المتعصبين.

بمناسبة محاكمة نورمبرج في أعقاب هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الثانية قال الرئيس الأمريكي ترومان: «إن إعدام شخص أو عقابه دون أن تثبت إدانته في محكمة عادلة لا ينسجم بسهولة مع الضمير الأمريكي، ولن يذكره أطفالنا بالفخر» ولا يمكن أن نستنتج من هذا أن الثقافة الأمريكية في خلال ستة عقود تطورت إلى مرحلة جعلت حالة الأسرى في جوانتنامو أو حالة الأمر العسكري الذي وقعه الرئيس في ١٣ نوفمبر ٢٠٠١م أمراً ينسجم مع الضمير الأمريكي أو يذكره الأمريكيون بالفخر، لم تتغير الثقافة الأمريكية وإنما الظروف هي التي تغيرت، في الحالة الأولى كان الأسرى أوربيين وفي الحالة الثانية كان الأسرى مسلمين يدافعون ضد هجوم حربي على بلادهم.

إن الثقافة الأمريكية كغيرها من الثقافات البشرية تحتوي على كنز ثري من القيم الإنسانية والحضارية كما تحتوي على مكونات أخرى هي مزيج من التاريخ والموروثات الثقافية والغرائز البشرية.

والمهم في بحث موضوعنا أن الجانب الخيّر في هذه الثقافة الأمريكية لا ينجح دائماً في كبح الجانب الآخر.

ولعل من أسباب ذلك أن التسليم بالقيم الإنسانية في هذه الثقافة لا يرتفع دائماً إلى المستوى الأيدلوجي، وإنما يبقى في المستوى النفعي ووفق مقتضى اعتبار الذات، وأعنى بالأمر الأخير أن الغرب يسرف في التمدح بالتحضر ورعاية القيم الإنسانية وادعاء تميزه في ذلك عن بقية الشعوب ويصم الآخر بالتخلف والهمجية، وغياب أو قصور الحرية

والعدل والمساواة وحقوق الإنسان في المجتمعات الأخرى، وخلق هذا الجو الفكري ضغطاً على الإنسان الغربي يحمله على الالتزام بتطبيق تلك القيم في مجتمعاته المحلية، وفي ظل ظروف معينة.

كما أن الاستجابة لاعتبارات الرياء والسمعة تحمل الإنسان الغربي على الغيرة من أن ينسب إلى الإخلال بتلك القيم الحضارية، ولتوضيح هذه الفكرة بالمثال:

في الجدل حول معاملة أسرى الحرب الأفغانية في جوانتنامو علق السيناتور باتريك لياهي بقوله: (لقد سبب هذا الوضع إحراجاً دولياً لدولتنا وقيمنا) وعلق السيناتور أدوارد كندي بقوله: (انتهاكات حقوق الإنسان في جوانتنامو جلبت العار على الدولة وفي كثير من أنحاء العالم ينظرون إلينا على أننا الدولة التي تسحق الناس بدون محاكمة وتعذبهم).

بالطبع هذا لا يعني أن كلا السياسيين الأمريكيين لم يقلقا لمعاملة الأسرى في جوانتنامو باعتبارها تنتهك قيمة من قيم الثقافة الأمريكية، ولكن ما تسببه تلك المعاملة من تشويه لسمعة الولايات المتحدة كان له الوزن الأكبر في الجدال حول القضية.

الثقافة الأمريكية صورة للثقافة الغربية، والثقافة الغربية تعبر عن نضج الإنسان وتطور تفكيره، وتسليمه بالقيم الإنسانية واستشرافه لصياغة الحياة وفق مقتضاها، وفي الوقت نفسه لا تنفي هذه الثقافة شوائب أخرى مثل: سيادة فكرة الصراع، والنسبية الخلقية، والمكيافيلية والمعايير المزدوجة للقيم، والإخفاق في ضبط الميول الغريزية الحيوانية، ولكن ربما كان أهم عامل في ما يحدث من إخفاق للثقافة الغربية في رعاية القيم الإنسانية بما فيها قيمة التسامح ومقاومة النزعة العدوانية أن تسليم المثقفين الغربيين بالقيم

الإنسانية ليس في كل الأحوال تسليم الإيمان القلبي بل هو في أحيان كثيرة تسليم المنطق النفعي.



خَاتمة

خاتمة

١) أوضح الفصل الأول مدى المساحة التي أتاحتها نصوص القرآن الكريم، والسنة المطهرة، وكتابات علماء المسلمين لمعاني الرحمة والعفو والصبر، وأن هذه المعاني هي جذور التسامح وفي الوقت نفسه هي مظاهره وثمراته.

وأوضح الفصل الثاني منزلة حسن الخلق في الإسلام ومدى عناية الإسلام بالتربية عليه، وليس التسامح إلا صورة من صوره.

وأوضح الفصل الثالث أن تصور المسلم للكون والحياة المؤسس على فكرة الانسجام والتكامل ووحدة القانون الحاكم، هذا التصور يجعل التسامح بالضرورة جزءاً من طبيعة الإسلام ومن مكونات جوهره.

وأوضح الفصل الرابع أن سيادة طابع الوسطية والاعتدال والتوازن ورفض التطرف من شأنه ـ بحكم ما تقتضيه طبائع الأمور ـ أن يضيق المجال أمام العدوانية وعدم التسامح.

وأوضح الفصلان الخامس والسادس أن آثار ارتباط التسامح بالإسلام ظهرت في إلغاء التمييز العنصري وفي قبول التعددية والتعايش مع الآخر بصورة ندر وجود مشابه لها في تاريخ الحضارات المختلفة.

وأوضح الفصل السابع أن التسامح لم يكن ليغيب في ثقافة الإسلام حتى في ظروف تناقض مصالح الدول أو قيام الحرب بينها.

وبغرض تمام الإيضاح بالمقارنة جاء الفصل الثامن يبين منزلة التسامح قيمةً إنسانيةً، وتطبيقاته عملياً في الثقافة الغربية ممثلة في نموذج الثقافة الأمريكية.

٢) إن التسامح فكرة وتطبيقا يخضع لفكرة الانسجام والتكافل والتوازن التي تحكم تعاليم الإسلام ومبادئه وأحكامه، فهو لا يعني التفريط في أن تكون لله العزة ولرسوله وللمؤمنين، ولا يعني الخضوع للظلم أو خذلان المظلومين، ولا يعني عدم التمييز بين الحق والباطل، ولا يعني الإخفاق في تحقيق الولاء والبراء في صورته الصحيحة المنسجمة مع روح الإسلام وتعاليمه.

٣) حفل تاريخ المسلمين كما حفل تاريخ غيرهم بصور من العدوانية والتعصب وعدم التسامح ولكن الضمير الخلقي الجمعي للأمة الإسلامية ظل واعيا بمناقضة تلك الصور لروح الإسلام ومبادئه.

وفي العصر الحاضر يخشى بسبب التأثير الطاغي للثقافة الغربية الذي يسنده الانبهار بالتقدم المادي والتكنولوجي والمعرفي للغرب وسلطان الإعلام المسيطر أن يصاب الضمير الخلفي الجمعي للأمة بتشوهات غير إسلامية، وإن تسرب بعض اتجاهات الثقافة الغربية إلى مجتمعات المسلمين مثل النسبية الأخلاقية والميكيافيلية والأنانية والتسليم بفكرة الصراع والمغالبة حتى في أوساط بعض العاملين للإسلام، يدعو إلى تلك الخشية.

❁❁❁

كل ما سبق حري بأن يلفت نظر الجهات المسؤولة عن التربية في المجتمعات الإسلامية إلى ضرورة توعية النشء بالتصور الإسلامي عن التسامح باعتباره قيمة أساسية في حياة المسلم، وتحصينه من أي تشويه

يمكن أن تتعرض له هذه القيمة الإنسانية من قيم الإسلام.

وبالله التوفيق،،،



ملحق

بالرغم من مرور أكثر من أربع سنوات على الحادث الإجرامي فلا يزال يلفه الغموض:

أ. قبل شهر من الحدث كان قد صدر في الولايات المتحدة كتاب: James Bamford المعنون Body of Secret وقد تحدث فيه بناء على وثائق تحت يد المؤلف عن عملية Northwoods، وكان الجيش الأمريكي بعد فشل عملية خليج الخنازير لديه رغبة عارمة للهجوم على كوبا، وكان في حاجة لمبرر كاف لكسر معارضة الرأي المحلي والدولي للحرب ضد كوبا، تضمنت الوثيقة: «أن الرأي العام العالمي والأمم المتحدة ينبغي أن يتأثراً إيجابياً بتطوير الصورة الدولية للحكومة الكوبية بوصفها متهورة ولا تشعر بالمسؤولية وتمثل خطراً مخيفاً ولا يمكن التنبؤ به على السلام في نصف الكرة الغربي». وشملت خطط الجيش لهذا الغرض عدة بدائل، منها: قصف سفينة حربية في جوانتنامو، ونسبة هذا العمل لكوبا، كما تضمنت خدعة معقدة بأن تطلى طائرة في قاعدة Elgin الجوية وتعطى رقماً مطابقاً لرقم طائرة مدنية مسجلة لمؤسسة أمريكية، وتحل الطائرة المطابقة الأصل محل الطائرة الأصلية في وقت محدد وتحمل ركاباً منتقين يصعدون إلى الطائرة بأسماء مستعارة أعدت بعناية وتحول الطائرة المسجلة الأصلية إلى طائرة غير مأهولة يسيطر عليها عن بعد ويحدد مواعيد إقلاع الطائرة غير المأهولة والطائرة الأصلية بحيث تلتقيان جنوب فلوريدا ومن نقطة اللقاء تهبط الطائرة التي تحمل الركاب إلى ارتفاع

الحد الأدنى وتتجه مباشرة إلي مطار ثانوي في قاعدة Elgin حيث تكون أعدت ترتيبات لإخلاء الركاب وإعادة الطائرة إلى وضعها الأصلي وفي الوقت نفسه تواصل الطائرة غير المأهولة التحليق وفقاً لخطة الطيران وعندما تصبح فوق كوبا ترسل الطائرة غير المأهولة، إشارة استغاثة لاسلكية دولية تذكر أن الطائرة تتعرض لهجوم طائرات ميج ويقطع الإرسال بتدمير الطائرة بتفجيرها بإشارة لاسلكية، ويمكن هذا محطات اللاسلكي لمنظمة الطيران المدني الدولية في نصف الكرة الغربي من إبلاغ الولايات المتحدة بما حدث للطائرة بدلا من محاولة الولايات المتحدة [نفسها] تسويق الحادث، على أن أخطر البدائل كان تفجير مركبة غلين أول رائد أمريكي يطلق إلى مدار حول الكرة الأرضية «فإذا انفجر الصاروخ وقتل غلين يكون الهدف تزويد برهان لا يدحض بأن المسؤولين هم الشيوعيون وكوبا» «وأن هذا يمكن أن ينجز باختلاق أدلة مختلفة تثبت التدخل من جانب الكوبيين». انظر الترجمة العربية لكتاب بامفورد بعنوان: «هيئة الأسرار»، ص ٣٧ - ٧٧. وانظر: David Ruppe, U.S. Military Drafted Plan to Terrorize U.S Cities to Profoke War with Cuba, Abc News Com, Nov 2001/11/7.

ب. منذ الساعات الأولى لوقوع حادث ١١ سبتمبر شغل الإعلام الأمريكي بخاصة في تهيئة البيئة الذهنية لقبول فكرة نسبة الحادث لإرهابيين إسلاميين وذلك بإجراء اللقاءات وإذاعة تعليقات المحليين والخبراء، وعندما أبلغ الرئيس بالحادث أكد له نائبه والأجهزة المختصة بأنه توجد أدلة يعتمد عليها تثبت أنه وطائرته مستهدفان من قبل الإرهابيين ونصح الرئيس بأن يلجأ لأقرب

قاعدة عسكرية ثم إلى أقوى القواعد العسكرية تحصيناً في الولايات المتحدة وتسببت هذه الإجراءات الجدية في تأخير وصول الرئيس إلى واشنطن، وبعد ذلك لم ينشغل أحد بالسؤال عن طبيعة الأدلة التي اقتضت تلك الإجراءات، هل تبين فيما بعد أنها أدلة لا يعتمد عليها ؟ جرت محاولات لاحتواء المعلومات التي تسربت بهذه المناسبة في أوقات مختلفة فجرت في الأيام الأولى محاولة احتواء المعلومة التي مفادها أن الإرهابيين اخترقوا سرية المعلومات وعرفوا شفرة طائرة الرئيس، أما المعلومة التي كانت تقول بأن المحررين على طائرة الرئيس أمروا بغلق هواتفهم المحمولة تفادياً لتحديد الإرهابيين موقع الطائرة في الجو فقد احتاج الأمر عدة أشهر لتجرى محاولة احتوائها. وتناقلت الأخبار التعليق من المختصين على المهارة المهنية المذهلة التي تمت بها مناورات الطائرات المخطوفة لتحديد أهدافها ولاسيما الطائرة التي صدمت مبنى البنتاجون وتعمدت اختيار الجناح الذي لم يكن وقتها يشغل بالمكاتب، وإنما كان تجرى عليه عمليات الصيانة، ولم تختر الهدف الأسهل " الجناح المشغول بمكاتب القادة العسكريين" بل تمكنت الطائرة بقدرة ميتافيزيكية أن تحدد دفاعات البيت الأبيض ودفاعات البنتاجون، لقد كان الاستنتاج من القدرة الفنية للطيارين، أنهم على درجة عالية من التدريب والخبرة، ولم يهتم أحد بعد ذلك بالسؤال مَنْ من الخاطفين الانتحاريين يتوفر له مثل هذا التأهيل.

ت. لم تكد تمضي ثلاثون ساعة على الحادث حتى كانت الصور الكاملة للأخوين بخاري الطيارين السعوديين تملأ شاشات التلفزيون الأمريكي ثم العالمي، وعرف العالم كله وقتها أن الطيارين الأخوين بخاري تم التعرف على هويتهما من قبل الإدارة

الأمريكيـة، وعـرف أنهمـا قامـا بقيـادة اثنـتين مـن الطـائرات الانتحارية.

ولكـن بعـد أن انكشـف فيمـا بعـد أن أحـد هـذين الطيـارين لا يزال حياً وأن الآخر كـان قد مات قبل سنة من وقوع الحادث لم يعرف هذه الوقائع المثيرة إلا قلة من الناس، وثم عرف العالم عن توصـل الإدارة الأمريكيـة إلى اكتشـاف هويـات المخـتطفين الانتحاريين البالغ عددهم تسعة عشر، ونشرت في وسائل الإعلام صورهم الفوتوغرافية وأسماؤهم كما وضعت على حوائط المباني العامة وحوائط المطارات العالمية، بقصد طلب معلومات عنهم ممن سبق له معرفة أي منهم.

وقيل إن من بين هؤلاء أحد عشر أمكن التعرف على هويتهم بـأنهم مواطنـون سـعوديون، ولكـن بعـد نشـر هـذه الصـور ظلـت الصحف السعودية توالي نشر إعلان عدد منهم بأنهم أحياء يرزقون ولم تمض بضعة أيام حتى كان وزير الداخلية السعودية يصرح بأن سبعة من هؤلاء الذين ظهرت صورهم وأسماؤهم ضمن المتهمين التسعة عشر لا يزالون أحياء، وبعد صدور هذا التصريح بيوم أعلن شخص ثامن في إحدى الصحف السعودية بأنه حي، أما الشخص التاسـع فقـد تـبين أن جـواز سـفره في حـوزة الإدارة الأمريكيـة، ولكـن لا يـزال الأمـر غامضًـا في كيفيـة وصـول جـواز سـفر الانتحاري المتهم إلى الإدارة.

بعد أن سخر الناس من التفسير الذي قدمته الإدارة الأمريكية أن جواز سفر الانتحاري نجا من الحريق في الوقت الذي لم تنجُ منه

الطائرة ولا حمولتها، لم يعرف إلا قليل من الناس عن هذه الوقائع بل لم ير أحد أن هذه الوقائع الغريبة والمثيرة تستحق الاهتمام بها، بل إنه حتى بعد انكشاف أن الانتحاريين أحياء ظلت صورهم وأسماؤهم مدة طويلة تزين حوائط المباني العامة والمطارات العالمية.

لم تقدم ـ فيما يعلم ـ أية كلمة اعتذار لأي من هؤلاء المطلوبين الذين شوهت سمعتهم عالمياً، ليس فقط بسبب هوانهم على الناس بل ربما لأن الاعتذار لهم سوف يؤثر سلباً على حجب المعلومة عن أن يطلع عليها الناس داخل الولايات المتحدة وخارجها.

كان اتهام تسعة عشر شخصاً من المسلمين بتنفيذ العمل الإجرامي الفظيع مبنياً على افتراض أنه لا يحتمل أن يقدم على مثل هذا العمل إلا إرهابيون مسلمون وأن هؤلاء التسعة عشر هم من بين ركاب الطائرات المخطوفة، من يحملون أسماء إسلامية، واستبعد احتمال أن يكون أحدٌ من هؤلاء الركاب راكباً عادياً قدّر اللّه له أن يكون في المكان غير المناسب.

وكانت الأخبار نشرت عن رجل أفغاني كان من المفروض أن يكون من بين الركاب، ولكن حظه الحسن خدمه مرتين إذ نجا من الموت، ونجا من أن يتهم بأنه الإرهابي العشرون.

قيل إن كل الركاب بما فيهم الخاطفون ذابوا وتبخروا بفعل الحرارة العالية، فأصبح من المستحيل التعرف على شخصياتهم فضلا عن معرفة دورهم في الحادث الإجرامي؛ لذلك كانت الإدارة الأمريكية عند الحديث عنهم تتحفظ في وصفهم فتصفهم

بالمتهمين، أما الإعلام العربي فلم يكن في حاجة إلى التحفظ فيصفهم بالفاعلين.

ث. بعد أشهر أعلن مدير المباحث الفيدرالية في الولايات المتحدة أن الخاطفين لم يتركوا أي أثر يدل على صلتهم بغيرهم، وذكر أنه لم يوجد في أمريكا ولا في أفغانستان بعد استيلاء قوى التحالف الدولي عليها أي قصاصة ورق تدل على صلتهم بغيرهم.

لقد كان مفهوماً عجز الأجهزة الذكية الأمريكية عن اكتشاف المؤامرة الإرهابية التي كانت وراء الحادث قبل وقوعه إذ كان يمكن نسبة ذلك إلى عامل المفاجأة أو عدم توقع مثل هذا الحادث، أما عجز الأجهزة الذكية بقواها المذهلة عن اكتشاف ملابسات الحادث بعد وقوعه فذلك يدل - بعد التسليم به - أن المخططين الإرهابيين كانوا يتمتعون بقدرات خارقة، لإماتة أسرار الحادث الفظيع.

صدرت عدة كتب لمؤلفين أمريكيين وغير أمريكيين يتمتعون بالاحترام والسمعة الجيدة من الناحيتين الحرفية والأخلاقية تكشف عن خروقات تتعذر على الترقيع في التفسير الذي بيع على العالم لحدث ١١ سبتمبر ذلك التفسير الذي بنيت عليه نتائج بالغة الخطورة. ومن هذه الكتب: كتاب " New Pearl Harbor " لمؤلفه " Erich Hafchmed Erich " وكتاب " Painful Questions" لمؤلفه " Jim Marrs " وكتاب " Inside Job " لمؤلفه " David Griffen " وكلها تتهم قوة نفوذ محلية بالتخطيط للحدث الإجرامي أو المساعدة على وقوعه.

ج. بعد شهر تقريباً من وقوع الحدث الإجرامي في ١١ سبتمبر كانت رسائل توجه لأعضاء في الكونجرس أو لصحفيين كبار تحتوي على مسحوق بكتيريا الجمرة الخبيثة وتحمل عبارات: «الموت لأمريكا، الموت لإسرائيل، الله أكبر». وقامت الدنيا ولم تقعد وتشبع جو الولايات المتحدة بالرعب والغضب والنقمة على الإرهابيين الإسلاميين الذين يحوزون الآن السلاح البيولوجي وقد شرعوا فعلا في استخدامه بإرسال الرسائل المشار إليها، لاسيما بعد وقوع إصابات فعلية انتهت أحياناً بالوفاة.

ولكن بعد ما أكتشف أن مسحوق البكتريا المستخدم في الرسائل يبلغ درجة من النقاء (ترليون جرثومة في الجرام الواحد)، وأن المسحوق بمثل هذه الدرجة من النقاء لا ينتج إلا في معامل الجيش الأمريكي وربما في معامل الجيش الإسرائيلي، بعد أن أكتشف ذلك قعدت الدنيا ولم تقم، وماتت قضية الإرهاب البيولوجي، وإن ظل الشعب الأمريكي بين وقت وآخر ينبه إلى خطر حصول الإرهاب الإسلامي على مثل هذا السلاح واستخدامه.

ح. منذ عهد مكيافيلي والحكومات ولاسيما في العصور الحديثة تستخدم أسلوب «الحرب القذرة» ولكنها تتخذ كل الاحتياطات لضمان عدم انكشاف الفضيحة الأخلاقية الناشئة عن استخدام هذا الأسلوب. ولأول مرة في التاريخ يصرح علنا رئيس دولة بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١م أن حكومته سوف تستخدم أسلوب الحرب القذرة في حربها القادمة.

❁❁❁

قائمة المراجع والمصادر العربية

١. ابن تيمية، أحمد بن عبدالسلام أبو العباس، مجموع الفتاوى، وزارة الشؤون الإسلامية الأوقاف والدعوة والإرشاد، ١٤١٦هـ ١٩٩٥م.

٢. ابن حميد، إشراف د.صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن محمد الملوح، تأليف مجموعة من المختصين، موسوعة نضرة النعيم، دار الوسيلة، تاريخ النشر ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م .

٣. ابن سعد، محمد بن سعد أبو عبدالله، الطبقات الكبرى، دار صادر بيروت، تاريخ النشر ١٩٦٨ م .

٤. ابن سلام، أبو عبيد القاسم بن سلام، كتاب الأموال، دار الشروق، تاريخ النشر ١٩٨٩م.

٥. ابن القيم، شمس الدين محمد بن أبي بكر أبو عبدالله، زاد المعاد في هدي رب العباد، دار عالم الكتب للنشر والتوزيع، تاريخ النشر ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

٦. ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء، إسماعيل بن كثير، تفسير القران العظيم، مؤسسة الريان، بيروت، تاريخ النشر ١٤٢٠هـ.

٧. ابن ماجه، محمد بن يزيد أبو عبدالله، السنن، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع.

٨. ابن هشام، محمد بن عبد الملك أبو هشام، السيرة النبوية، دار المعرفة، بيروت، تاريخ النشر:١٤٢٢ هـ.

٩. أبو داوود، سليمان بن الأشعث، السنن، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع.
١٠.أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم القاضي، الخراج، المطبعة السلفية القاهرة.
١١.أحمد، محمد مرزوق أحمد، التجربة الأندلسية الموريسكية، السجل العلمي لندوة الأندلس، فروق من التقلبات والعطاءات.
١٢.الألباني، محمد ناصر الدين، صحيح الجامع الصغير وزياداته، المكتب الإسلامي، تاريخ النشر ١٩٨٦م.
١٣.باترسون، توماس، س، الحضارة الغربية، (الفكرة والتاريخ) ترجمة شوقي جلال، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، تاريخ النشر ٢٠٠٢ م .
١٤.البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله، الجامع الصحيح المسند، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع، تاريخ النشر ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م.
١٥.الترمذي، محمد بن عيسى ، الجامع المختصر من سنن رسول الله ﷺ ومعرفة الصحيح والمعلول وما عليه العمل، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع.
١٦.ديورانت، ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة زكي نجيب محمود، دار الجيل ، تاريخ النشر ١٩٩٠م.
١٧.الرازي، محمد بن عمر ، التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، دار الكتب العلمية، تاريخ النشر ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

١٨.الشاطبي، ابراهيم بن يوسف اللخمي أبو اسحق، الموافقات في أصول الشريعة، دار الكتب العلمية.

١٩.الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، دار المعارف، تاريخ النشر ١٩٦٣م.

٢٠.الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان، دار عالم الكتب، الرياض، ١٤٢٤هـ.

٢١.العكش، منير العكش، أمريكا والإبادات الجماعية (حق التضحية بالآخر)، رياض الريس بيروت، ٢٠٠٢م.

٢٢.العمري، أكرم ضياء الدين، السيرة الصحيحة، مكتبة العبيكان، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ ١٩٩٧ م.

٢٣.فرانكل، جوزيف فرانكل ، العلاقات الدولية، ترجمة الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي، الطبعة الثانية، مكتبة تهامة.

٢٤.القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، دار الحديث القاهرة، تاريخ النشر١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

٢٥.لبون، جوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، مكتبة الأسرة، تاريخ النشر ٢٠٠٠م .

٢٦.المتقي الهندي، علي بن حسام، كنز العمال، المكتب الإسلامي ، تاريخ النشر ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م.

٢٧.محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق ، ترجمة عمر فروخ، دار العلم للملايين ، تاريخ النشر ١٩٨٧م .

٢٨.محمد أسد، الطريق إلى مكة، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، تاريخ النشر ١٤٢٥ هـ.

٢٩.مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسين، الصحيح، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع.
٣٠.مكنمارا، روبرت مكنمارا، واقتربت الساعة، فورن بوليسي (النسخة العربية) مايو ـ يونيو ٢٠٠٥م.
٣١.النسائي،أحمد بن شعيب أبو عبدالرحمن، السنن، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع.
٣٢.هوفمان، مراد هوفمان، الإسلام،عام ٢٠٠٠م، ترجمة عادل المعلم، الطبعة الأولى.



قائمة المصادر والمراجع الأجنبية

a. Akbar,S.A.Islam Under Siege,U.K2003
b. Arasli,J.The West and Terrorism(article in"Saudi and Terror")Riyadh 2005.
c. Arnold,Thomas.Preaching of Islam,London1913.
d. Asad,M.The Road to Mecca.Gibraltar1980.
e. Asad,M Islam at The Cross Roads Gibraltar1982.
f. Blyden,Christianity,Islam and The Negro Race.1969.
g. Bodley,E.The Messenger,1954.
h. Bulloch,Kathrene.Rethinking Muslim Women and the Veil,U.S.A2003.
i. Clark,John Mauric,Alternative of Serfdom.New York 1984.
j. Dermenghem,E.The Life of Mahomet,1930.
k. Einstein,Albert.Out of My Later Years.Edison,2005.
l. Encyclopedia Britannica,1986.
m. Gibb,H.A.R Whither Islam1932.
n. Gilman,Arthus.Saracens.1887.
o. Glynn,Patrick.God,Evidence.U.S.A 1997.
p. Halper,S and Clark,J.America Alone.U.K 2004.
q. Halsell,Grace.Forcing God's Hand.U.S.A 1999.
r. Lyer,C.P.Rama Swamy.Eastern Times,22December1944.(What They say about Islam)Islamic Cultural Center,London web site.
s. Leonard,A.G.Islam, 1959.
t. Maritians,Jacque.The Range of Reason.London 1953.
u. MERIT Student Encylopedia,1981.
v. Monocal Maria Rosa.Ornament of The World. U.S.A.2002
w. THE NEW Encylopedia Britannica.15 th Edition.
x. Niebuhr,Reinhold.Christian Realism and Problems.New York,1953.

y. Nixon,R.Beyond Peace u.s.a. 1994.
z. O'Leary,De Lacy.Arabic Thought and its place in history.
aa. Pouell,Alexander.Struggle of power in Moslim Asia.
bb. Roy,M.N.Historical Role of Islam.
cc. Russell,Bertrand.New Hope for a Changing World.New York,1951.
dd. Sardar,Z and Davies,M.W.Why People Hate America.U.K.2002.
ee. Silver,Eric.Begin,Biography,London,1984.
ff. Smith,B.Mohammad and Mohammadanism.1874.
gg. Toynbee,Arnold J.Civilization on trial.New York 1948.
hh. Toynbee,Arnold J.Study of History.
ii. Triton,A.S.Islam.1951.
jj. Vaglieri,Laura Veccia.An Interpretation of Islam,U.S.A.1958.
kk. Vinekimanda,Swamy.Letters of Swamy Kononda.(p.463 What they say about Islam).Islam Cultural Center(London)2003.
ll. Wells,H.G.Outlines of History.London1920.
mm. Wells,H.G.Short History of the World.



المحتويات






تعريف المكتب التعاوني للدعوة والإرشاد وتوعية الجاليات بالمدينة المنورة

المكتب التعاوني للدعوة والإرشاد وتوعية الجاليات بالمدينة المنورة: هو مؤسسة دعوية تهتم بالدعوة إلى الله وتوعية الجاليات في المدينة المنورة، تعمل تحت إشراف وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد تم إنشاؤه في عام ١٤٢٨هـ بموجب التصريح الصادر من وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد رقم (١٦ / ٣٠١).

ويشرف على أعمال المكتب مجلس إداري برئاسة فضيلة الشيخ د. عبدالمحسن بن محمد القاسم إمام وخطيب المسجد النبوي الشريف، ويضم عدداً من أهل العلم والفضل وتدار أنشطته من خلال أقسام متخصصة ضمن جهاز إداري متكامل.

أقسام المكتب الدعوية

قسم التوعية العامة: ويهتم بإقامة البرامج الدعوية للمجتمع والقرى المجاورة ويعمل على تأهيل الدعاة وإقامة البرامج العلمية لطلبة العلم، وذلك من خلال: المحاضرات، الدروس العلمية، الدورات العلمية، الكلمات الوعظية، المعارض الدعوية وغيرها.

قسم توعية الشباب: ويهتم بتوعية الشباب في حلقات تحفيظ القرآن ومراحل التعليم وفي أماكن تجمعاتهم عبر وسائل متعددة، وذلك من خلال برامج متعدد مثل: بناء الأجيال، أحببناك فأهديناك، جوال السعادة.





قسم توعية الجاليات: ويعمل على دعوة غير المسلمين ورعاية المسلم الجديد وتوعية الجاليات المسلمة في الشركات والسجون وغيرها، وذلك من خلال: البرامج التوعوية والتعليمة والملتقيات الدعوية والترجمة والجولات الدعوية وتوزيع المطبوعات.

قسم توعية الزوار: ويقوم على توعية زوار مسجد رسول الله ﷺ من الحجاج والمعتمرين بلغات مختلفة، كما يقوم بتسيير رحلات مجانية لهم لأبرز معالم المدينة المنورة الشرعية وبيان أحداث السيرة المرتبطة بها، كما يقوم بإكرام الوجهاء والأعيان من الزوار .

ويهدف القسم إلى تبصير الحجاج والمعتمرين بمناسك الحج والعمرة وتعميق صلتهم بالله، كما يهدف إلى إجلال العلماء والدعاة وإكرام الوجهاء أثناء تأديتهم لمناسك الحج والعمرة والعناية بهم وتوطيد العلاقة معهم وتحفيزهم على الدعوة إلى الإسلام في بلدانهم.

القسم النسوي: ويهتم بتوعية الفتيات في مراحل التعليم العامة، وفي النوادي والمشاغل وغيرها، كما يقوم بإقامة الملتقيات النسائية، وإعداد الداعيات، ويقدم عدداً من البرامج من أبرزها: رحلة النور (لغير المسلمات)، الداعية الصغيرة، نواعم باسقات، معرض على خطاك حتى نلقاك.